مقتضيات

لا إله إلا الله

على منهاج النبوة

د.ليلى حمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾

(الأنعام: 153)

إلى كل قلب آمن بـ "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

فعاش لها، وجاهد بها، ومضى عليها.

إلى كل من بذل نفسه وماله لتكون كلمة الله هي العليا،

ولئلّا تكون فتنة، ويكون الدين كله خالصا لله.

إلى كل روح ارتقت في سبيل الله

لمراتب الجهاد والشهادة والصديقية والصلاح.

مقتضيات لا إله إلا الله

د.ليلى كعدان

الفهرس

الفهرس 4

المقدمة 5

لماذا الحديث عن مقتضيات " لا إله إلا الله محمد رسول الله"؟ 7

مفهوم لا إله إلا الله 19

مقتضيات "لا إله إلا الله" الإيمانية والتعبدية والأخلاقية 31

مقتضيات "لا إله إلا الله" في تداول الأيام والفتن 65

مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاء 65

مقتضيات "لا إله إلا الله" في الجهاد 76

مقتضيات "لا إله إلا الله" في النصر والتمكين 86

مقتضيات "لا إله إلا الله" في الدعوة لله 91

مقتضيات "لا إله إلا الله" في زمن الفتن 94

مقتضيات "لا إله إلا الله التشريعية والحضارية والفكرية والتعبيرية 101

تهذيب المفاهيم بمقتضيات لا إله إلا الله 130

الانحرافات التي طرأت على مفهوم لا إله إلا الله على امتداد محور الزمن 151

نواقض "لا إله إلا الله" 179

واجب المرحلة: العودة للدين والجهاد الشامل على كافة الميادين 244

الخاتمة 264

اقتباسات من الكتابات والنقولات 267

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً تُنجي قائلها يوم يلقى الله، إن صدقها قلبه وصدقها عمله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واستمسك بهداه إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ (الأنعام: 19)

لقد بني الإسلام على خمسة أركان، و"شهادة أن لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" أول هذه الأركان وهي الأصل الذي تقوم عليه بقيتها وكل ما يليها. حيث لا يصح إسلام المسلمين بدون نطقها واعتقادها والعمل بها، وهذا أمر قضاه الله – جل وعلا – منذ بعثة النبي مُحَمَّد ﷺ إلى آخر الزمان.

إلا أن المتأمل في حال السابقين الأولين، قد يرى أنهم فهموها وحملوا أمانتها بكل صدق وإخلاص لله جل وعلا، وكان لذلك نتائج عظيمة على قلة عددهم، فكان للإسلام سيادةً مذهلةً وآثارًا مهيبةً، بالنظر لواقعهم وما توفر لهم من أسباب تبقى في مقارنة الأمم المتجبرة ضعيفة!

وقد يسأل السائل: ما الذي جرى؟ لماذا كثر عدد الناطقين بها وضعف أثر عملهم بها؟ أين الخلل في فهم "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" في حياة المسلمين في العصر الحديث؟

فأضحى الحال كما ترى وتسمع، من تداعي الأمم وتأخر المسلمين واستعبادهم تحت وطأة الهيمنة والاحتلال!

فلقد تحولت "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" في حياة المسلم المعاصر إلى مجرد كلمة تنطق باللسان، تفتقد لجوهرها وحيويتها في حياة الفرد والأمة، ونحن هنا نشير إلى خلاصة الاختلاف بين السابقين الأولين وبين جيلنا في فهم هذا الأصل الأول العظيم والمصيري في حياة المسلم والأمة المسلمة.

لذلك سنسعى في هذه الصفحات إلى تبيان مفهوم "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" وإبراز مقتضياتها التي كادت أن تُدرس، على منهاج النبوة وعلى خطى السلف الصالح، لنتعلم من الجيل المتفرد كيف كان فهمه وتطبيقه لـ "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله "، فهما صحيحًا وتطبيقًا لائقًا، لعل وعسى يكون في ذلك معالم حق يهتدي بها المسلمون إلى حقيقة الإسلام العظيم والسبيل الموجبة لنصر الله تعالى والفتح.

ولعلنا نرجع للفهم الصحيح لـ "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" ونعيد حضورها المحوري في كل مجالات الحياة، وشموليتها لكل تفاصيل هذه الدنيا، فننتقل من حالة الركون إلى الحركة، ومن حالة التخلف إلى السبق، ومن حالة الحرمان إلى ابتغاء الفضل.

قال الله عز وجل ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: 162، 163).

فكونوا معنا في هذه الرحلة مع مقتضيات "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" ونسأل الله تعالى أن يجعل منها عملًا صالحًا نافعًا ومتقبلًا.

جزاكم الله خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لماذا الحديث عن مقتضيات " لا إله إلا الله محمد رسول الله"؟

لأنها الخطوة الأولى في سبيل المؤمنين إلى الجنة، وأساس كل نية وعمل، ابتغاء القبول، وشرط النجاة الوحيد من العذاب المهين.

ولأجل ذلك قضى رسول الله ﷺ ثلاثَ عشرةَ سنة في مكة، وعشر سنواتٍ في المدينة يُعلّم الصحابة ﷺ مقتضيات التوحيد. وبقيت هذه المقتضيات في القرآن الكريم والسنة النبوية، نجدها حاضرة في كل المراحل، معالم حق ملزمة على الإطلاق.

ثم لأن مرحلة التيه والضعف قد طال أمدها وتبيّن أن أبرز سبب في طولها المثخن – بلا منازع – هو المسافة الطويلة بين قول "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" ومقتضياتها في واقع كل مسلم ومسلمة.

ولغلبة الدنيا وزخرفها وتفشي الوهن، غُيّبت حقيقة أن كل نجاح للمسلم في حياته يجب أن ينطلق من صميم "لا إله إلا الله" كما قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 162).

فرأينا المسلمين يجرّدون أهدافهم من سر الحياة، ويحرمون أعمالهم نبضها.

ما هي مقتضيات التوحيد؟

إن مقتضيات التوحيد هي في الواقع التنفيذ العملي للمنهج الرباني في جميع المجالات والمنظومات التي تحكم الحياة، الفردية والجماعية، السياسية والاقتصادية، المعنوية والمادية، الداخلية والخارجية، السلمية والحربية .. فجميعها من صميم "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله"، لا تخرج عن دائرتها، حتى لو تحدثنا عن قضايا العلم والحضارة والتكنولوجيا والأدب والفن والفكر والاجتماع، فحيازة التقدم فيها يجب أن يكون بعيدًا عن روح "العلمانية"، بل مرتبطًا بالتوحيد منطلقًا ووسيلة وغاية.

وفي الوقت الذي يعتقد فيه المنهزمون أن تخلفنا سببه التخلف عن ركب التقدم العلمي وحركة الصناعات التقنية، فإن مما لاشك فيه، أن تخلفنا في ميادين القوة ومضامير السيادة، يرجع بالأساس لتخلفنا العقدي الذي نخر فينا طويلا وتسبب في هشاشتنا، وهو تخلف حدث من جراء تفريغ "لا إله إلا الله" من مضمونها الحقيقى، وإحالتها لمجرد كلمة تنطق باللسان، وشعائر تعبدية شكلية لا تتجاوز هذا الحد.

ولعل أخطر ما يجعل من هذا التخلف مهلكًا هو التعلق بوهم "العلمانية" وضرورة أن نتعايش في العالم كقرية صغيرة تجمعها مفاهيم موحدة أو متقاربة، لنرتقي من خلال التقدم العلمي والحضاري والتقني على خطى الغرب كقدوة وقائد.

وهي خلاصة الجاهلية المعاصرة المعادية للدين والفضيلة، ولنا أن نتأمل كم هو مثير للشفقة الإصرار على التشبث بالنموذج المنهار ونحن نشهد انهياره أمام أعيننا .. بل هو الجحود بعينه، الاستمرار في التشبث بهذا النموذج الذي يؤكد القرآن أنه الخاسر لكفره البواح، قال الله ﷻ: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (هود: 22)

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: 43).

ما الذي نحن بحاجة له؟

إن ما ينقصنا اليوم بشدة وبشكلٍ ملحّ، هو ترسيخ الفهم الصحيح لمقتضيات "لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله" في كل تفاصيل الحياة، وتطويع الحديث والمستجد فيها، للتوحيد خالصًا وتهذيبه بالسنة بحسن اتباع.

ثم التحرر من مفهوم القرية التي تجتمع مع الوثنيين والمشركين واليهود والنصارى كهدف للاستنزاف وسلم للتسلق، نحن الضحية في كل مشاهده المتصلة. بل لا ننفك نصل لحقيقته الراسخة في كل مرة وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: 120)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: 217).

ولا تقوم حضارة قبل التحرر من قيود التبعية المذلّة والانهزامية، ولا تكون حضارة بتقليد أصمّ لعلوم وتقنيات تفرض أن نتخلى عن مقوماتنا التي ميزنا الله ﷻ بها، حتى إن دخلوا جحر الضبّ دخلناه صمًّا بكمًا عميًا. تالله لا استقلالية رائدة لنا بدون كسر قيود التبجيل للكافرين والتبعية النكدة لسياساتهم ورؤاهم ومنظوماتهم المهيمنة التي تحكمت في كل تفاصيل حياتنا وحرمتنا الاستقلال الحقيقي، بل بالتفرد بهويتنا ومقوماتنا الواعدة الموجبة للسبق.

والسؤال ها هنا: ماذا صنعت فينا التبعية المذلة؟

إن تجريد حياة المسلم من مقتضيات "لا إله إلا الله" أدام تبعية المسلمين للكافرين، بل قد وصل بعضهم إلى مرحلة تأليه التفوق المادي، لتُفقد بذلك صلة العبد بالله خالقه ﷻ، وليستعبد نفسه للآلهة المادية، التي أضحت في زماننا، الصنم الذي تعلقت به النفوس وعميت له بصائرها بصنيع يديها!

والمتمسك بعقيدة التوحيد لا تستعبده مادة ولا آلة ولا تقنية ولا سبق الكفار في مجال دنيوي، لأنه يعبد الله وحده بلا شريك، يستمد قوته وبقاءه من إيمانه أن الله عز وجل هو الخالق وهو الرب وهو القادر على كل شيء، بيده الأمر كله قد خضع له الكون بكل ما فيه، فهو المتحرر من ذلّ العبوديات الزائفة لغير الله تعالى، وهذا السر في بقائه عزيزًا لا ينهزم، رائدًا متفردًا بما حباه الله تعالى من خصائص التمكين موحدًا.

ولا يعني ذلك أن المتمسك بعقيدة لتوحيد، جاهل بفنون العلم وأسباب القوة ومفاتيح الريادة وأسباب الجمع للسيادة، كما يسيء الفهم بعض الجهلة، بل هو ينطلق من "لا إله إلا الله" ثم يسعى لاكتساب كل أدوات التقدم العلمي والتقني وإخضاعها لمقتضيات "لا إله إلا الله"، فهو حر في الأرض، ليس عبدًا لغير الله عز وجل، قد استمد حريته من عبادة الله وحده بلا شريك، ثم مضى بما جمع من أسباب مادية، داعية لله وشريعته، فيستحق بذلك السيادة لا يذل.

ومن كانت بيديه المرجعية والوسيلة والهدف تقوم كلها على "لا إله إلا الله" لا يضل ولا يشقى. وذلك الجمع الأوفى الموجب للتمكين، قوة التوحيد والإعداد على قدر الاستطاعة.

وهو ما تشهد عليه فصول التاريخ الإسلامي الماجدة، التي أعجزت قوى الكفر المتجبرة.

لذلك فإن كل الحلول التي لا تنطلق من ضرورة وواجب ترسيخ الإيمان بـ"لا إله إلا الله"، بمقتضياتها الشاملة، هي – دون غيرها – التي تحقق الفلاح والخير في الدنيا والآخرة بالمعايير الحقيقية الصحيحة، فاشلة وهزيمة محققة، بل يجب أن ننطلق من هذه القاعدة الراسخة الشاملة ثم نتحرك بعد ذلك، نحو الإصلاح المنشود بدافع تحقيق "لا إله إلا الله" في واقع الأرض، وليس انطلاقا من أي دافع آخر ولا توجها لغير هدف غيره، قد يختلط فيه الإيمان بلون من ألوان الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: 106).

وهذه خلاصة مهمة جدًا، فنحن ننطلق من "لا إله إلا الله" بـ "لا إله إلا الله" لنصل إلى "لا إله إلا الله" مرجعًا ووسيلة وغاية.

وهو ما تحققه الاستجابة للهدي العظيم: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: 36).

فتتجلى المشاهد بصفاء لا دخن فيه .. وتحل المعية الربانية عامل نصر لا يُناجز.

وبهذه السبيل فقط نحقق الوجود الذي نرجوه للأمة الإسلامية، ونحقق الخيرية التي كتبها الله لها حين تقوم برسالتها على وجهها الصحيح: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110).

وللأسف، تقع في قرارة الكثير من النفوس اليوم، أن الإسلام لا يمكنه أن يخرجنا من النفق المظلم الموحش مع غلبة أمم الكفر تقنيًا وعلميًا، وذلك لجهلها بحقيقة الشمول فى المنهج الرباني المتمثل في "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله"، وحقيقة استيعابه لكل احتياجات البشر، كيف لا، وهو مِنْ خالقهم الخبير البصير بكل تفاصيلهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر: 67).

لقد غيّبوا تماما البعد الإيماني ومشيئة رب العالمين وقدرته تعالى. مع أن آيات الله عز وجل لا تنفك تتوالى وتسجل الحجة تلو الحجة، ولكنهم عنها غافلون!

دعوة واحدة وسنة لا تتبدل وشمولية يُغفل عنها

لو نظرنا للخلف لوجدنا دعوة التوحيد دعوة واحدة، إنها دعوة الرسل جميعًا إلى أقوامهم منذ الأزل: لا إله إلا الله .. ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

تتكرر بهيبة وقوة في العديد من سور القرآن، في الأعراف وهود والشعراء. كل رسول يقول الكلمة ذاتها، ويمضى في تسلسل حكيم، لتتكرر رسالة الرسل كلها في رسالة واحدة، على اختلاف الزمن واختلاف لغات الأقوام.

قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (هود: 25 – 26)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 65).

وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ (الأعراف: 73).

وقل عز وجل: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: 84).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25).

وكان مصير كل أمة عصت رسولها الذى أرسل إليها الهلاك والنهاية المظلمة. قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ (الحاقة: 9– 10)

ولن تشذ أمة عن ذلك .. فإن هي ضيعت التوحيد .. لتترقب سنن الله في القوم الظالمين.

ومما يجب التنبيه إليه أن الفطرة تتوجه إلى عبادة الإله الذي تعرفه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء". ثم قال أبو هريرة ﷺ: "فطرة الله التي فطر الناس عليها".

فالفطرة تعرف التوحيد ولكن البيئة المنحرفة هي التي تفسد الفطرة .. وتلك خلاصة كل ضلالة وقصة كل إنسان ضلّ على الأرض.

وتبقى المشكلة المتكررة مع كل قوم وأمة، هي أن الجاهليات كلها تشرك مع الله آلهة أخرى، وتجسّد الإله في صورة محسوسة تُلمس وتُرى، فيجيء الرسل فيدعون قومهم إلى عبادة الله الواحد، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.
ومن هنا نرى سبب استمرار الضلال الأكبر على امتداد محور الزمن وتوالي الأمم وهو الشرك، ولا ينجو إلا المؤمنون بحق والموحدون بصدق.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: 4).

يولد الإنسان بفطرته السوية، فإذا أفسدته البيئة ظل يهبط من القمة العالية التي خلقه الله عليها، حتى تتلوث روحه فتفقد صفاءها الذي خلقها الله عليه، وتعجز عن الإيمان

بالغيب، والإيمان بما لا تدركه الحواس، فتطلب إلها محسوسًا تراه وتلمسه، وتتعبد إليه أو تهبط هبوطا من نوع آخر من الضلال لا قاع له.

وتلتقي هذه النفوس الضالة بطغاة يتجبرون في الأرض فتطيعهم وتتخذهم أربابًا من دون الله تعالى.

لكن سنن الله تعالى بالمرصاد لكل من كان تشخيص حاله: غفلة وانحراف، فتأتي قوية مزلزلة، تهز النفوس هزة عنيفة تسقط الران الذي غشى على أرواحها، فيعود إليها صفاؤها، وتتصل بالله بلا وسيط، وتأنس إليه وتجد سكينتها بتحقيق التوحيد إن هي صدقت.

ومن يتأمل في قصص الأنبياء يجد شمولية "لا إله إلا الله" وعظمتها، فهي تأتي تارة في إطار توجيهات اجتماعية كما في قصة قوم لوط، وتارة نفسية لمعالجة الكبر والطغيان في الأرض والاعتزاز بالقوة المادية كما في قصة عاد قوم هود، وتارة أخرى اقتصادية كما في قصة قوم شعيب.

لقد جاءت رسالة "لا إله إلا الله" لتحكم وتقود جميع الشؤون الدنيوية، فالله لم ينزل "لا إله إلا الله"؛ لتكون مجرد كلمة تنطق باللسان. إنما أنزلها لتشكل واقع الكائن البشري كله، لترفعه إلى المكان اللائق به الذي فضله الله به على كثير ممن خلق تفضيلا .

ولا يتم هذا إلا بأن تملأ "لا إله إلا الله" الكيان البشري بكل زواياه ومساحاته وعمق أعماقه، وتكون القوة المحركة لكل ذرة فيه، كروح تسري، فتقوم أمة موحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر هي خير أمة أخرجت للناس.

وبموقع "لا إله إلا الله"، يتحدد الاعتقاد والفكر والأخلاق والسلوك والتصورات والتصرفات، وعلاقة العبد بربه وبنفسه وبمجتمعه وكل ما حوله، في جميع حالات الحرب والسلم وميادين السياسة والاقتصاد والعسكرية، وكل ما يتعلق به في حياته.

وبموقع "لا إله إلا الله" يتحدد مصير العبد فى الآخرة إلى الجنة أو النار، خالدًا فيها مقيمًا، ونحن نتحدث هنا عن قضية يقوم عليها الوجود كله.

أكبر تحدٍ

ومع عظمة هذا الأصل وهذه الحقيقة، تأتي الجاهلية المعاصرة لتهمش "لا إله إلا الله" حتى أنها لتكاد تطمس آثارها .. لتخرج الناس من عبادة الله إلى عبادة الشيطان. مع أن آيات الله شديدة الوضوح: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: 44).

فاتصل الحكم بما أنزل الله في الحياة بأصل الاعتقاد: بقضية الكفر والإيمان، فهي ليست مسألة اختيارية بل إلزامية بإلزام متصل بأصل الإيمان، وهكذا نرى كيف يرتبط التشريع بالعقيدة، وكيف تشمل مقتضيات "لا إله إلا الله" الحكم الذي يحكم أمة أراد الله لها أن تكون ربانية المنهج، فلما انحرفت عن مقتضيات "لا إله إلا الله" التي أنزلها الله عليها، استعبدتها الأمم الأخرى.

اعلم أن مقتضيات "لا إله إلا الله" قد استوعبت كل متطلبات المجتمع الصالح لتقوم عليها حياة الأمة ولتنال بذلك الخيرية التي تزدان بها وتسبق. وتضييع مقتضيات "لا إله إلا الله" موجب لتضخم الوهن، والموت بهوان وذلّة!

قال الله عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 30).

يا لعظمة التوحيد!

قال ابن القيم رحمه الله:

"فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: (أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِهِ) (الزمر: 22)".

(زاد المعاد 2 / 22).

مفهوم لا إله إلا الله

لا إله إلا الله، هي أعظم شيء في الكون، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ (الأنعام: 19) فهي أصل الوجود وأيضا الشهادة التي توجب حقوقًا ومساءلةً. قال عز وجل: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)﴾ (الأعراف: 6).

إنها دعوة الأنبياء وسبيل الفلاح الوحيد، حملته الرسل على امتداد محور الزمن واختلاف الأقوام: " قولوا: لا إله إلا اللَّه تفلحوا"[1].

وأدرك عظمتها وتكلفتها الصحابة ﷺ، ولذلك لا تزال كلمات أسعد بن زرارة ﷺ تسجل موقفا متفردًا في التاريخ، يؤسس مدرسة في معاني "لا إله إلا الله"، وذلك عندما اجتمع الصحابة ﷺ لبيعة رسول الله ﷺ، فأخَذَ بيَدِه أسعَدُ بنُ زُرارةَ، وهو أصغَرُ السَّبعينَ، فقال: "رُويدًا يا أهْلَ يَثرِبَ"[2]، أي: تَمَهَّلُوا يا أهلَ يَثرِبَ، حتى تَستَجْمِعوا عُقولَكم وتُفكِّروا فيما بايَعْتُم عليه، وما سَيَكونُ له مِن عَواقِبَ.

---

[1] روى البخاري في تاريخه والطبراني في الكبير واللفظ له عن مُدرك بن منيب العامريّ عن أبيه عن جده . رضي الله عنه . قال: (رأيت رسول الله . ﷺ . في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه، حتى انتصف النهار فأقبلت جارية بعسّ (قدح كبير) من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية لا تخشي على أبيك غلبة ولا ذلة، فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله . ﷺ . ، وهي جارية وضيئة (جميلة)).

[2] أخرجه أحمد (14653) ، والبزار كما في (مجمع الزوائد) (49/6)، وابن حبان (6274)

"إنَّا لم نَضرِبْ إليه أكْبادَ المَطِيِّ إلَّا ونحن نَعلَمُ أنَّه رسولُ اللهِ"، أي: لم نَرْكَبِ الإبِلَ ولم نَسِرْ إليه إلَّا ونحن مُؤمِنون بأنَّه رسول اللهِ ﷺ، "إنَّ إخْراجَه اليومَ مُفارقةُ العَرَبِ كافَّةً"، وسَيَكونُ مُقابِلَ تلك البَيعةِ والمُعاهَدةِ القَطيعةُ مع باقِي قَبائلِ العرَبِ.

"وقتْلُ خِيارِكم" في حُروبٍ سَوفَ تُشَنُّ عليكم، "وأنْ تَعَضَّكُم السُّيوفُ"، وهذا كِنايةٌ عن إثْخانِ الحُروبِ فيهم.

ثمَّ خيَّرَ أسعدٌ رضِيَ اللهُ عنه، فقال: "فإمَّا أنتُم قَومٌ تَصبِرون على السُّيوفُ إذا مسَّتْكم، وعلى قتْلِ خِيارِكم، وعلى مُفارَقةِ العرَبِ كافَّةً"، بمعنى: إذا كان لَدَيْكم مِن الصَّبرِ والقُوَّةِ والعزْمِ التي لا تَجعَلُكم تَتخلَّون عن النَّبي ﷺ وتَتْرُكونه، "فخُذُوه، وأجْرُكم على اللهِ"، أي: فعاهِدُوه وبايِعُوه وأْوُوه في قَبيلتِكم، ويكون أجْرُكم عِندَ اللهِ يومَ القِيامةِ، "وإمَّا أنتم قَومٌ تَخافون مِن أنفُسِكم خِيفةً"، أي: فإنْ كُنتُم تَخافون القِتالَ وليس عِندكم صَبْرٌ، "فَذَرُوه"، أي: اتْرُكُوه في قَومِه وبَلَدِه مِن الآنِ؛ "فهو أعْذَرُ عِندَ اللهِ"؛

فتَرْكُه الآنَ وقبْلَ المُبايَعةِ أفضَلُ وأقبَلُ عُذْرًا عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أنْ يَترُكُوه بعْدَ أنْ يُبايعوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثمَّ لا يَنْصُروهُ،

وما فَعَلُه أسعَدُ بنُ زُرارةَ رضِيَ اللهُ عنه بتلك الكلماتِ هو للتَّأكيدِ على قُوَّةِ الإيمانِ والنُّصرةِ التي سَتَنشَأُ مِن تلك المُبايَعةِ وما أقْدَموا عليها، وبَيانٌ لِحَقيقةِ ما همْ عليه.

"قالوا: يا أسعَدَ بنُ زُرارةَ، أمِطْ عنَّا يَدَكَ"، أي: ابْتعِدْ واتْرُكْ هذا القولَ،

"فوَاللهِ لا نَذَرُ هذه البَيعةَ، ولا نَستقِيلُها".

وقاموا إليه رجُلًا رجُلًا يأخُذُ عليهم "بشُرْطةِ العبَّاسِ"، يعني المواثيقَ التي أخَذَها العبَّاسُ عليهم بالوَفاءِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، "ويُعْطيهم على ذلك الجنَّةَ"،

"هل تعلمون على ماذا تبايعون؟"، لقد أراد الصحابي الجليل تأكيد درجة إدراكهم لما توجبه هذه الشهادة الأعظم، إنها كلمة دارت لأجلها الحروب والملاحم، وقتلت فيها النفوس وبذل فيها الغالي والنفيس!

كلمة رمتهم الأعداء لأجلها عن قوس واحدة، وتكالبت عليهم الأمم مستعرة، هي كلمة "لا إله إلا الله"، ولا عجب أن كان جزاء من كان آخر كلامه من الدنيا "لا إله إلا الله" دخول الجنة.

ما معنى لا إله إلا الله؟

أي لا معبود بحق إلا الله.

فالمعبودات كثيرة، هناك من يعبد الصنم والحجر، ومن يعبد المال والدرهم والدينار، ومن يعبد الوطن ومن يعبد الهوى ومن يعبد الإمارة، بل هناك حتى من يعبد نفسه، وكل هذه المعبودات باطلة وتبقى عبادة الله وحده لا شريك له الحق والأصل والغاية.

والمعبودات حسية ومعنوية، فقد تكون مرئية نراها مثل المال والأصنام وحتى الفئران كما رأينا مع الهنود، ومنها معنوية، وهي معبودات خفية تخفى على أصحابها لغفلتهم أو لجهلهم أو لشدة فتنتهم. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43)﴾ (الفرقان: 43)، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)﴾ (الجاثية: 23).

ومع كل موجة فتن تظهر لنا أصناف معبودات كثيرة. لكنها مهلكة مهزومة كلها، لتبقى "لا إله إلا الله" وحدها الحق المطلق، وصف حقيقتها ربعي بن عامر ﷺ، في عبارة جامعة حين قال: "ابتعثنا الله ليخرجنا من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد".[3]

ماذا يعني لا معبود بحق إلا الله؟

يعني يجب أن تكون جميع عباداتك خالصة لله وحده لا شريك له، سواء الفروض أو السنن أو تعاملاتك أو أهدافك، فحياتك أو مماتك كله لله ﷻ، حتى ابتسامتك لأخيك تكون صدقة لله تعالى، وتعاملاتك كمسلم وتعاونك مع أخيك وجهادك للأعداء، هي لله وحده لا شريك له، لا تتصنع ذلك ولا تتملق فيه، إنما تؤديه ابتغاء مرضاة الله تعالى ورحمته. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)﴾ (الأنعام: 162).

لا تؤدي عباداتك ولا تجعل حياتك في سبيل حاكم ولا جماعة ولا قبيلة ولا نفس، بل لله خالصة. ولذلك حين يأتي أمر فيه مخالفة لأمر الله تعالى، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وبذلك نحقق مفهوم "لا معبود بحق إلا الله".

وكل ما يخالف أمر الله تعالى ولا يرتضيه فهو منبوذ ومرفوض. لتبقى كل أعمالنا وكل تصرفاتنا لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: 43). قال ابن عباس والحسن وقتادة: "ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئا إلا ركبه". وقال عكرمة:

---

[3] ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (الجزء السابع، غزوة القادسية)

"أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئا وهويه اتخذه إلها"[4]، فصاحب الهوى ينجر لهواه لا تردعه "لا إله إلا الله". أما المؤمن الموحد، كلما قالت له نفسه افعل شيئًا، يتبين بخشية: هل هذا الفعل يرتضيه الله تعالى؟ ويسأل نفسه ما حكمه الشرعي؟ ثم يقدم عليه بعد أن اطمأن لسلامته أو يدوس عليه إن كان مخالفا لأمر الله تعالى ويجلب سخطه.

إلا من أتى الله بقلب سليم

وإقامة القلب على "لا إله إلا الله" يستوجب سلامة القلب، الذي يعرف الخير من الشر ويميز بين الخبيث والطيب والذي يختار الأفضل بعلو همة، لا يطمئن للدني بدناءة همة، وهو في كل ذلك يسعى راجيًا رضوان ربه لا يهتز لمخالفة الناس له، ما دام قد استجاب لأمر الله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾ (الشعراء: 88-89)، وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: 54).

وفي الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"؛ متفق عليه.

فالقلب السليم يحقق معاني "لا إله إلا الله"، وسلامة هذا القلب لها أسباب وعوامل، لحفظ الإخلاص والثبات عليه، ومن لم يتزود لهذا الثبات فسيندم ندمًا عظيمًا، فالنفس إن لم تأخذ نصيبها من العبادات والأوراد اليومية وما يحييها، تقسو وتجفو وتفقد تأثير

[4] تفسير القرطبي للآية ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: 43).

"لا إله إلا الله" في ذاتها وفي محيطها وكل ما يتعلق بها، فتنحرف عن سبيل المؤمنين فتضل وتشقى.

وقد اعتنى النبي ﷺ كثيرًا بحفظ قلوب أصحابه ﷺ، وكان يجتمع بهم للصلاة في دار الأرقم في وقت يتهدد الإسلام عواصف عدوان مباغتة وطاغية، ولم تثنه هذه الخطورة عن خطوة التربية هذه، لأن النبي ﷺ كان يُعدّ القلوب لتحمل أعباء حمل رسالة التوحيد، وكان في ذلك البناء العقدي الراسخ الذي انعكست نتائج رسوخه – بعد ذلك – في كل الفصول التي تلت ظهور دعوة الإسلام.

مقتضيات لا إله إلا الله في العبادة

عبادة الله تعالى تكون بإخلاصٍ له تعالى في كل وقت وحين، ووفق هدي النبي ﷺ لا نبتدع فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: 11).

يعبد المسلم ربه في كل حال، سواء أكانت حال شدّة أو دعة، في العسر أو اليسر، في الابتلاء أو النعمة، ومهما بلغ به الأذى والفقد.

يعبد الله تعالى مهتديًا بسنة نبيه ﷺ لا يخالفها، فما جاء به الرسول ﷺ يأخذه بلا تردد، وما نهى عنه ﷺ ينتهي عنه بلا جدال ولا تحايل ولا التفاف.

فلا إله إلا الله، تعني أنها اعتقاد راسخ في القلب ينطق به اللسان بصدق، ويصدق ذلك كله العمل والحال.

ولكم في رسول الله أسوة حسنة

"لا إله إلا الله" تتطلب عبادة الله وحده بلا شريك، والالتزام بما جاء من عند الله بلا انحراف، ومن يتأمل في سيرة النبي ﷺ يجد مقتضيات هذا الالتزام قد ظلت تنمو مع نمو الدعوة حتى بلغت الخاتمة، فبلغت المقتضيات نموها الأخير، قال تعالى: ﴿ اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: 3).

لقد تعددت هذه المقتضيات وتشابكت لتشمل جوانب الحياة كلها متكاملة مترابطة، وخطت لنا منهاج الحياة الذي يريده الله للبشرية أن تسير عليه وتفوز فيه.

لقد قضى الله بحكمته تعالى أن تكون أمة مُحَمَّد ﷺ من يحمل الرسالة الخاتمة إلى البشرية كافة، ولذلك تميزت هذه الرسالة بالكمال والشمولية والاتساع الذي يستوعب كل احتياجات البشرية إلى يوم الدين.

ولأنها الرسالة الخاتمة فقد حملت «لا إله إلا الله» من المقتضيات والتكاليف مالم تحمله في أية رسالة سابقة، ولكن في الوقت نفسه لم يترك الله تعالى عباده بدون بركات الاستقامة على أمره وفضائل الاستجابة لرسالته سبحانه، ولذلك نجد الآيات القرآنية العظيمة تتعدد فيها الأسماء والصفات وتتكرر لتحيط بالقلب البشرى من جميع اتجاهاته وفي جميع أحواله. فالله هو الرزاق ذو القوة المتين، وله المشيئة يُقدّر ويُدبّر

بحكمته سبحانه، هو الناصر وهو المنجي، لا ملجأ منه إلا إليه، هو الوهاب، وهو العزيز ﷻ، هو المعين وهو الميسر بيده الخير والبركة وبذكره تطمئن القلوب.

لقد ربّى النبي ﷺ صحابته الكرام ﷺ خلال ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنوات في المدينة على "لا إله إلا الله" .

عاش النبي ﷺ مقتضيات "لا إله إلا الله" بنفسه، فكان الإمام والقدوة والمعلم، وتبعه الصحابة ﷺ بحسن اقتداء، فكانوا نعم الطلبة والتلاميذ والصحب.

لقد عاشوا كل لحظة من حياتهم مع الله تعالى، منذ استقبال الصباح تردد قلوبهم وألسنتهم (اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ)، وفي المساء يرددون (اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[5] يبدؤون يومهم ويختمونه على ذكر الله ﷻ.

لقد هيأ النبي ﷺ قلوبهم لكل كرب وفاجعة، فلقنهم الأذكار والأدعية بما فيها أدعية الكرب والهم الحزن، روت الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس، صاحبة الهجرتين رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال لها: "ألا أُعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب – أو في الكرب–؟" فقال ﷺ: "الله ربي لا أُشرك به شيئًا".[6]

---

[5] رواها البخاري في "الأدب المفرد" (ص411)، قال: حَدَّثَنَا مُعَلَّى. وأبو عوانة في "المستخرج" (21/ 33)، قال: حدثنا الزعفراني، حدثنا عفان. والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (ص378)، قال: أَخْبرنِي زَكَرِيَّا بن يحي، حَدثنَا عبد الْأَعْلَى. الثلاثة (معلى، وعفان، وعبد الأعلى) يروونه عن: وُهَيْب، قَالَ: حَدَّثَنَا سُهَيْلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ، وَإِذَا أَمْسَى قَالَ: اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

[6] أخرجه أبو داوود (1525)، والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (647)، والطبراني في (الدعاء) (1027) جميعهم بلفظه.

وهكذا لقن النبي ﷺ مقتضيات "لا إله إلا الله" في الليل والنهار، في الدعة والشدة، في المشي للمسجد كما للدخول للمنزل وحتى الخلاء، في تناول الطعام والشراب وعند النوم وفي كل حركة الإنسان، كان هناك وصال عظيم وحياة قلب.

لقد علم النبي ﷺ صحابته كيف يعيش العبد في معية ربه وكيف يكون ذاكرًا لله في كل حال ولحظة، في مقامات الصبر والشكر ومقامات السلم والحرب، لكل منها أذكارها وذخائرها.

لا يستغني العبد عن ربه، فهو في طلب معونته واللجوء إليه والاستعانة به والاستغفار والتسليم لقضائه وقدره والخشية من غضبه ورجاء رضاه، كلها عبادات تحكم يومه وقراراته ومعيشته، على نور من الله تعالى وفي معيته سبحانه.

قال ﷻ يصف حال المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 191).

وكان لذلك مفعوله العظيم في النفوس التي تجردت من حظوظ النفس وعظّمت "لا إله إلا الله" في كل ما تذهب إليه وتفعله وتفكر فيه، فتوثقت "لا إله إلا الله في القلوب" وترسخت وتأدبت الجوارح والأعمال بها.

وبذلك يصبح القلب مستعدًا لتحمل تكاليف بناء بنيان الإسلام وتكاليف الوفاء له.

ولذلك تخلص الصحابة ﷺ بهذه التربية تدريجيًا من نزعات القبلية التي تبدد طاقاتهم وتفرق صفوفهم، ومن شهوات النفس كالخمر والميسر والفاحشة، ومن الظلم والبغي

بغير حق، فكان أدبًا تصنعه مقتضيات "لا إله إلا الله"، ومخرجاته: وحدة وقوة وعدالة ونقاء وطهارة.

وتلك التي صنعت صلابة الصف الداخلي وجعلته مهيأ لمواجهة الأمم في الخارج، ولا عجب أن أخرج الصحابة ﷺ الفرس والروم من هرم القمة في ظرف قياسي.

لقد قدم النبي ﷺ في تربيته العظيمة علاجات لكل قضية نفسية واجتماعية وأخلاقية وسياسية واقتصادية وعسكرية وكل ميدان واختصاص. عولجت على أساس مقتضيات "لا إله إلا الله" التي شملت كل شؤون الحياة. ولا شك أن معالجة هذه القضايا وفق مقتضيات "لا إله إلا الله" تصنع فارقًا كبيرًا، في طريقة معالجتها ونتائج هذه المعالجة.

ولنتأمل كيف نزل الأمر بتحريم الخمر، فالتزم الجميع بدون حاجة لرقابة ولا تهديد! فالدافع حين يكون محبة ومخافة ورجاء الله، نابعًا من القلب المؤمن، فليس كمن يسنّ قانونًا ويأتي بجيش لينفذه!

لقد صنعت مقتضيات "لا إله إلا الله" الانضباط والتطهير والصلاح في المجتمع الإسلامي بشكل عظيم جدًا. أما بدون هذه المقتضيات فسرعان ما يتحول الإنسان لعبد لغير الله تعالى تقوده الخرافات والآلهة الباطلة، قد استعبدته شهواته وغروره، فأضحى يشرع للبشر ويشرع له البشر، كما يحدث في كل جاهلية في التاريخ.

إن معالجة الإسلام للقضايا بـ"لا إله إلا الله"، تعني أن هذه القضايا قد تحولت إلى متطلبات إيمانية مرتبطة بلا إله إلا الله، لا مجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء البشر ومعاييرهم القاصرة، وأن يكون الجهد الذي يُبذل في حلها قد بذل ابتغاء مرضاة الله، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التي قد تنتج عنها.

ولندرك عظمة هذه السبيل لننظر كيف كان الأداء على هذا النسق غير مسبوق في البشرية وظهرت نتائجه كأنها معجزات، أحدثك عن الجيل المتفرد وصنائعه في التاريخ.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله:

"اجتهدوا اليوم في تحقيق التوحيد فإنه لا يوصِل إلى الله سواه، واحرصوا على القيام بحقوقه فإنه لا ينجي من عذاب الله إلا إياه".

(كلمة الإخلاص ص54)

مقتضيات لا إله إلا الله الإيمانية والتعبدية والأخلاقية

أول مقتضيات لا إله إلا الله، المقتضى الإيماني، ولذلك يولي كتاب الله تعالى الأهمية البالغة لقضية الإيمان بالله الواحد الأحد، ونبذ الآلهة الزائفة كلها، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

والمقتضى الإيماني يقتضي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويقتضي التوحيد الخالص لله تعالى: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وانعكاس هذا المقتضى الإيماني واضح في حياة الفرد والمجتمع، سواء عند التمسك به والوفاء له أو عند التفريط به وتضييع أمانته، ولذلك موجبات ارتقاء وتداعيات هزيمة تحكم السير والخواتيم.

والإنسان عابدًا بفطرته فإما أن يعبد الله وحده، وإما أن يعبد غيره، معه أو من دونه سواء.

لذلك كان لا بد من تطهير النفس البشرية من كل عبودية زائفة لغير الله تعالى، وتوجيه العبادة بكل أنواعها إلى الإله الحقيقي، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ليرتفع الإنسان إلى المقام الذي كرمه الله وفضله به على كثير من خلقه، ولكي ينجو في الحياة الدنيا من الهبوط الذي يتمثل في الشرك بكل أنواعه، وينجو في الآخرة من جهنم وعذاب النار.

والفطرة – كما خلقها الله تعالى – عابدة لله على استقامة، مؤدية لمقتضيات الإيمان. ولكنها عرضة للمرض والانحراف بتأثير البيئة الفاسدة التي تفسد صفاءها واستقامتها. وحين تختل هذه الفطرة وتنحرف عن سبيل المؤمنين، يصيبها الكثير من الأمراض. سواء في رؤيتها أو في سلوكها، سواء في تصوراتها أو أخلاقها، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، سواء في النفس أو الأمة، وحتى السياسة والاقتصاد والحرب، وكل جانب من جوانب الحياة.

وهكذا، كلما حاد الإنسان عن مقتضيات "لا إله إلا الله" الإيمانية، نزل دركات من الهبوط والانحطاط.

والجاهلية المعاصرة التي تعتبر أعلى ما وصل إليه الإنسان في التاريخ كله، بلغت مستويات من هبوط البشر، ما لم يسبق له نظير، بل وصلت إلى حد أن فقدوا تماما معنى وجودهم!

والإنسان إذا فقد الإيمان بالله واليوم الآخر وأركان الإيمان، يفقد بصيرته، ويفقد الغاية من وجوده وخلقه وخلق السماوات والأرض وكل تفصيل في الكون، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: 115).

وقال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) ﴾ (ص: 27 – 28).

وما سجلته الجاهلية المعاصرة، هو نزول الإنسان إلى البهيمية الدنيا، وذلك نتيجة لازمة للنزول عن أصل العبودية لله ﷻ، وتحول الإنسان إلى مثال عن عالم الحيوان، همه الأكبر إشباع شهواته، وصراع البقاء. وهكذا انتشرت الرذيلة وأكل القوي الضعيف وارتفعت منحنيات الظلم والمظالم!

ولا يعني ذلك أن الحق لا يعيش الصراع، بل الصراع الذي كتبه الله في حياة المؤمنين، هو صراع لأجل غلبة الحق وإصلاح الأرض لا إفسادها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 251).

وهو صراع يمتحن الله ﷻ فيه البشر، ولا ترتبط الغلبة فيه بإرادة هؤلاء البشر، فالأمر كله بيد الله تعالى، يدبر الأمور بمشيئته وأمره. في الحديث القدسي، عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ – فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي: إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي! إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي! إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى

أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي! إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إلَّا نَفْسَهُ". رواه مسلم.

لذلك الإنسان الذي يؤمن بالله واليوم الآخر وأركان الإيمان، فائز في هذا الصراع وإن لم يشهد نهايته أو حسمًا فيه أو حتى جولة انتصار، والخاسر فيه هو الكافر والمرتاب، من هبط إلى دركات الكفر والشرك والنفاق.

وقد شهدت الأرض الفساد بكل أنواعه والوحشية بأبشع صورها، حين هبط الإنسان من مرتبة الإيمان، وفقد غاية وجوده واستفحل في النفوس الجشع والكبر والصلف وحب التجبّر في الأرض، حدث الكثير من الظلم والفساد في الأرض حين أضاع الإنسان مقتضيات الإيمان بـ "لا إله إلا الله". وهكذا كانت سيرة الاحتلال والأمبريالية والشيوعية والبوذية والهندوسية والديمقراطية والعلمانية وكل دعوة كافرة في التاريخ والحاضر، وإن تسترت بشكل حضارة وتمدن وتقدم ورقي! يتحول الإنسان لعبد نفسه وشهواته، يلهث خلف متعه ورغباته، ولا يتجاوز حد مصالحه، ويتفشى مع سطوة زخرف الدنيا وصراعات البقاء والسيادة، الجهل بالسنن الربانية والتفكير السطحي والتبرير المصلحي على حساب القيم والعدل، ثم سهولة الوصول للشهوات والرذيلة،

والانحراف والشذوذ عن الفطرة السليمة، وأمراض ما بعد الحداثة التي نرصدها ونرصد إثخانها في الإنسان، فضلا عن صعوبة التمييز بين الحق والباطل مع انطفاء نور البصيرة وكثرة التشويش على معالم الحق، ويصبح الحديث عن الآخرة خارج اهتمامات هذا الإنسان المعاصر، كما وصفهم الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: 7).

والله تعالى يفتح الدنيا ويعطيها لمن يشاء، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: 7) لينظر ﷻ أيهم شغلته الدنيا عن الله واليوم الآخر، وأيهم سخرها لمرضاة الله والنجاة في اليوم الآخر.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: 44).

وقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: 96).

والمقتضى الإيماني يجعل المؤمن داخل حلقة الصراع لدفع الباطل والشر وإقامة الحق وإعلاء كلمة الله والإصلاح في الأرض، لذلك فهو يوجب جمع الأسباب المادية للتمكين، ويأمر بالإعداد والصبر والجهاد لتحقيق ذلك مهما كلف الثمن واستغرق الوقت. على أن يكون باستقامة ومجاهدة ووحدة صف وتقوى ويقين.

فضائل يوجبها الإيمان

وكما أن لـ "لا إله إلا الله" مقتضيات فإن لديها أيضا بركات وموجبات خير وفتح وفضل، يعرفها أولئك الذين ذاقوا من حلاوة الإيمان، وخالطت بشاشته قلوبهم، ويعلمون أن ما عند الله خير وأبقى من كل ما في هذه الدنيا. فلم تشغلهم بسفاسفها ولا زخرفها ولا ملهياتها عن سبيل المؤمنين وابتغاء مرضاة الله تعالى. فعاشوا سكينة الإيمان وعافوا كل كفر ومثلبة.

وهي سعادة لا يدركها الكافرون، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (البقرة: 212).

ولذلك لا يزال الكافر في تخبط يعجز عن فهم سنن الله تعالى في الأرض، ونصره عز وجل للثلة المؤمنة الضعيفة عسكريًا أمام جبروت الطغاة الطواغيت وترساناتهم الحربية الضخمة، ولا يستوعب كيف تتنصر الفئة الصغيرة على الجيش العرمرم، قال عز وجل: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: 249).

ولا يزال لا يفهم سر هذا الصمود والثبات والإصرار على طلب الموت كلما تجبر وطغى، ومهما أفجع وقتل!

فمقتضيات "لا إله إلا الله" هي السبيل لإقامة بنيان الإسلام في الأرض وتحصيل المعية والتأييد الرباني المهيب، كما أن طلب الموت في سبيل الله يهب الحياة للفرد شهيدًا، وللأمة تمكينًا.

واليوم يفتقد المسلمون للتمكين الحقيقي، فحال المسلمين تحت طغيان التداعي وحصار الغرب الكافر وهيمنته، في مساحات محدودة متفرقة، تتحرك في حدود إملاءات الكافرين، نتيجة لازمة لمن لم يجمع أسباب التمكين والسيادة.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: 55).

وقد مكّن الله تعالى للمسلمين تمكينًا مهيبًا حين كانوا مستمكسين بما أمرهم الله تعالى به، فكانوا السادة بسيادة الإسلام فيهم، واستمتعوا بالتمكين على أعلى المستويات، حين كان أمر الله أعلى المطالب، وتطبيق شريعته لا يقبل المساومة أو البخس.

والتمكين يحصل للبشر، سواء كان العاملون له مؤمنون أو كافرون. لكن الفرق شاسع بين تمكين الكافرين وتمكين المؤمنين، فالكافر لا ينعم ببركات الإيمان والطمأنينة، ولا بفضل معية الله تعالى وتوفيقه، ومن يتأمل حياة الغرب اليوم، يجد أن كل ما يظهره من

تقدم علمي ومادي وتكنولوجي وعسكري وإعلامي وغيره، يوازيه معاناة شديدة بين الناس وتفشي القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة، واللهث الدائم وراء تحقيق الشهوات ومحاربة الفطرة مع ضياع للنفس والأسرة دون إدراك لقيم الحياة الحقيقية، إنها حياة آلات وبهيمية بل بعد ارتفاع صوت الشذوذ وتبنيه سياسة واضطهادًا، أضحت حياتهم أدنى من البهيمية بمراتب!

ثم لا مقارنة بين تمكين الكافرين والمسلمين، فتمكين المسلمين تمكين أمان في النفس والمجتمع، تحفه بركات القلوب العامرة بحب الله تعالى والمعية ونقاء الأوساط من الفاحشة، واطمئنان الناس إلى أنسابهم واستقرار الأسرة ومتانة روابطها، وروح المودة والرحمة التي تجمع المسلمين وإن تناءت بهم الديار وطالت مسافات الأسفار، فضلا عن الأمان الاقتصادي بالسعي إلى الرزق مع طمأنينة القلب مع نظام رباني نقي من دنس الربا والجشع والاستغلال البشع، وعبادة المال. نظام يستوعب موقع الفرد والأمة، ويراعي حاجة الفقير والمسكين، ولا يستغل ظرفه ويكسر ظهره. تمكين يسعى لإعلاء كلمة الله تعالى وإحقاق الحق والعدل والأمان.

أما تمكين الكفار، فكما قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (مُحَمَّد: 12).

فلا تستوى حياة الإنسان بالكفر وحياته بالإيمان في الحياة الدنيا ولا الآخرة.

قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: 28).

وقال ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: 21).

ولا يستوي من يعبد الله وحده لا شريك له ومن يعبد الطاغوت، ولا من يتبع شريعة الله تعالى ومن يتبع تشريعات البشر، ولا من يجاهد للاستقامة ومن تستبد به شهوته، ولا من يخاف الله تعالى في السياسة والاقتصاد والحرب وكل منظومة حياة وتمكين، ومن يطغى، وكذلك في كل نظام وكل ما يخص شؤون الحياة.

ومن يتأمل في التاريخ والحاضر، يجد أنه أينما شرّع البشر ظهر الفساد في الأرض، وأينما احتكم الناس لشرع الله تعالى الخبير البصير بعباده، وأقاموا حياتهم على أنواره، أمن الناس وأمنت الأرض!
فتحت شريعة الله الجميع عباد لله سواسية، وتحت تشريعات البشر الناس طغاة وعبيد!

ومدار الأمر في هذه الفوارق هو في أثر الإيمان بالله واليوم الآخر وأركان الإيمان التي تقضي بمعرفة الإنسان لموقعه في الحياة الدنيا وفي دائرة الصراع، وليس في النظرة القاصرة التي لا تتجاوز حد الموت.

المقتضى التعبدي

لقد رأينا أثر المقتضى الإيماني في حياة الإنسان وعلاقته المباشرة بحياة الإنسان فردًا وأمة، وكذلك الصراع، وننتقل الآن للحديث عن المقتضى التعبدي لـ "لا إله إلا الله".

فإذا كان المقتضى الإيماني قد اقتضى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، واقتضى التوحيد الخالص لله: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات؛ فإن المقتضى التعبدى يقتضى توجيه كل أنواع العبادة لله وحده بلا شريك، كما يقتضى أن يعبد الله بما أمر سبحانه أن يعبد به، وهذا يعني حسن الاتباع لسنة النبي ﷺ. وتلك مقتضيات "مُحَمَّد رسول الله ﷺ" لازمة.

ومحور القضية، أنه إذا كان قد ترسخ في القلب الإيمان أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فتوجيه كل ألوان العبادة إليه وحده هو الأمر الطبيعى والواجب، كما أن عبادة الله تعالى تكون كما أمر هو ﷻ لا أهواء البشر، وقد ركز المنهج القرآني كثيرًا على هذه القضية، لأنها تتصل اتصالاً مباشرًا بمقتضيات "لا إله إلا الله" التي تحدد مسار كل شيء.

وفي سبيل تحقيق مقتضيات "لا إله إلا الله"، عرف الله ﷻ عباده بنفسه، بصفاته وأسمائه، وعلمهم ما لم يعلموا بالقدر المتاح لموقعهم في الحياة، وبالقدر الذي تصلح به نفوسهم ودنياهم، وينالون به الخير في حياتهم وبعد موتهم.

لذلك كانت أسماء الله الحسنى وصفاته من صلب العقيدة، لأنها وسيلة البشر المعرفة إلههم وخالقهم.

ومن رحمة الله عز وجل بعباده أن يشعرهم بمعيته وعونه بشكل يبعث بالإيمان واليقين في قلب الإنسان!

فكم من عبد دعا ربه، فاستجاب ربه له، فأحس بالاستجابة وأيقن، وإذا هي حقيقة.

وقد يكون تأييد الله تعالى لعبده إشارة برؤيا صادقة تتحقق ولو بعد حين، فيزداد المرء محبة لله تعالى وإقبالا على خالقه. وكم من الإشارات يعايشها الإنسان تقربه من ربه وينبعث قلبه شوقًا لخالقه وإنابة! وترتقي الروح في مراتب الإيمان فتتحرر من كل براثن الأرض وعلائقها، بقدر نقاء القلب وصفاء العقل، ثم إن استقر الإيمان في القلب، تردد في صدى النفس والجوارح، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 162).

فالإنسان ينتقل من مقتضيات الإيمان إلى مقتضيات العبادة التي يكتمل بها توازنه وحياته السوية. وكلما حقق هذا الانتقال بإخلاص واستقامة، أوجب لنفسه الفتوحات الربانية الجليلة.

وقد ركز المنهج القرآني كثيرًا على قضية العبادة، لشدة ما كان قائمًا في الجاهلية من انحراف يتعلق بها ولاتصالها بقضية العقيدة، التي هي أساس في حياة المسلم، توجب العمل، وتقوم عليها كل تفاصيل ومنظومات الحياة.

جذور الانحرافات

ومن هناك، كان المبتدعة الذين انحرفوا في العقيدة أول من انحرف في العبادة بالضرورة، وحين تستقيم العقيدة فالمفروض أن تستقيم العبادة على وضعها الصحيح.

ولذلك في زمان الجاهلية المعاصرة اشتدت البدع وتفرعت وازدادت انحرافًا بدرجات مخالفتها للعقيدة. وأضحى الغلو في الأشخاص عبادة، فبدل أن يُعبد الله وحده لا شريك له يُعبد ولي في قبره، أو طاغوت على كرسيه!

وهو تماما ما وقعت فيه الجاهلية الأولى، قال ابن عباس ﷺ عن ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر: "أسماءُ رِجالٍ صالِحِينَ مِن قَومِ نوحٍ، فلَمَّا هَلَكوا أوحى الشَّيطانُ إلى قَومِهم: أنِ انصِبوا إلى مَجالِسِهمُ التي كانوا يَجلِسونَ أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائِهم، ففَعَلوا، فلَم تُعبَدْ، حتَّى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخَ العِلمُ، عُبِدَت". صحيح البخاري.

وهي دورة من الشرك تتكرر في كل زمان وفي زماننا، فقد أضحى الشرك معلمًا بازرًا في الجاهلية المعاصرة. قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: 106).

وحتى لا ينجر الإنسان لكل هذه الانحرافات ركز المنهج القرآني على تحديد هذه القضية تحديدًا حاسمًا، وتنزيه العبادة من كل لون من ألوان الشرك يمكن أن يهجس في بال الإنسان.

لقد جعل الله تعالى طريقه القويم واضحًا بشكل يمنع تبرير الانحراف عنه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: 153).

لقد كان الإسلام حاسمًا، فقطع الطريق على كل وساطة بين البشر وربهم، وعقد بدلا من ذلك الصلة مباشرة بين العبد وربه الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: 60). وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: 186).

لقد جاء الإسلام؛ ليجعل الدين خالصًا لله وحده لا شريك له، ولذلك قرر بشرية الرسول ﷺ، بشرية خالصة، لايخالطها شيء من اللاهوت، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: 110). وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِينْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:٣٤)، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

وعلّم النبي ﷺ الناس عبادة الله الواحد الأحد، وشمل المنهج التعبدى كل لحظة وكل عمل وكل فكر وكل شعور، ليحققوا حقيقة وجودهم في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

مفهوم العبادة

ومن يتأمل في الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من عبادات، يجدها تستغرق وقتها المكتوب لها، وقد يزيد الإنسان مساحتها بالنوافل والصدقات والقربات، ولكنها لا تبلغ أن تملأ مساحة الحياة كلها، ولا يمكن للإنسان ذلك، فإنما ذلك شأن الملائكة الذين خلقهم الله من نور، فهم كما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: 20)، وقال ﷻ: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: 6).

أما الإنسان فطبيعته الطينية تختلف، فله جسد يفتر وعقل يشرد، قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: 286).

ولكن خُلق الإنسان للعبادة، يعني أن العبادة مفهوم أوسع من الشعائر التعبدية.

فمعنى العبادة يتسع ليدخل فيه كل نشاط الإنسان وحركته وسكونه وحتى قوله، وذلك حين يرتبط العمل كله بلا إله إلا الله وتصبح "لا إله إلا الله" بكل مقتضياتها هي منهج الحياة.

وبهذا فإن مقتضيات "لا إله إلا الله" التعبدية تنعكس على السياسة حين تستقيم وفق الشريعة الإسلامية، وعلى القضاء، حين يقيم العدل وفق قوانين الله تعالى في الأرض، ودفاعًا وجهادًا، حين يكون لتعبيد الناس لربهم وحده لا شريك له، وتحرير أرضهم من الكفر والشرك وإعلاء كلمة الله تعالى فيها.

واقتصادًا حين تكون مصادر المال حلالا ووسائل جمعه نقية من الربا والحرام، ويكون إنفاقه في ثغور الإنفاق وفي الطيب.

وعلى الدعوة حين يكون الهدف نشر الخير وسد منافذ الشر والرذيلة ومكافحة الشبهات والحملات الكافرة والمفسدة.

وهكذا فإن سعة العبادة بمعانيها تعني أن تقوم عبادات الإنسان في كل الميادين، على هدف توحيد الله عز وجل والإخلاص له وإعلاء كلمته ﷻ، والاستجابة لأمره والانتهاء عن نهيه، وتعمير الأرض وتقويتها بمقتضى المنهج الرباني.

وهذا الأمر ينطبق على حياة الفرد كما على الدولة.

وقد أولى الإسلام الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة، حتى إماطة الأذى عن الطريق واللقمة يضعها الرجل في فم زوجته، فهو يبتغي بذلك طاعة الله تعالى ورجاء قبوله ورحمته، وكل ذلك يأتي من منطلق التوحيد والإيمان والعبادة. إنه الدين الوحيد الذي اعتنى بتفاصيل العبادة في حالة الفرد ومن حوله، في بيته وفي خارجه، إلى حالة المجتمع والأمة وما حولها في حالة السلم والحرب.

إن مقتضيات "لا إله إلا الله" التعبدية، تشمل الشعائر التعبدية وكل نشاط يقوم به الإنسان .. فهي في الفروض والمعاملات، في العقيدة والأخلاق، في سلوك الفرد وسلوك الدولة، في بناء أسرة وبناء أمة.

لأن الحياة وفق مقتضيات "لا إله إلا الله"، تتعلق بكل جزئية في حياة الإنسان، ولذلك ينطلق الإيمان من القلب وتصدقه الجوارح عبادة وسعيًا، وعاقبة ذلك بركات وفضل ومراتب ارتقاء، فمن آمن بالله وحده لا شريك له، تبعد بالصلاة، والصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر وبذلك ينعم بحياة طيبة في الدنيا ويفوز بالأجر العظيم في الآخرة. فتصلح دنياه وآخرته.

وكذلك الصيام، فالمؤمن يصوم لله الواحد الأحد، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183). فمن أقام فريضة الصيام ينعم بالتقوى، فتصلح حياته في الدنيا وتأمن نفسه وينال الأجر العظيم في الآخرة.

وكذلك الإنفاق والصدقات، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: 103). وقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج: 24 – 25).

فمن آمن بالله الواحد الأحد، أقام عبادة الإنفاق والصدقة، ونال بحسن استجابته مخلصًا لربه، التطهير والتزكية، واستفاد من هم حوله من بركات هذه العبادة الجليلة، فكان فيها مواساة الفقير وسد حاجة المحتاج وجبر الضعف والتواد والتراحم الموجب للقوة والتأييد الرباني.

وكذلك الجهاد حين يكون لإعلاء كلمة الله تعالى وإقامة شريعة الله في الأرض، قد تطهر من دنس حظوظ النفس والدنيا، فإنه موجب للتمكين والسيادة وإخضاع الأعداء، قال الله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: 29).

ولابد أن لإخضاع الأعداء بركات جليلة، كتحقيق الأمان والسيادة والازدهار.

وهكذا يشمل المقتضى التعبدى للا إله إلا الله كل نشاط للمؤمن، فهو في عباد في كل لحظة، سواء كان قائمًا بشعيرة من الشعائر، التي تشمل اللباس والسلوك وفرائض الدين والنوافل والقربات، أو ذاكرًا لله في سره أو جهره، في سكونه وحركته، أو مستغرقًا في عمل يقوم به ابتغاء وجه الله أو كافًا نفسه عن شهوة من شهواتها أو ملجمًا نفسه عن ظلم وأذية غيره!

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

شاء الله تعالى أن تكون الأمة التى تحمل الرسالة الخاتمة هي أمة مُحَمَّد ﷺ، وأن تكون هذه الرسالة موجهة للناس كافة، وأن يكتمل فيها الدين، وأن تتسع لكل احتياجات البشرية إلى قيام الساعة وأن يكون هذا كله مرتبطا في حياتها بـ"لا إله إلا الله".

وبذلك يرتسم منهج العباد بعبادة الله وحده لا شريك له، والالتزام بما جاء من عند الله تعالى على رسوله مُحَمَّد ﷺ، بدون زيادة أو نقصان، وفق منهج الإخلاص والاستقامة، منهج التوحيد الخالص، وحسن الاتباع لسنة نبينا مُحَمَّد ﷺ.

وبهذا نرى أن شهادة أن لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله، ليست مجرد عبارة ترددها الألسن بل هي منهاج حياة تقوم عليه حياة الفرد والأمة، ولها مقتضيات اكتملت في قول الله عز وجل: ﴿ اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ علَيْكُم نِعْمَتي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: 3).

ولأن الله تعالى هو الخبير البصير بعباده فقد جعل هذه المقتضيات تستوعب جوانب الحياة كلها، وتشملها متكاملة مترابطة، فأصبحت هي النور الذي يريد الله للبشرية أن تسير عليه، لتنعم به في الدنيا، وتنال رضوان الله في الآخرة، يوم يقول الله تعالى لعباده الذين آمنوا واستجابوا لأمره ورسالة نبيه ﷺ: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: 119).

ومما يميز رسالة خاتم الأنبياء ﷺ، أنها حملت من المقتضيات والتكاليف مالم تحمله في أية رسالة سابقة، فقد أراد الله تعالى لها أن تكون مستوفية لأبعاد وتكاليف المهمة الضخمة المنوطة بها في حياة الأمة المسلمة على الأرض، لذلك فإن الخطاب في كتاب الله تعالى بشأن هذه الأمة واضح جدًا، في أنها لم تخرج لكي تستقيم على أمر ربها في ذات نفسها فحسب، وهو ما كان المطلوب من الأمم السابقة كلها، وإنما لتكون رائدة وشاهدة على كل البشرية. معلية لكلمة الله ومقيمة لدينه في الأرض، وذلك دليل خيريتها التي كتبها الله لها، قال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 110).

لقد مكث رسول الله ﷺ خلال ثلاثة عشر عاما في مكة، وعشر سنوات في المدينة يوثق في قلوب أتباعه "لا إله إلا الله"، وكان ﷺ يعيش مع الصحابة ﷺ مقتضيات لا إله إلا الله بنفسه، ويوجههم إليها، ويعلمهم كيف يعيشونها. فكانت خلاصة سيرته أن تعلم الصحابة ﷺ كيف يعيشون كل لحظة من حياتهم مع الله ﷻ فاستحقوا بذلك التمكين والفتح.

ونقل لنا الصحابة ﷺ كيف نعبد الله تعالى كما أمر الله تعالى وعلمهم نبيه ﷺ، وكيف يذكرونه بالليل والنهار، وعلى جنوبهم وهم في سعي أو راحة أو جهاد. فكانوا نعم الورثة وخير من حمل الأمانة.

إن سيرة النبي ﷺ مضت تعلم الإنسان كيف يحيا في معية ربه تعالى، وكيف يكون فى كل لحظة ذاكرًا لله عابدًا مخلصًا شاكرًا، صابرًا مصابرًا في البأساء والضراء وحين البأس، لاجئًا إلى ربه، مستعينًا به، مستغفرًا إياه، مُسلمًا بقضائه وقدره، راجيًا رضاه يخشى غضبه وعقابه. وتلك مقتضيات "لا إله إلا الله".

وقد بدأت مقتضيات "لا إله إلا الله" في حياة الصحابة من المقتضى الإيماني والتعبدي في بدايتها ثم اتسعت رويدًا رويدًا بعد أن استعدت النفوس لتلقى التكاليف، واستعدت للأداء الأوفى.. فبعد أن صفت العقيدة من الشرك والانحراف، واستقامت القلوب والجوارح على العبادات والشعائر، تمكن الصحابة من التخلص من كل ما كان يهدد حياتهم من معاصي ومنكرات، وظلم وحمية الجاهلية.

لقد عالجت مقتضيات "لا إله إلا الله" كل نقص ومسألة في حياتهم، واستقامت حياة الناس في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية تلقائيًا لأنها متعلقة بمقتضيات "لا إله إلا الله" التي شملت كل شئون الحياة.

فمقتضيات "لا إله إلا الله" في هذه الميادين التي تحاول العلمانية فصلها عنها، هي التي أقامت للمسلمين دولة عظيمة وسيادة مهيبة بين الأمم، وفرق كبير جدًا بين دولة تقوم على مقتضيات "لا إله إلا الله" ودولة مدنية أو ديمقراطية مجردة من العبودية لله تعالى.

فرق في دوافعها وغاياتها، في وسائلها وطبيعتها، في تماسكها ووضوح منهجها ورسوخه وشموليته ومواءمته لاحتياجات البشرية، لأنه منهج رباني جليل.

فتحريم الخمر الذي أفسد مجتمعات الدول الكافرة، بدأ من آية عظيمة حتى تطهرت المدينة تماما من الخمور بإقبالٍ لا يتطلب شرطة ولا قوة جيش لتطبيق هذا الحكم! فالقلوب استجابت مباشرة وبسرعة وبدون تردد، لأنها تدرك مقتضيات "لا إله إلا الله" حتى لو لم يراها النبي ﷺ ولم تراقبها حسبة أو قوة بشرية للالتزام بهذا الأمر. واليوم تُسن القوانين وتجند الشرطة وتنتشر المخالفات والسجون والمحاكم، ولا تزال نسبة الإدمان آخذة في الازدياد ... هذا في أكثر الدول تقدمًا وتفاخرًا بقوتها المادية، فهي عاجزة عن إلزام شعوبها بقانون!

فالدافع حين يكون بإيمان وخشية من الله تعالى يختلف تماما من كونه لسلطة قانون.

ومع أنّ اللهَ يزعُ بالسلطانِ ما لا يزعُ بالقرآنِ، كما قال عثمان بن عفان ﷺ، إلا أن الفارق كبير ومستمر بين وجود القاعدة الإيمانية، الدافع الأول للسلوك السوي في الإنسان وبين عدم وجود تلك القاعدة أصلاً واختزال الوازع في السلطان فقط. وهنا فرق جلي بين الدولة الإسلامية والدولة المدنية.

ولذلك جاء المنهج النبوي ليعلمنا كيف نحل المشاكل بشكل جذري، فلم يتوجه رسول الله ﷺ إلى حل المشاكل بشكل مباشر في حياة الصحابة ﷺ بإنزال القوانين، إنما توجه

بأمر الله عز وجل إلى الدعوة لـ "لا إله إلا الله" حتى إذا قامت "لا إله إلا الله" في قلوب العصبة المؤمنة المكلفة بحمل الأمانة، تنزلت التكاليف وكان سهلا على المؤمنين تحملها والوفاء لها.

وهكذا اتسعت مقتضيات "لا إله إلا الله" حتى شملت الحياة كلها، بما فيها تلك القضايا التي لم يبدأ بها رسول الله ﷺ والتي كان لابد من حلها لأنها متفشية من زمن الجاهلية ومتجذرة في حياة الفرد والمجتمع؛ فكانت جميع إنجازات الصحابة ﷺ، ثمرة وفائهم للمقتضيات الإيمانية والتعبدية. لا مجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء البشر ومعايير البشر. بل جاءت طاعة لله تعالى وابتغاء مرضاته سبحانه، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التي قد تنتج عنها. وحين حدث ذلك بالفعل كان الأداء على نسق غير مسبوق في البشرية، وكانت النتائج شيئًا يُذهل عقول المؤرخين والدارسين!

المقتضيات الأخلاقية

رأينا كيف تنعكس مقتضيات "لا إله إلا الله" الإيمانية والتعبدية في حياة المرء والأمة، والآن نتناول انعكاسها على منظومة حياتية أساسية في تعاملات البشر، إنها منظومة الأخلاق، ومن يتأمل الأحاديث النبوية الشريفة التي تعتني بالأخلاق، يقف متأدبًا في حضرة الشريعة، ومن ذلك الأحاديث التي تصف المنافق وتحذر من خصال النفاق، كما في الحديث، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قال رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ

فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَر". متفق عليه.

إن المتدبر لهذا الحديث وغيره من أحاديث تناولت الأخلاق، يبصر عمق مقتضيات "لا إله إلا الله" في خلق الإنسان وسلوكه.

فالأخلاق في الإسلام تنبع من عمق العقيدة، وهي ركن ركين من مقتضيات "لا إله إلا الله". ولذلك أينما وجد التخلف العقدي رافقه التخلف الأخلاقي. فالأخلاق ملازمة للعقيدة في واقع المسلمين. وليس كما يزعم المنهزمون للغرب الذين صوروا الكافرين مسلمين في أخلاقهم كافرين في عقيدتهم، فهذه كانت من أقبح الأكاذيب التي روج لها البعض بلا ضمير، أو لعلها من نتائج سلطة الثقافة الغالبة التي تجعل المهزوم مولع بعدوه! وفي الواقع فإن الفساد الأخلاقي في الغرب يعيى القلم برصده ووصفه!

هل الغرب له أخلاق الإسلام؟

يُظهر الغرب أخلاقا كديكور لواجهته الحضارية، لكنها مهما أظهرت من لمعان فهي ليست أخلاق الإسلام قطعًا، لأنها لا تنبثق من "لا إله إلا الله"، وإنما هي في حقيقتها أخلاق نفعية مصلحية، أخلاق براجماتية جاءت تحت وطأة غريزة حب البقاء وتبادل المنافع وتحقيق العيش المصلحي، لذلك هي متغيرة ومتقلبة، فقد يُظهر الغرب أخلاقًا في موقف ثم ينقلب فجأة إلى العكس التام، ويبقى في سجل أخلاقهم ولو كان فيه وقاحة وفسادًا وخداعًا وظلمًا مشينًا. ذلك أن لغة المصالح هي التي تحكم.

وحاشا أن تكون أخلاقهم المصلحية، ترقى لمرتبة أخلاق الإسلام الربانية كما يزعم بعض المنهزمين لسلطة الثقافة الغالبة. ولا يزال حال الأخلاق في الغرب يندى لها الجبين، من صفاقة وكبر وصلف واحتيال وتضليل وخداع وحقد وانتقام وأذى.

ويتساءل المرء حقًا، هل أخلاق الغرب هي التي حملها معه في غزو أفغانستان والعراق، أم هي التي صنعت مشاهد الإبادة الجماعية في غزة؟ أليست أخلاق الغرب هي التي قتلت أطفال العراق بالحصار واليورانيوم كما قتلت أطفال سوريا وغزة تحت الهدم ووطأة الجوع والرعب والفجيعة؟

لقد قُتل المسلمون على يد الغرب في مجازر دموية وحشية في كل زاوية من الأرض، وتلك هي حقيقة أخلاقهم.

إنها أخلاق الديمقراطية التي يُباح فيها الكذب والخداع والغش والاحتيال، أخلاق الرأسمالية التي تجيز التسلط على أموال الناس بالباطل والجشع والنهب والسرقات، وأخلاق الرذيلة والخنا، التي تجيز الزنا والشذوذ وتدافع عنهما بلا خجل ولا حياء، أخلاق العلمانية التي تجيز خداع الناس بالإعلانات والإغراءات ورفع معدلات الاستهلاك لرفع مداخيل الأموال. أخلاق النسوية التي تقتل الأجنة في بطون الأمهات وتسلخ المرأة من أنوثتها وأمومتها.

وشتان بين أخلاق الغرب وأخلاق الإسلام!

إن أخلاق الإسلام التي اقتضتها "لا إله إلا الله" هي التي جعلت أبو عبيدة بن الجراح ﷺ بعد فتح الشام، وأخذ الجزية من أهلها لحمايتهم من أعدائهم، جعلته يرد هذه الجزية لأصحابها، بعد سماعه بخبر هرقل يجهز جيشًا جرارًا لاحتلال دمشق. فرد أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ الجزية إلى الناس، وقال لهم: "لقد سمعتُم بتجهيز هرقل لنا، وقد اشترطتم علينا أن نحميكم، وإنا لا نقدِر على ذلك، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم".[7]

ونصره الله عز وجل فعاد أهل الشام يؤدون الجزية بنفوس راضية ثم دخلت غالبيتهم في الإسلام.

ولا تزال أخلاق هذا الدين العظيم أحد أبزر أسباب انتشار الإسلام عبر التجار الرحالة الذين ينتقلون إلى البلاد البعيدة عن بلاد الإسلام. أخلاق فرضت نفسها دون رقابة أو تهديد، فكانت تخرج بطيب نفس وإرادة الخير من نفوس تشربت "لا إله إلا الله" في كل ذرة في كيانها.

وهكذا كان لالتزام المسلمين الأوائل بمقتضيات "لا إله إلا الله" بعدًا أخلاقيًا فاخرًا، فتح الأرض ومهد للإسلام فيها دون عناء جمع وإعداد. واليوم يعلم كل باحث لبيب أن أساس حضارة الغرب إنما هو مما نهبوه من حضارة الإسلام المهيبة.

---

[7] الخراج؛ لأبي يوسف، ص: 139 بتصرف، وفتوح البلدان؛ لأبي الحسن البلاذري، ص: 137، 143 بتصرف، والدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد ص: 53، 54.

الإسلام دين الأخلاق

والإسلام دين الأخلاق الحميدة، ولذلك نرى في القرآن والسنة اهتمامًا بالغًا بقضية الصدق والأمانة ونهيًا صريحًا وتحذيرًا شديدًا من الكذب والخيانة. والصدق والأمانة هي القواعد التي تقوم عليها منظومة الأخلاق، وكذلك الكرم والشجاعة التي تحث عليهما التربية الإيمانية والنبوية الجليلة، فتكتمل بذلك منظومة الأخلاق وتتفرع منها كل مروءة ونبل ومكرمة. والأخلاق منظومة تشد بعضها بعض، وتكتمل معا، فمن وجد في نفسه الصدق والأمانة والكرم والشجاعة وجد كل مروءة وخلق نبيل.

ومن يتأمل في الخطاب القرآني يجده يهذب النفس ويعلمها الأخلاق والأدب باتصال وطيد بالعقيدة، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78).

فتعليم الإنسان شكر النعمة عبادة وخلق، والمؤمن يشكر الله وحده لا يُشرك به شيئًا. وهذا الشكر بحد ذاته خلق، لا يعرفه الكافر الذي يطغى.

بينما الطغيان خلق جاهلي، ينطلق أيضا من قواعد شركية وكفرية، فلا يطغى الإنسان إلا حين يستغني عن خالقه ويتوهم أن ما بين يديه إنما هو عن استحقاقية فيه ونجاح، فلا ينسب فضله لله تعالى ولا يشكره عليه، وبذلك يكبر الكبر في نفسه ويولد الطغيان.

ويكفي لعلاج ذلك أن يعترف الإنسان بأنها نعمة الله تعالى ويشكره عليها ويسأله من فضله تعالى، لكن الإنسان يطغى!

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (العلق: 15).

فالكذب خلق جاهلي آخر، وتعرضه هذه الآية الجليلة بمفهوم أكبر من مفهوم الكذب الذي يعرفه الناس، فهي تشير إلى الكذب على الله عز وجل، والكذب على الفطرة والكذب على الحق. فانحراف العقيدة هو انحراف في الأخلاق. والاقتران واضح بين العقيدة الصحيحة والأخلاق الحميدة، وبين العقيدة المنحرفة والأخلاق السيئة.

وتتولى الآيات في هذا الربط المهيب بين العقيدة والأخلاق، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) ﴾ (المؤمنون: 1– 11).

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70)﴾ (الفرقان: 63 – 70).

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) ﴾ (الفرقان: 72 – 76).

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) ﴾ (الرعد: 19 –22).

وهكذا عرضت الآيات العظيمة الأخلاق مع العبادات لأنها مقتضيات "لا إله إلا الله"، ولأنها ميثاق مع الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد: 19).

الفهم الصحيح لمنظومة الأخلاق

في زماننا تأثرت الأفكار بفلسفة الكافرين فزعموا أن الأخلاق أمر مفتعل، ليس فى فطرة الإنسان، وإنما هي مفروضة عليه من الخارج وأنها ذات معايير متقلبة لا تثبت على حال. والله تعالى يقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10) ﴾ (الشمس 7 – 10).

فالإنسان له طريقان للاختيار بينهما بكامل إرادته، من ثمّ أصبحت لأعماله قيمة أخلاقية مصاحبة لها، لا تنفك عنها، فإما أن يختار طريق التقوى وإما أن يختار طريق الفجور.

لكنهم يريدون فرض طريق واحد فقط، طريق الحيوان، طريق الغريزة، فيلهث الإنسان لتلبية الغرائز فينقلب إلى بهيمة، وتلك هي النتيجة التي وصلت لها الحضارة الغربية الكافرة المحاربة.

وفي الواقع مشكلتنا مع الحضارة الغربية ليست في قضية التزام الأخلاق، إنما في تحديد أي خلق هو خير أو شر، أي خلق هو حسن أو قبيح، مباح أو لا يجوز، حلال أو حرام، فالمسألة في المعايير التي نحتكم لها ونقيس وفقها الصلاح من الفساد. وهي ترجع بأصلها إلى العبودية لله تعالى، فنحن نرجع بأخلاقنا والحكم عليها وتقييمها إلى مقتضيات "لا إله إلا الله"، أما هم فيرجعون إلى الشرك والكفر!

فمقياس الإسلام مقياس رباني، أما مقاييس الكافر فيرجع إلى العقل الجمعي، كما عند دوركايم، أو الأوضاع المادية كما عند ماركس، أو المصلحة كما عند البراجماتيين .. وهي في جميع الحالات من صنع الشيطان ووسواسه.

وهكذا نرجع للقرآن من جديد، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (يس: 60 – 61).

فإما سبيل الله الواحد الأحد أو سبيل الشيطان .. فالأخلاق تتصل بلا إله إلا الله... وبهذا فإن مقتضيات "لا إله إلا الله" في حياة المسلم، تستوجب المعايير الأخلاقية التي حددتها تعاليم الشريعة التي أقرها الله تعالى الخبير البصير بعباده.

واليوم تسعى الجاهلية المعاصرة إلى فصل الدين تدريجيًا من حياة الإنسان والأمم دون أدنى احترام لمعتقدات الشعوب، بل تفرض الانحطاط الأخلاقي والانحلال بعقلية العصابات الإجرامية، وتسلب الفضيلة وتحاربها بسياسة الحصار والابتزاز والاضطهاد! وهكذا مع كل خطوة انحلال، يحدث المزيد من الانفصال عن العقيدة والانفصال عن الأخلاق، حتى باتت أقبح الأخلاق يدافع عنها القانون الدولي، وأصبح فرض الفسق والفجور والشذوذ يعمم بشرعية دولية. فيجد الإنسان نفسه في حرب متعددة الجبهات، في وسط يضغط عليه بتفكيك الأخلاق وانحلالها، وتحت ضغط الشهوات والاحتياجات، وضغط الطغاة وإفسادهم لكل منظومات الحياة. فلا يجد النجاة إلا في المنهج القرآني الذي يشدد الوثاق بين "لا إله إلا الله" وبين الأخلاق، فيصون الإنسان

فطرته وكرامته وإنسانيته وعبوديته لله الواحد الأحد. ويجد توازنه وحياته السوية بلا إفراط ولا تفريط.

ومن يتأمل آيات القرآن العظيم يبصر الجمال، يحمله الخطاب الجليل الذي يجمع بين منظومة العقيدة ومنظومة الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: 23). فجعل صلة العبادة الخالصة البريئة من الشرك ثم الصلة بالوالدين إحسانًا، ووصف هذا الإحسان فقال تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) ﴾ (الإسراء: 23 – 24).

فيا لعظمة هذا الدين الذي يحاسب على كلمة "أف" تجرح صدر أب أو أم!

إن في ذلك لنبل الأخلاق وروعة الإحسان المنبثق من مقتضيات "لا إله إلا الله".

ولا يقف الخطاب القرآني في فرض الإحسان على الوالدين بل يعم كل من هو بحاجة إليه، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36) ﴾ (النساء: 36).

فمقتضيات "لا إله إلا الله" الأخلاقية تتسع لتشمل كل الناس وكل العلاقات وكل الميادين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: 58) فالأخلاق في القضاء من مقتضيات "لا إله إلا الله".

وحتى في الاقتصاد والتعاملات المالية قال عز وجل: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (280) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281) ﴾ (البقرة: 280 – 281).

ومن يتأمل في مدى سعة وشمولية ومواءمة الأخلاق في الإسلام للإنسان وموقعه، يذهل لذلك الوفاء لعلاقات الأسرة والزواج والمجتمع وحتى علاقة المسلم بغير المسلم في السلم والحرب وحتى علاقته بالحيوان في تعامله ولحظة ذبحه.

ويكفي للدلالة على عظمة الأخلاق المنبثقة من العقيدة في الإسلام أنه الدين الوحيد الذي نقل لنا سنن النبي ﷺ وأخلاقه وآدابه في المطعم والملبس والمسكن والجوار والتعامل مع الناس والحيوانات وحتى النبات.

قال رسول الله ﷺ: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا"[8] وقال ﷺ: "في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ"، متفق عليه.

[8] رواه أحمد (12902) ، والبخاري في "الأدب المفرد" (479) ، وعبد بن حميد في "مسنده" (1216) ، والبزار في "مسنده" (7408) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ.

وفهم الصحابة ﷺ مقتضيات "لا إله إلا الله" الأخلاقية وحملوها بعلو همة ومسابقة، ولذلك يقول عمر ﷺ: "لو أن جملا (أو قال شاة أو قال حملا)، هلك بشط الفرات، لخشيت أن يسألني الله عنه"[9].

وفي ذلك تواضع جمّ منه ﷺ وحس مسؤولية واهتمام حتى بالدواب في أرض المسلمين، إنه الصدق الجليل.

إن الحديث عن مقتضيات لا إله إلا الله الإيمانية والتعبدية والأخلاقية، يعني أننا أمام نموذج مسلم، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويصرف جميع عباداته لله الواحد الأحد، ويتعامل بكامل أخلاقياته في سبيل مرضاة ربه. فيُظهر الصدق والأمانة والكرم والشجاعة، والأدب والحياء والمروءة والحلم والوفاء، والحرص على حفظ الوعد والعدل والإنصاف والترفع عن الفجور والبغي والظلم. مسلمٌ مخلصٌ في عمله متقنٌ في سعيه، لا يحتاج لرقابة كي يعمل ولا لتهديد كي يستقيم ويلتزم، يزدان بعلو همة وحسن معاملة لمن حوله، بعيدٌ عن الأذى واللؤم والكذب والصلف والبغي، يدرك قيمة الكلمة ومقامات الناس، فيعطي لكل ذي حق حقه، يحفظ هيبة الحق في نفسه فتنعكس بهاء ونبلا ومناقب ومكرمات.

وأما حالنا اليوم فيموت له الحر الأبي كمدًا! فلا نحن حفظنا أخلاق الإسلام ولا حتى أخلاق الجاهلية الأولى، التي اشتهر بها العرب. لقد ضيّع المسلمون اليوم مقتضيات

---

[9] هذا الأثر بهذا اللفظ روي من عدة طرق، لا يخلو إسناد كل واحد منها من ضعف، إلا أنها تتقوى بمجموع الطرق فالذي يظهر أن الأثر حسن بمجموع طرقه إن شاء الله.

"لا إله إلا الله" الأخلاقية ولم يحفظوا حتى مروءة الجاهلية وتلك الهزيمة الكبرى التي تستوجب انتفاضة شاملة وتوبة.

فنحن بحاجة لمعالجة سريعة وعميقة وجذرية طارئة لحالنا، بالعودة لديننا والوفاء لمقتضيات "لا إله إلا الله" بصدق وإخلاص بعيدًا عن التبرير والغش. بعيدًا عن ابتذال المعاني والتسلق المخزي وخيانة الدين والعهد.

لا تتوقف مقتضيات "لا إله إلا الله" عند المقتضى الإيماني والتعبدي والأخلاقي فحسب، بل تستوجب مقتضيات أخرى، يعتقد الكثيرون أنها خارجة عن نطاق "لا إله إلا الله". نلخصها فيما يلي بإذن الله تعالى.

قال ابن تيمية رحمه الله:

"كلما قوي التوحيد في قلب العبد قوي إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه"

[الفتاوى 35/28]

مقتضيات "لا إله إلا الله" في تداول الأيام والفتن

كنا تناولنا فيما سبق، مقتضيات "لا إله إلا الله" الإيمانيّة والتعبدية والأخلاقية، من المهم فهم هذه المقتضيات كيف تنعكس في مسيرة المؤمن مع تداول الأيام، في جميع أحواله. والبداية مع:

مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاء

ف "لا إله إلا الله" ليست شعارًا يتلى في الرخاء فقط وأثناء أداء العبادات والحديث عن الإيمان والإسلام والإحسان، بل هي عهدٌ وميثاق يختبر صدقه في لحظات الشدة والابتلاء.

والابتلاء سنة ماضية في حياة المؤمنين، ليُظهر الله الصادق من المدّعي، وليُمحص القلوب ويصقل الإيمان. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: 2).

قال السعدي عن تفسير هذه الآية الجليلة: "يخبر تعالى عن تمام حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال "إنه مؤمن" وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة

للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته. ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها".

إن أولى مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاءات والمحن، هي الثبات على التوحيد. أن يبقى القلب ثابتًا على "لا إله إلا الله"، لا يتعلق بغير الله تعالى، ولا ينتظر الفرج إلا منه ﷻ.

فالمؤمن يعلم أن الضر والنفع بيد الله وحده، وأن الأسباب لا تنفع إلا بإذنه. قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: 11).

"أي: ما أصاب أحدًا شيءٌ من مكروه يَحُلُّ به إلا بإذن الله وقضائه وقدره. ومَن يؤمن بالله يهد قلبه للتسليم بأمره والرضا بقضائه، ويهده لأحسن الأقوال والأفعال

والأحوال؛ لأن أصل الهداية للقلب، والجوارح تبع. والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: 22).

"ما أصابكم – أيها الناس – من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم من الأمراض والجوع والأسقام إلا هو مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن تُخْلَق الخليقة. إن ذلك على الله تعالى يسير".

ومقام الابتلاء مقام توحيد يوجب التضرع لله تعالى، قال عز وجل: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 43).

"فهلا إذ جاء هذه الأمم المكذبة بلاؤنا تذللوا لنا، ولكن قست قلوبهم، وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي، ويأتون من الشرك".

وهذا يعني أن من مقتضيات لا إله إلا الله في الابتلاء إخلاص التوحيد لله تعالى ونبذ كل شرك ومعصية. وعدم التهاون في الاستقامة كما في السلامة والأمن.

فالثبات على "لا إله إلا الله" يعني ألا تُعبد الشهوات في ساعة الضيق. وألا يُرتكب الحرام طلبًا للفرج. وألا يُسخط من الأقدار المؤلمة، بل يُرضى بحكم الله تعالى ومشيئته. ويُستعان بالله تعالى لتجاوزه.

ولا يكون حال المسلم كحال من يعبد ربه على حرف، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: 11).

"ومن الناس مَن يدخل في الإسلام على ضعف وشكٍّ، فيعبد الله على تردده، كالذي يقف على طرف جبل أو حائط لا يتماسك في وقفته، ويربط إيمانه بدنياه، فإن عاش في صحة وسَعَة استمر على عبادته، وإن حصل له ابتلاء بمكروه وشدة عزا شؤم ذلك إلى دينه، فرجع عنه كمن ينقلب على وجهه بعد استقامة، فهو بذلك قد خسر الدنيا؛ إذ لا يغيِّر كفرُه ما قُدِّر له في دنياه، وخسر الآخرة بدخوله النار، وذلك خسران بيِّن واضح. يعبد ذلك الخاسر من دون الله ما لا يضره إن تركه، ولا ينفعه إذا عبده، ذلك هو الضلال البعيد عن الحق. يدعو مَن ضررُه المحقق أقرب من نفعه، قبح ذلك المعبود نصيرًا، وقبح عشيرًا".

وقد جعلت الابتلاءات لتمحيص ما في القلوب وتمييز الخبيث من الطيب، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا

قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: 154).

قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يعني: التكذيب بالقدر وهو قولهم (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا – قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب (قضي) عليهم القتل إلى مضاجعهم) مصارعهم، (وليبتلي الله) وليمتحن الله (ما في صدوركم وليمحص) يخرج ويظهر (ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) بما في القلوب من خير وشر".

إن من مقتضيات "لا إله إلا الله"، حسن الظن بالله تعالى والرضا بأقداره وتعظيم حكمته، فيحسن المؤمن الظن بربه في كل حال. فهو يعلم أن البلاء خير له، وإن ثبت فيه وصدق، يكون تطهيرًا ورفعة في الدرجات.

عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ". صحيح مسلم.

من فهم "لا إله إلا الله" حق الفهم، أدرك أن الله لا يقدر إلا الخير، وأن الابتلاءات مقام لتحقيق العبودية لله تعالى لا السخط والتذمر، وأن تأخير الفرج ليس نسيانًا بل حكمة ورحمة ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، وبهذا يتواصى ويُذكّر ويتصبر، وكفى من حكمة الابتلاءات أن تجعل الدنيا صغيرة في أعين المؤمنين، فتلهج ألسنتهم وقلوبهم بـ "لا عيش إلا عيش الآخرة".

بل إن من صميم التوحيد وفضائله أن يطمئن المؤمن لكل ما يكتبه الله له ولو كان مؤلمًا ومفجعًا، ما دام الله اختاره له، فيرضاه بل ويحبه، فإن الله لا يختار لعبده إلا ما هو خير ورحمة له. جل في علاه.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاء، الصبر. وما أدرك ما مرتبة الصبر وعظمة أجره، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: 10).

ومن عرف الله بأسمائه وصفاته علم أن كل ما يقدّره عليه فهو بالعلم والعدل والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: 155–156)

والصبر عبادة، وسبب طمأنينة في القلب، ومن صبر في سبيل الله مولاه فهو حسبه، ويرافق هذه المعاني الإيمانية الجليلة، فضائل، لمن أخلص دينه لله تعالى صابرًا متوكلًا، في الابتلاءات كما في المنح، فينعم بفضائل الصبر وموجباته وكفى باستشعار معية الله

تعالى واليسر المرافق للعسر آية من آيات الله تعالى يغفل عنها الكثير من الناس. قال الله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح: 5 – 6).

وأينما ذكر الصبر ذكر التوكل على الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت: 59).

يقول السعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية الجليلة: "فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلا في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به".

إن تلك الجنات المذكورة للمؤمنين هي للذين صبروا على عبادة الله، وتمسكوا بدينهم، وعلى الله يعتمدون في أرزاقهم وجهاد أعدائهم.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاء، أن يُفوّض المؤمن أمره إلى الله، مع الأخذ بالأسباب المشروعة. فهو يعلم أن الله وحده هو الملجأ والمفزع. قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ (التوبة: 51).

يقول السعدي في تفسير هذه الآية الجليلة: "قال تعالى رادًا عليهم في ذلك (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) أي: ما قدره وأجراه في اللوح المحفوظ. (هُوَ مَوْلَانَا) أي:

متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء. (وَعَلَى اللَّهِ) وحده (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل".

والتوكل الحقيقي لا يعني ترك السعي، بل يعني السعي بثقة تامة في أن الأمر بيد الله لا بيد البشر. وأن الله يدبر الأمور بحكمته، فما يقضي به الله هو الخير وتمامه.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاءات، تجديد الإيمان في المحنة فالابتلاء فرصة لتجديد الإيمان بـ"لا إله إلا الله"، لأن المحن تكشف ضعف النفس وتوقظ القلب. فمن الناس من لا يعرف الله حقًا إلا في البلاء، حين تضيق الأسباب وتنقطع الحيلة، فيعود إلى الله خاشعًا متضرعًا.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (العنكبوت: 65).

وهكذا يُعيد الابتلاء الإنسان إلى التوحيد الخالص، ويذكّره بأن لا ملجأ إلا الله.

وفي ذلك رحمة بعباده، فالابتلاء يكسر الغرور والكبر والعجب، ويعيد الإنسان لأصل عبوديته لله تعالى متضرعًا يرجو رحمته وفرجه.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الابتلاء احتساب الأذى والشدة في الثبات على دين الله تعالى، فحتى لو لقي المبتلى السخرية والاستهزاء، حتى لو بُخست حقوقه وغُمطت، فهو في مقام عبادة لله تعالى لا يضره من خذله وظلمه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ (الأنعام: 34).

وهذا يعني أن يستمر المؤمن في إظهار شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب سعتها في مقامها، فلا يقبل أن يسبّ الله تعالى أمامه، ولا يصمت عن تعدي حدود الله بلا مبالاة. يحمل أمانة الداعية في الكرب كما في الفرج، وهل يستجلب الفرج بغير الانكسار لله تعالى والتوبة النصوح؟

ولا بد للمؤمن من توبة في الابتلاءات، وكيف يصدق في طلب رحمة الله العاصي والمجاهر بالمعصية، بل إن من أوجب مقتضيات "لا إله إلا الله" في الشدة والبلاء، التوبة، والخضوع لله تعالى بانكسار وتضرع ورجاء رحمة الله تعالى.

والمؤمن المحب لله تعالى، لا تأخذه في الله لومة لائم ولا ينهزم لاعتراضات الناس المخالفة لدين الله تعالى ولا لتفلتهم.. فحبه لله تعالى يوجب له اليقين بأن العاقبة للمتقين.

وحين يقوم العبد بمقتضيات "لا إله إلا الله" في البلاء، يطمئن قلبه ويسكن في معمعة الخطوب، وينعم ببركات المعية الربانية والتأييد الذي لا يباريه تأييد، فلا يضطرب ولا يتسخط، بل يردد آيات القرآن العظيم في قلبه، فهي له الحياة، ومن قدر الله حق قدره، وعرفه تعالى بأسمائه وصفاته، رضي عنه في جميع أقضيته وأحكامه.

ويبقى الابتلاء من أكثر ما يهذب القلب ويثبته على اليقين والاستقامة، وهو ميدان لإثبات صدق التوحيد. والخاسر من خسر دينه في الابتلاءات التي تتوالى والمحن التي تشتد.

"لا إله إلا الله" ليست مجرد كلمة عند اللسان، بل هي قوة تثبت القلب عند الزلزلة، وتبني اليقين عند الشدائد، وتغرس الطمأنينة حين ينهار كل شيء حولك. وهذا هو الرباط الذي يربط القلب وتنجو معه النفس، ولذلك أكثر الناس ثباتًا أشدهم إيمانًا ومحبة لله تعالى.

"لا إله إلا الله" في الابتلاءات هي الفرج وهي القوة التي لا ينحرف بفضلها المؤمن عن سبيل المؤمنين.

ومن عظيم حكمة هذا الهدي، أن المؤمن كلما تمسك بلا إله إلا الله متأسيًا بنبيه صلى الله عليه وسلم، مهتديًا متهذبًا بهديه، ترخص لأجلها النفوس والمهج، يجزيه الله تعالى تأييدًا وسكينة، وفتوحات ربانية، لا يمكن لقوى الأرض مجتمعة أن تحققها له!

"لا إله إلا الله" ليست مجرد كلمةً تُقال باللسان ثم تُنسى في زحام الحياة، بل هي عهد بين العبد وربه، يُختبر صدقها في لحظات الضيق كما في لحظات الرخاء.

فحين تهبّ رياح الابتلاء، تُساق القلوب إلى امتحان الإخلاص: أهي متعلقة بالله وحده، أم بغيره من الأسباب والخلائق؟

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (مُحَمَّد: 31).

"ولنختبرنكم – أيها المؤمنون – بالقتال والجهاد لأعداء الله حتى يظهر ما علمه سبحانه في الأزل؛ لنميز أهل الجهاد منكم والصبر على قتال أعداء الله، ونختبر أقوالكم وأفعالكم، فيظهر الصادق منكم من الكاذب".

وهكذا كلما ضاقت الدنيا اشتد اليقين والثبات والصبر والرضا، ويجد الموحد في كل ما يقع وجهاً من وجوه لطف الله الخفي.

وكم من قلب لم يعرف التوحيد إلا في المحنة، وكم من دمعة أعادت الإنسان إلى ربه أقرب مما فعلت أعوام الرخاء. ذلك أن البلاء مدرسة في تحقيق التوحيد، تعيدنا إلى أصل الفطرة الأولى: أن الله وحده هو المولى، ومنه فقط يرجى الفرج.

عن حذيفةُ رَضِي اللهُ عنه: "كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم إذا حزَبَه أمرٌ صلَّى".
فهذا هو الهدي النبوي في تحقيق التوحيد في مقام الابتلاء، والفرار إلى الله تعالى من مقتضيات "لا إله إلا الله".

فليتجلد المؤمن وقت الشدة وليستحضر عظم أمانة "لا إله إلا الله" التي يحملها، وهيبة الفضائل التي توجبها، ولا يرخص دينه لعدو أو كافر أو مرجف ومنافق.
فإنما هي حياة واحدة لتكن خالصة لله وحده لا شريك له.

مقتضيات "لا إله إلا الله" في الجهاد

يعتقد البعض أن مجرد حمل السلاح وقتال الأعداء ورفع الصوت بـ الله أكبر" و"لا إله إلا الله" قد تحققت مقتضيات "لا إله إلا الله" في الجهاد. وهذا خطأ، فالجهاد ميدان عبادة مثل كل العبادات يهدده الشرك والنفاق ويهدده الجشع وأمراض القلوب الجسام، تهدده الفتن والمظالم وسفك الدماء المعصومة، فمخطئ من دخله مغرورًا وسلك طريقه مزكيًا لنفسه معجبًا بها.

والمجاهد في سبيل الله تعالى بدون شريعة الله تعالى تحكمه، مجرد قاطع طريق، لذلك هو مطالب أكثر من غيره بأن يرافق حمل سلاحه، الاستقامة كما أمر الله تعالى للدفاع عن دين الله تعالى، ولا يكون ذلك بدون تطبيق مقتضيات "لا إله إلا الله" في حياته وأسرته وفي جيشه ومع أمرائه، ومع الناس كافة والأعداء. والجهاد لا يعني القتال لأعداء الله تعالى فحسب، بل هو كل ما يقتضيه الإيمان الحقيقي لنصرة الدين والدفاع عن الملة والعقيدة. فالإيمان بلا إله إلا الله حقا يتطلب أن يكون الفرد مستعدًا لحمل مبادئ التوحيد وتكلفة الثبات عليها، والالتزام بمقتضياتها لا يتفلت.

إخلاص الدين لله وحده لا شريك له

وهو أولى وأهم مقتضى لـ"لا إله إلا الله"، فأكثر ما يهدد الجهاد إخلاص الدين فيه للقادة والرموز والتيارات والجماعات، بينما الجهاد لتكون كلمة الله تعالى هي العليا ويكون الدين كله لله ويكون الجميع تحت شريعة الله، يعني أن يقف المجاهد موحدًا على منهج نبيه تقيًا، لا يركن ولا يطغى، بل يستقيم كما أمر الله جل وعلا، ولا يتعدى حدود الله تعالى في الدماء والأموال والأعراض وحقوق الناس.

وهذا يعني أن كل عمل جهادي يجب أن يكون موجهًا لوجه الله وحده، وليس للسمعة أو المصلحة الشخصية أو الدنيوية. وليس للتفرد بالصيت وظلم الناس والغمط والبخس.

إخلاص الدين لله يعني أن يكون الهدف الأساسي للمجاهد إعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، وتحقيق الشريعة على الأرض، دون انحراف أو رياء.

يوم خرج الصحابة ﷺ في غزوة بدر، لم يكن هدفهم المال أو السلطة، بل نصرة دين الله وإعلاء كلمة التوحيد، وكان ذلك سببًا في النصر والتمكين، رغم قلة عددهم مقابل عدوهم. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: 5).

وفي الجهاد كما في كل ميدان، شهادة "لا إله إلا الله" تفرض على المسلم أن ينصر دين الله بكل الوسائل المباحة. فيأخذ حذره ويجمع عدته ويُعد نفسه وأسلحته وينصر الله بكل ما استطاع، ولا يقصر في ذلك ولا يبخل.

لقد جاهد خالد بن الوليد ﷺ لنصرة الدين، وكان كل عمله قائمًا على إعلاء كلمة الله تعالى وتحقيق العدالة، ولم يكن لأي هدف دنيوي يلهيه عن غايته. ومع أنه كان سيف الله المسلول، إلا أنه لم يسمح للعجب ولا للغرور ولا لحب التفرد بالصيت أن يؤخره أو يقطع طريقه، بل كان يعمل في الساقة وفي القيادة بنفس العطاء والبذل، قد علم أنه جندي في جيش رسول الله ﷺ. وهذا هو تمام الفضل والشرف.

إن من مقتضيات "لا إله إلا الله" انضباط المجاهد في جهاده، والالتزام بشريعة الله تعالى، فلا يعني أنه مجاهد أن يتسلط على الناس، فيكفرهم بدون سبب، وينتهك حرماتهم بدون حق، بل يحق الحق ويبطل الباطل ولو على نفسه. فالمجاهد لا يملك حصانة .. بل هو عبد لله تحكمه شريعة الله.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: 94).

في معركة حنين، أوصى النبي ﷺ بتفادي قتل النساء والأطفال، رغم شدة المعركة، مؤكدًا أن الجهاد لا يتعدى حدود الشرع. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (البقرة: 190).

وعلى وصايا النبي ﷺ سار جيش النبي ﷺ ففتحت لهم الأرض وأشرقت بنور الإسلام العظيم.

وفقه الجهاد علم وعمل، وحدود وضوابط، وحقوق وواجبات، لا يحق لمن حمل اسم مجاهد أو جماعة جهادية أن يتعداها مهما سطر من انتصارات، وحشد من أنصار ومعجبين. وقد بيّن أهلُ العلم فقهَ الجهاد تفصيلاً وحكمةً، فلا ينبغي للمجاهد أن يجهل فقهَه وأحكامَه.

ومن مقتضيات لا إله إلا الله في الجهاد، وحدة الصف وترابط المجاهدين كالبنيان المرصوص، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: 4).

ولا يعني ذلك أن يحصر الولاء فيمن يقاتلون في جماعة واحدة أو تحت اسم واحد، بل كل من جاهد في سبيل الله تعالى له حق الولاء والدعم والنصرة، ولو كره المتعصبون.

ولذلك حذر الإسلام، وأوجبت مقتضيات "لا إله إلا الله" نبذ التفرق والتنازع بين المجاهدين، لأن له عواقب وخيمة، في نفس المجاهد وفي عمله الجهادي. كما أنه أسوأ ما يشوّه صورة الجهاد ومكانته.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الجهاد الالتزام بالمصطلحات الشرعية الصحيحة، وعدم التلاعب بها أو تسييسها لمصالح شخصية وحظوظ نفس، والابتعاد عن خلط النوايا في الجهاد بدنس الدنيا، قال عمر بن الخطاب ﷺ: "نزّهوا الجهاد عن عرض الدنيا"[(10)].

وهل فرق المجاهدين مثل حب الرياسة والإمارة والتفرد بالصيت؟! وكل هذه أمراض وجب معالجتها مبكرًا في الصف الجهادي قبل أن تستفحل وتنقض الغزل.

لقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة في إخلاص الدين لله تعالى في الجهاد، ووحدة الصف والتواضع وكسر العجب، وكانت أخلاق الأنصار والمهاجرين، إيثارًا وعفة، مدرسة لكل مجاهد يرجو رحمة ربه.

[(10)] عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، صفحة: 186

إن الجهاد مقترن بالصبر، ولا يمكن لجهاد أن يستمر بدون صبر، لذلك كان الصبر والثبات للمجاهد، مهما كانت الظروف، في شدة أو تمكين، زاده وذخيرته باتجاه خاتمته.

و"لا إله إلا الله" تزرع في القلب الصبر على الشدائد والمحن. والثبات تحت بارقة السيوف وفي مواجهة العدى والمكر والغدر، وهي الزاد الذي يدفع المجاهد لتقديم نفسه والتضحيات، في سبيل نصرة دينه بلا تردد ولا لجلجة ولا ارتياب.

ونصر الله للمجاهد هو ثباته وصبره، وإن قتل أو أسر، فهو المنتصر.

وتحقيق مقامات التوحيد في الجهاد لا يجيز مساوئ الأخلاق ودنيها، فلا يجوز للمجاهد الكذب والظلم ولا الغدر والعدوان بلا حق. كما لا يليق به فحش اللسان والبغي وخوارم المروءة.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله"، الاعتزاز بعبادة الجهاد لا الخجل منها أو تقديم التنازلات عنها لإرضاء الكافر، كما أن الجهاد أكبر وأعز من مفهوم المقاومة، ومن تفرس في المعاني أدرك موجبات التمكين.

مقتضيات "لا إله إلا الله" الجهادية ليست مجرد أعمال قتالية، بل نهج حياة كامل، يبدأ ويقوم على إخلاص الدين لله وحده لا شريك له، على خطى السابقين الأولين.

المجاهد ليس عبدًا لغير الله، لذلك لا طاعة له لمخلوق في معصية ربه ولا يتعصب لغير الله ورسوله ﷺ، ولا يصمت عن انحراف أو ظلم، بل ينصح في الله ويسعى لحفظ الصفوف مستقيمة تقية، وهذه هي نصرة الدين في صفه وفي الميدان، توجب له الالتزام بالشرع قبل غيره، وتفرض عليه العمل في وحدة صف وصبر، في الساقة أو القيادة، يحمل الأخلاق العالية الفاضلة، معتزًا بدينه ومظهرًا حقيقة المصطلحات الشرعية الصحيحة، موفيًا لها حقها كما أمر الله ورسوله ﷺ لا يتجاوز ولا يطغى.
فيمضي مرابطًا مجاهدًا يبتغي إحدى الحسنيين، إما نصر أو شهادة.

مقتضيات "لا إلهَ إلاَّ الله" في زمن الهزيمة

الهزيمةُ تجلٍّ من تجلّيات الابتلاء في مسيرة أُمّة أو جماعة أو فرد. ولا إله إلا الله ليست مجرد لفظ يُتلى في أيام النصر وحدها، بل عهدٌ يُختبر صدقه حين يتكشّف ضعفنا وتنكشف مواطن القصور.
مقتضيات "لا إله إلا الله" في لحظات الهزيمة تَحكُم سلوكنا الجماعي والفردي، وتُحدِّد هل تكون الهزيمة مَدرسَةً للنهوض أم سببًا للسقوط.

ولا يزال أول مقتضى لـ "لا إله إلا الله" في الهزيمة، الثبات على التوحيد ورفض الخضوع لغير الله تعالى.

فيبقى القلب معلَّقًا بالله وحده. فعند الهزيمة قد يكون الإغراء كبيرًا لعرض عبادة أسباب القوى: المعكسر الأقوى ماديًا، الأيديولوجيات الأسهل تكاليفًا، المال، الرياسة، التفلت والفرار للدنيا، التنازلات في سبيل فتات زائل. لكن لا إله إلا الله تصنع قوة القلب والاستعلاء بالإيمان والعزة بالله ورسوله ﷺ.

وعلى من تجرع الهزيمة أن يبدأ بالتوبة لله تعالى ويصلح من حاله، فلا مصاب يصيب المؤمن إلا بشيء اقترفه، عليه أن يتوب منه ويطهّر نفسه منه، وليتأدب من هزيمته ولا يلقي بكل اللوم على أعادئه أو الخونة، بل ينظر في أدائه، فمن ينصر الله ينصره، وليصحح بصدق وأمانة، ويكفّ عن إلقاء المعاذير.

لذلك تعد المحاسبة الفردية والجماعية من مقتضيات التوحيد الصادق، لا التبرير بالأعذار ولا التبرئة المتهاونة للذات. والتائب حقا لا يكتفي بالندم، بل يتعهّد إصلاحًا عمليًا.

إن مقتضى التوحيد في الهزيمة أن تكون الأولوية إصلاح الحال، وتحسس مواطن الضعف في النفس والجماعة، في الأسباب والخطط، أما الكبر والمعاندة فمصير فشل ومنهج أبتر!

وهذا يعني التحلل من المظالم وإرجاع الحقوق للناس وامتلاك الشجاعة على التصحيح لا المعاندة والتملص.

مقتضى "لا إله إلا الله" في الهزيمة يوجب توحيد الصف لا تفريقه. ويكون ذلك بسد النقص ومعالجة الخلل وإصلاح القلوب وتجديد النوايا والتأدب من الهزيمة، ولنا في معركة أحد أعظم مدرسة يجدر التعلم من أدبها في حال الهزيمة.

والهزيمة تكشف معدن القادة، هل يتحمَّلون مسؤولية الخطأ أم يرمون باللوم على الغير؟ ومقتضى التوحيد يدعو إلى مسؤولية قيادية، بالتواضع للحقيقة، والإصلاح، والاستشارة، ومحاسبة النفس قبل محاسبة الناس.

ولا شك أن الهزيمة تتطلب الصبر على تكاليفها وتبعاتها، والصبر على تعويضها وتداركها، والصبر من مقتضيات "لا إله إلا الله"، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: 146– 147).

قال السعدي في تفسير هذه الآية الجليلة: "ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم، فقال: (وما كان قولهم) – أي: في تلك المواطن الصعبة (إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا) والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة".

وهكذا يضع المجاهد الهزيمة بين عينه ويتقدم صابرًا متوكلًا على الله متأدبًا مستغفرًا تائبًا، يُعد نفسه من جديد لا ينهزم يقينه ولا جهاده أبدًا، فسيف استل لنصرة الله لا ينكسر! ولا يعرف الهزيمة، وهزيمة معركة هي لبنة في بناء قبة النصر في صراع تطول فصوله، ولا يفوز فيه إلا الأصبر والأكثر صدقًا.

إن الهزيمة في الصف الإسلامي فرصة للإحسان، بتولي الضعفاء والجرحى، ومواساة أهالي الشهداء والإنفاق عليهم وعلى الأيتام، والسعي في فكاك أسر العاني والأسير. والمسلمون يتواصون بالحق والصبر ويتواسون ويوادون بعضهم البعض في الهزائم والكربات. عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّىّ" رواه مسلم.

مقتضى "لا إله إلا الله" في الهزيمة أن نلجأ إلى خالقنا بالدعاء والاستغفار والرجاء. وسؤال الله تعالى التأييد والمعونة للثبات، فبعض الهزائم تغري القادة بالتنازلات والتبديل ونقض الغزل، وما أقبح أن ينقلب الجهاد عن غايته ويتحول لما يريده أعداؤه.

هزيمةٌ واحدة ليست نهاية الطريق إذا صَنَعَت منها الأمةُ درسًا ونيّتها خالصة لله تعالى، ومقتضيات "لا إله إلا الله" في الهزيمة توجب الاستدراك والإصلاح بدون تسويف أو تفلت. ولنا في سيرة النبي ﷺ وسير صحابته، الأمثلة القدوة والأهم!

مقتضيات "لا إله إلا الله" في النصر والتمكين

النصرُ والتمكينُ ابتلاءٌ كابتلاء الهزيمة، بل قد يكون أشدَّ خطرًا على القلوب. فكم من جماعةٍ امتحنها الله بالتمكين فانقلبت عليها النعمة نقمةً، لأنها لم تفهم مقتضى الشهادة العظمى: لا إله إلا الله.

فالنصر في المفهوم الإيماني ليس مجرّد غلبةٍ عسكريةٍ أو سياسية، بل هو قيامٌ بحقّ الله في الأرض، وإقامة لشرعه وعدله، وصيانة لتوحيده في الحكم والعبادة والسلوك.

أول مقتضى من مقتضيات "لا إله إلا الله" في النصر هو الاعتراف بأن النصر من عند الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 10).

فمن نَسب النصر إلى نفسه أو خططه أو ذكائه، فقد خالف مقتضى التوحيد، وأشرك في النعمة من لا يملك ضرًّا ولا نفعًا. والشكر هنا ليس بالكلمات فقط، بل بالسلوك الذي يتضمن تواضع القادة بعد النصر. وردّ الحقوق إلى أهلها. وتوجيه الشكر العملي بإصلاح ما أفسدته الحرب.

وفي النصر والتمكين كما في الهزيمة، يجب إخلاص الدين لله تعالى وتجديد النيّة، ففي جو النصر ترتفع أصوات المدائح والثناء والإعجاب بالرموز والقادة والأبطال، وهنا يُختبر القلب هل تغريه كل هذه التصفيقات والتبجيل لذاته، هل كان عمله لله يرجو القبول أم للمكانة والمجد؟ وأكثر ما كان يخشاه الصحابة ﷺ أن تفتح عليهم الدنيا، فتنسيهم حقيقة أنفسهم وغاياتهم وتشغلهم بزخرفها وغرورها. لذلك نجد في وصاياهم وآثارهم التواصي بمقتضيات "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" ﷺ.

مقتضى "لا إله إلا الله" عند النصر والتمكين هو أن يبقى الهدف عبادة الله وإقامة دينه لا تمجيد الذات أو الحزب أو الراية. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 162).

وهذا يعني أن النصر والتمكين يوجب إقامة العدل وشريعة الله تعالى في الأرض، قال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الحج: 41).

قال السعدي في تفسير هذه الآية الجليلة: "ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) – أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، (أَقَامُوا الصَّلَاةَ) في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات. (وَآتُوا الزَّكَاةَ) التي عليهم خصوصا، وعلى رعيتهم عموما، آتوها أهلها، الذين هم أهلها، (وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوف) وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا، من حقوق الله، وحقوق الآدميين، (وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) كل منكر شرعا وعقلا، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعا، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) – أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة".

فمقتضى التوحيد بعد النصر هو إقامة حكم الله تعالى، وتطبيق شرعه بعدلٍ ورحمةٍ لا بطغيانٍ أو انتقام. والعدل هو امتحان التمكين، وهو الدليل الصادق للاستقامة كما أمر الله تعالى.

فالنصر قد يورث في النفوس كبرياءً وغرورًا، وهنا مكمن الخطر. فمقتضى "لا إله إلا الله" أن تدرك أنك عبدٌ مهما بلغت، وأن الله قادرٌ أن يُبدّل النصر هزيمةً متى شاء. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: 140).

والتواضع زينة القائد. والترفّع عن الخصومة خُلُق المنتصر. والعفوُ في مقامه، مقام إنابةً لله لا ضعف.

كثير من الأمم بعد نصرها تفشل في الاختبار الداخلي، تتنازع، وتتنافس على الغنائم والمناصب، فيتسلّل الشيطان من ثغرة الجشع والأنانية. ومقتضى "لا إله إلا الله" أن يبقى الولاء لله ولدينه لا لحظوظ نفس ودنيا وأصنام. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: 46).

مقتضى "لا إله إلا الله" في النصر، الاستمرار في العمل بعد النصر حتى يكون الدين كله لله ولا تكون فتنة. فالنصر الحقيقي ليس نهاية الطريق، بل بدايته. قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: 7–8).

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزّ بغيره أذلّنا الله"[11]. فالتمكين الحقيقي هو بتمكين الدين في القلوب قبل الأرض. ومن غفل عن عظم الغاية نال منه أعداؤه ساعة غفلته.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في النصر والتمكين، مراقبة النفس واستمرار التزكية، فالهزيمة تصنع الانكسار، لكن النصر قد يكسوه الغفلة والغرور! ولذلك يجب أن يكون المنتصر أكثر خضوعًا وخشوعًا، وأكثر حرصًا على دوام الطاعة.
فلا ينشغل بالسياسة عن العبادة ولا بالجماهير عن ميادين العمل وإقامة فرائض الدين، ولا بإرضاء المتزلفين عن تحكيم شريعة الله في الأرض، وهذا يوجب الإعداد وجمع أسباب القوة، فالصراع تطول فصوله وأعداء الله يتربصون.

وكل تمكينٍ بلا تزكية للقلب يتحوّل إلى فتنة. ولا قيمة لذكاء عقل بلا زكاء قلب!

وإن كانت الدعوة إلى الله لا تعرف وقت قوة أو ضعف، فإنها وقت التمكين هي في أوجب مقامات العمل لها، فمن مقتضى التمكين أن تُستثمر القوة في الدعوة لله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتأمن المجتمعات ويحكم شرع الله. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: 125).

---

[11] المستدرك على الصحيحين.

إن مقتضيات "لا إله إلا الله" في النصر والتمكين ليست مجرد كلمات تُقال، بل شريعة الله تُقام، وكما أن الهزيمة تمتحن الصبر والإيمان، فإن النصر يمتحن الإخلاص والوفاء. ومن حافظ على التوحيد في أيام القوة، فقد فاز بتمكين الله له في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (النور: 55).

مقتضيات "لا إله إلا الله" في الدعوة لله

المسلم في أي حال كان هو داعية لله تعالى، سواء كان ذلك بمجرد استقامته والتزامه بدين الله تعالى، فهو يحمل رسالة، وسواء كان مجاهدًا يدافع عن دينه ويرفع رايته.

وأول مقتضيات الدعوة لله، التوحيد الخالص والدعوة إليه بإفراد الله بالعبادة دون شريك. وإظهار التوحيد والتحذير من الشرك ومظاهره وما يؤدي إليه. وتعليم الناس معنى أن الله وحده المستحق للعبادة.

المطلوب من الداعية أن يكون قدوة عملية في عبادته لله واتباعه لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأول أمانة في هذه السبيل تعليم العقيدة الصحيحة كما جاء بها النبي ﷺ وتعلمها منه صحابته ﷺ، نجدها في إجماع الصحابة والسلف الصالح، لا في فلسفات أهل الرأي والبدع.

ومقتضيات التوحيد في الدعوة إلى "لا إله إلا الله" تقتضي تعليم الناس معانيها وحقوقها وواجباتها. ويشمل ذلك شرح مفاهيم الإيمان، والاعتقاد، والتمييز بين الحق والباطل. والتحذير مما ينقض الغزل ويخرج من الدين.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الدعوة تقديم القدوة خلقًا وسلوكًا، وفي التعاملات، ما يصنع الترغيب في الفضائل والتحذير من الموبقات. يحفها الصبر، والصدق، والعدل، والإحسان، وحسن الخلق مع الناس. وصدق النصح في الله، لترك المعاصي والذنوب التي تفرق بين الإنسان وربه.

والدعوة توجب حماية المجتمع من الانحراف الفكري والأخلاقي. وإصلاح الأفراد وبناء مجتمع قائم على القيم الإسلامية. وهي تسعى لبناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم والقوة المسلمة.

والدعوة توجب ثبات المواقف والمبادئ، والقدرة على إيفاء مقتضيات التوحيد في الدعوة مقامها من النصر والوفاء.

إن التصدر لمقام الدعوة بالانحرافات العقدية خطير، له تبعات وخسائر ممتدة، ولذلك يجب أن يستمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يعرف الصمت ولا التطفيف ولا

يجبن عن تقويم المتصدرين من النخب والقيادات والمشاهير، بل يجب أن يكون صريحا في نصحهم، لأن ضلالهم وخطأهم مكلف بشدة لكثرة أتباعهم.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" الاستمرار في الدعوة والصبر على المكاره ومخالفة أهواء الناس والأذية المرافقة لكل صدع بالحق وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ونصح في الله تعالى.

ولا ينتظر الداعية لله نتائج دعوته فورًا فإنما البيعة لله تعالى، فحتى إن لقي ربه قبل أن يرى شيئًا من ثمار سعيه فقد أعذر!

لقد مكث النبي ﷺ داعية لقومه 13 سنة في مكة بالصبر والحكمة قبل أن ينتقل إلى المدينة ويحقق النصر الأكبر لدعوة التوحيد.

إن الدعوة لله عملية لتغيير القلوب والمجتمعات، وإرساء قواعد الدين الحق في كل مكان وزمان. لكنها مهددة بعواصف الفتن! ولا ينجي من الفتن إلا فضل الله على عباده!

مقتضيات "لا إله إلا الله" في زمن الفتن

لا تستمر الحياة على نسق واحد، ضعف أو تمكين، هزيمة أو نصر، بل لا بد للفتن أن تتخلل الأيام لتكشف المستخفي حين يختلط الحق بالباطل!

فالفتن تأتي لتظهر معادن القلوب، وتكشف حقيقة الإيمان. وفي أزمنة الاضطراب والانقسام والضلال، تتبيّن مكانة "لا إله إلا الله" في واقع الناس لا في ألسنتهم.

فكلمة التوحيد ليست مجرد شعار يُرفع، بل ميزانٌ تُوزن به المواقف، وبوصلةٌ تهدي المؤمن وسط العواصف.

ومن أعظم ما يثبّت العبد في الفتن، إدراك مقتضيات هذه الكلمة العظيمة، ليعبد الله على بصيرة، ويقف الموقف الذي يرضيه سبحانه.

وكم من مجاهد بطل، فضحت انحرافه الفتنة، وكم من إمام بارز، كشفت ضلال قلبه الفتنة!

وأول مقتضى من مقتضيات لا إله إلا الله في الفتن هو الثبات، لأن الفتن تُزلزل القلوب وتشوّش البصائر. قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: 27).

الثبات يعني أن يبقى القلب مع الله، لا مع مشاعر الناس ولا مع العناوين البراقة. لا يتغير ولاؤه مع تغيّر القوى. ولا تهتز عقيدته إذا رأى الباطل منتفشًا. فالموحِّد لا يتقلب بتقلب الزمان، لأن إيمانه لا يعرف الارتياب.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الفتن، الاعتصام بالله والرجوع إليه، ففي زمن الفتن تضعف الثقة بالناس، ويكثر الضلال والاختلاف، حتى بين من كان بين الناس مكرما، وهنا يبرز مقتضى "لا إله إلا الله"، أن لا ملجأ إلا الله. قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات: 50).

وفي الواقع، إن التزود للثبات في الفتن يبدأ مبكرًا جدًا قبل وقت الفتن، ويكون بلزوم الإخلاص لله تعالى، وتجديد النوايا والتوبة، ولزوم الذكر والدعاء، وسؤال الله تعالى الثبات والتأييد والمعية.

والاعتصام بالله يكون بالعبادة، والرجوع إلى الوحي، والتمسك بالقرآن لا بالأهواء أو الإعلام أو الجماعات. ويكون بالترفع عن الظلم بشدة، وبلا خشية من أحد إلا الله تعالى.

في زمن الفتن يتطلب التمييز بين الحق والباطل الكثير من توفيق الله تعالى، فليس العلم والعاطفة ما يفصل في القضايا، بل توفيق رب العالمين الذي يمنّ على عباده بالهداية والبصيرة، والمحروم من خذل نفسه بظلم أو فتنة قلب!

قال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت الحسن يقول: "إن الفتنة إذا أقبلت عرفها العالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل".[12]

[12] أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٤) .

وأقول: عرفها العالم الموفق. وما أكثر سفهاء الفتن. وكثرة السفهاء فيها من أماراتها.

الفتن تُشبه الأمور وتختلط فيها المفاهيم ويصعب تفكيك المشاهد، قال النبي ﷺ:"تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه". صحيح الجامع.

ومقتضى التوحيد أن يكون ميزان العبد هو الحق الذي جاء من عند الله، لا العصبية ولا المصلحة. فالموحّد يزن الأمور بالوحي لا بالعواطف. بإخلاص الدين لربه وإن خالفه أقرب الناس إليه!

ومن جعل هواه إلهًا ضلّ، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: 23).

من مقتضيات "لا إله إلا الله" أن يبقى المسلم مع جماعة المؤمنين، لا يُعلي راية حزبه أو قومه فوق راية الدين. قال النبي ﷺ: "علَيكُم بالجماعةِ، وإيَّاكم والفُرقةَ"، صحيح الترمذي. والتمسك بالجماعة هنا لا يعني أن يبقى في جماعة تخالف أمر الله، بل أن يبقى على منهج النبوة، قال ابن مسعود ﷺ قال: "الجماعة ما وافق الحق؛ ولو كنت

وحدك"[13]. فما دمت على الحق وتقف في هذا المعسكر، الذي يعلي كلمة الله ولا يخلص دينه لغير الله على خطى السابقين الأولين، فأنت الجماعة ولو كنت وحدك.

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الفتن الصبر والتريث، والحذر من العجلة والتهور، فالفتن تدفع الناس إلى ردود فعل متسرعة، لكن مقتضى التوحيد أن يكون المؤمن صابرًا يخشى الظلم، يعلم أن الأمر بيد الله، ومع الصبر تستبين الأمور، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (النحل: 127).

ومن مقتضيات "لا إله إلا الله" في الفتن، الحذر من الشبهات والشهوات، والفتن نوعان: فتن الشبهات: تلبس الباطل لبوس الحق.
وفتن الشهوات: تغري القلب بالمعصية والرضا بها.

ومقتضى "لا إله إلا الله" أن يطهّر العبد قلبه من كليهما. فلا يُفتن بفكرٍ مبتدع ولا بشهوةٍ زائلة. والقلب الذي امتلأ بتوحيد الله خالصًا لا يجد في الفتنة مدخلًا، لأنه لا يقدم شيئًا على مرضاة ربه ﷻ.

[13] رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة:122/1- رقم160.

ومن مقتضيات التوحيد في الفتن، العدل والإنصاف وهو حلة الأشراف، وما أُقله في زماننا، إذ يظلم الناس بعضهم بعضًا، ويتكلمون بغير علم، ويخوضون مع الخائضين مستهينين بكل حق وأدنى حق، وهنا يظهر مقتضى التوحيد، أن يكون المؤمن عادلاً منصفًا لله لا للهوى.

قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ (المائدة: 8).

والعدل لا يتغيّر بتغيّر الأطراف، بل يبقى مبدأً، لأن الله هو المعبود وحده، لا الأشخاص ولا الجماعات.

ومن مقتضى "لا إله إلا الله" أن تظل الدعوة إلى الحق قائمة في الفتن، ولكن بحكمةٍ وعلم.

والفتن تكشف المخلص من المرائي، لأن كثيرين يعملون للدين ما دام فيه مصلحة، فإذا جاءت المحنة، انكشف زيف النية. ومقتضى "لا إله إلا الله" أن يبقى العمل لله خالصًا لا يتأثر بالمدح أو الذم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: 5).

ويبقى حزام الأمان في الفتن، الرجاء في الله واليوم الآخر، فالفتن تُولّد اليأس، لكن من مقتضى التوحيد ألا ييأس المؤمن، قال عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: 87).

فحين تضيق الأرض، يتسع الأمل بالله. والموحّد يعلم أن الفتن مهما عظمت فهي سحابة عابرة، وأن العاقبة للمتقين.

في زمن الفتن، يُمتحن معنى "لا إله إلا الله": هل نلجأ إلى الله وحده؟ هل نحكم بالوحي لا بالهوى؟ هل نصبر ونعدل ونثبت؟ والمؤمن كيّس فطن، لا يرضى لنفسه أن يكون إمعة، ويعلم أن الحق المطلق مع الله ورسوله ﷺ والباقي فميزان حق وعدل!

ومن عاش التوحيد في الفتنة، عاش محفوظًا في دينه وإن خسر دنياه، ومن نسي التوحيد، ضلّ وإن ظنّ نفسه على الحق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ (البقرة: 26).

الحياة لأجل التوحيد والسنة، عقيدة ومنهاجًا وغاية، هي الحياة الحقيقية وإن ابتلي فيها المؤمن بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

كل حياة لم تقم لأجل هذه الغاية الجليلة والهدف العظيم .. هدر!

فإن خسرت كل شيء في دنياك! إياك ثم إياك أن تحيد عن سبيل المؤمنين.

أَكْثَرُ ما ضَيَّعَ المُسلِمونَ في زَمانِنا، المُقْتَضى التَّشريعِي لِـ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه»، مُنْذُ اِنفَصَلَ نظام الحُكم عَنِ الشَّريعَةِ، وَأَضحَى تَنظيمُ حَياةِ النّاسِ مُرتَبِطًا بِالنُّظُمِ الغَربِيَّةِ وَالمُستورَدَةِ، وَتَحَوَّلَتِ الشَّريعَةُ لِمُجَرَّدِ رَأيٍ اِختِياريٍّ غَيرِ مُلزِمٍ.

مَعَ أَنَّ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه» تُقَدِّمُ دُستورَ حَياةٍ كامِلٍ، قَدِ اكتَمَلَ وَاستَوفَى حَاجيّاتِ البَشَرِيَّةِ إِلى يَومِ القِيامَةِ.

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل: ٣٥).

لقَدْ قَدَّمَت «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه» عِلاجًا لِلانحِرافاتِ العَقَدِيَّةِ، بِتَرسِيخِ التَّوحِيدِ لِلَّهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَحْرِيمِ العِبادَةِ لِغَيرِ اللهِ تَعالى، وَتَحْرِيمِ التَّحلِيلِ وَالتَّحرِيمِ مِن دُونِ اللهِ تَعالى، وَهَذا يَعني أَنَّ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه» تَقتَضِي التَّوحِيدَ وَالتَّشريعَ مَعًا، لَا يَنفَصِلُ هَذا عَن ذاكَ، أما اليَومَ فيُصَلِّي النّاسُ لله وَيَحتَكِمُونَ لِغَيرِ شَرِيعَةِ اللهِ!

إِنَّ التَّحاكُمَ إِلى شَرِيعَةِ اللهِ وَحدَها دُونَ كُلِّ الشَّرائِعِ مِنَ المُقتَضَياتِ الرَّئِيسِيَّةِ لِـ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه»، وَأَيُّ نَقضٍ أَوْ تَقصِيرٍ أَو تَهمِيشٍ لِهَذا التَّحاكُمِ هُوَ نَقضٌ وَنَقصٌ وَتَهمِيشٌ لِـ "لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه".

وَالمُتَأَمِّلُ فِي تَارِيخِ العالَمِ الإِسلامِيِّ يَجِد أَنَّ مَفهومَ التَّحاكُمِ إِلى شَرِيعَةِ اللهِ كانَ راسِخًا وَواضِحًا جَلِيًّا لَا يَعرِفُ مُنازَعَةً وَلَا خِلافًا. وَلَكِن مُنذُ تَسَلَّلَتِ الأَفكارُ الغَربِيَّةُ وَسَرَى مَفعولُ الغَزْوِ الفِكرِيِّ فِي العُقولِ. بَدَأَ مَسارُ الانحِرافِ عَن «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّه» الَّذِي أَوصَلَنا اليَومَ إِلى تَبَنِّي الدِّيمُقْراطِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ، وَالتَّحاكُمِ لِلدُّستورِ الوَضعِيِّ القاصِرِ.

لَقَدِ استَمَرَّ خَطُّ الانحِرافِ مَعَ تَضَخُّمِ مَنظُومَةِ الهَيمَنَةِ وَتَمَكُّنِها مِنَ العالَمِ الإِسلامِيِّ، حَتّى أَضحَتِ الشَّرِيعَةُ شَيئًا مِنَ الماضِي وَالمُستَحِيلِ، وَالحَديثُ عَنها ضَربٌ مِنَ الإِرهابِ وَالتَّشَدُّدِ، إِن لَم يَكُنِ الجُنُونَ!

لَقَد سَرَتِ العَلمانِيَّةُ بَينَ المُسلِمِينَ حَتّى أَضحَى مَفهومُ الشَّرِيعَةِ لَدَيهِم باطِلًا وَسَبَبَ هَزِيمَةٍ وَتَخَلُّفٍ، وَتَخَلَّوا بِذَلِكَ عَن سِرِّ سِيادَةٍ وَعِزَّةٍ فِي الأَرضِ، وَظَلُّوا المُستَعبَدِينَ لِلكافِرِينَ.

وَالمُتَأَمِّلُ فِي الجِنسِ البَشَرِيِّ المُتَقَدِّمِ، بِرَبطَةِ عُنُقٍ وَبَدلَةٍ تَلمَع، يَجِدهُمْ يَحتَجُّونَ عَلَى تَعطِيلِ الشَّرِيعَةِ بِكَونِها لَا تُلائِمُ واقِعَنا المُتَطَوِّرَ اليَومَ، وَلَا تَفِي لِاحتِياجاتِ العَصرِ!

وَيَدَّعُونَ أَنَّها تَختَلِفُ عَنِ الواقِعِ الَّذِي نَزَلَت لَهُ قَبلَ أَربَعَةَ عَشَرَ قَرنًا، فَإِمَّا أَن نُعَطِّلَ هذِهِ الشَّريعَةَ أَو نُبَدِّلَها بِما يُناسِبُ أَهواءَنا.

وَتَرَبَّت أَجْيالٌ كَبِيرَةٌ عَلَى هذِهِ الفريَةِ وَهذَا الضَّلالِ المُبِينِ، وَتَعَقَّدَت أَزَماتُنا الفِكرِيَّةُ وَتَخَلُّفُنا العَقَدِيُّ وَالأَخلاقِيُّ. فَكُلُّهُ مُرتَبِطٌ بِسُلطانِ الشَّريعَةِ، فَإِن هُوَ ذَهَبَ، ذَهَبَت مَعَهُ وَتَلاشَت، إِلَّا في نَماذِجَ فَردِيَّةٍ لَا تَملِكُ قُدرَةَ السُّلطانِ عَلَى التَّغيِيرِ.

وَرَبَطَ الأَفاكُونَ تَخَلُّفَ العالَمِ الإِسلامِيِّ العَسكَرِيِّ وَالعِلمِيِّ وَالاقتِصادِيِّ وَالتِّقَنِيِّ بِنَظرَةٍ دُونِيَّةٍ لِلشَّريعَةِ، وَكَأَنَّ الشَّريعَةَ تَمنَعُ القُوَّةَ، وَتَمنَعُ عَوامِلَ السِّيادَةِ المادِّيَّةِ؟ وَهُوَ دِينٌ يَقُومُ عَلَى الإِعدادِ وَالسَّعيِ لِمَعالِي الأُمُورِ وَالسِّيادَةِ في الأَرْضِ.

بَل أَضحَت القُوَّةُ المادِّيَّةُ الغَربِيَّةُ في مَيادينِ الحَربِ وَالعِلمِ وَالتِّقنِيَةِ، هِيَ سَبَبَ الِانهِزامِيَّةِ العَمياءِ لِلغَربِ الكافِرِ، وهي التيَ تَمنَعُ صَفاءَ الرُّؤيَةِ وَسلامة العَقلِ، فلَا يَتَقَبَّلُ نَقدًا لِعُيوبِ الغَربِ وَلا انحِطاطِهِ.

يُصَوِّرُ العَلمانِيُّونَ التَّفَوُّقَ المادِّيَّ الغَربِيَّ كَمُحَصِّلَةٍ لِمَنهَجِيَّةِ الانفِصالِ عَنِ الدِّينِ الَّتِي اعتَنَقَتها أُورُوبَّا في زَمَنٍ مَضَى، لَكِن في الحَقِيقَةِ أُورُوبَّا اِنحَطَّت عَقَدِيًّا وَأَخلاقِيًّا، وَلَم يَعُد لَها مِقياسٌ قَيِّمٌ يُستَندُ إِلَيْهِ، فَلَا عَجَبَ إِن ارْتَفَعَت فِيهَا أَصوَاتُ الشُّذُوذِ وَالحَربِ عَلَى الفِطرَةِ وَالابتِزازِ لِإِخضاعِ النّاسِ لِهٰذَا الفَسادِ العَظِيمِ.

وَاليَومَ أُورُوبَّا وَأَمرِيكَا أَكثَرُ مَن يَدعمُ كِيانَ الِاحتِلالِ اليَهُودِيِّ، عَلَى الرَّغمِ مِن طُغيانِهِ وَإِجرامِهِ، وَسَقَطَت كُلُّ شِعاراتٍ إِنسانِيَّةٍ وَحُقوق إِنسانٍ.

فَماذا قَدَّمَ التَّفَوُّقُ المادِّيُّ لِلغربيين، رَفاهِيَةٌ زائِلَةٌ، وَجَرائِمُ حَربٍ شَنيعَةٌ، ثُمَّ نِهايَةٌ بائِسَةٌ لِلفَرْدِ المُستَنزَفِ بِفَواتِيرِ الرَّأسَمالِيَّةِ!

وَالمُسلِمُونَ اليَومَ بَينَ مِطرَقَةٍ وَسِندانٍ، مِطرَقَةِ الهَيمَنَةِ الغَربِيَّةِ وَسِندانِ الِانهِزامِ لِلثَّقافَةِ الغَربِيَّةِ، وَتِلكَ هَزِيمَةٌ مُزدَوَجَةٌ مُحَقَّقَةٌ.

إِنَّ قَضِيَّةَ التَّشرِيعِ قَضِيَّةٌ ذاتُ صِلَةٍ مُباشِرَةٍ بِقَضِيَّةِ الأُلُوهِيَّةِ. قالَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

فَكَيْفَ تَتَحَقَّقُ عُبُودِيَّةٌ لِلَّهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ بِمُجَرَّدِ أَداءِ العِباداتِ الفَرْدِيَّةِ دُونَ التَّحاكُمِ لِأَمْرِ اللهِ تَعالى وَشَرِيعَتِهِ؟

كَيْفَ يُمْكِنُ لِمَن لَا يَستَغنِي عَنِ اللهِ تَعالى في أَصغَرِ الأُمُورِ، أَن يُنازِعَ خالِقَهُ في الحُكمِ بِشَرِيعَتِهِ؟ وَيُنازِعَهُ حَقًّا مِن حُقوقِهِ الخالِصَةِ، جَلَّ وَعَلَا؟

وَأَيُّ تَقدِيرٍ لِلَّهِ تَعالى سَيَكُونُ، إِن كانَتِ العُبُودِيَّةُ لَهُ لَا تَتَجاوَزُ مِساحَةَ البَيتِ وَالمَسجِدِ وَتَعامُلاتِ الحَيِّ؟ بَينَما قَضايا التَّشرِيعِ الكُبرى، يُهَمَّشُ فِيهَا أَمرُهُ وَيُنازَعُ فِيهَا حَقُّهُ؟ عَزَّ وَجَلَّ.

وَهَل يُعقَلُ أَن يَكُونَ دِينُ اللهِ تَعالى مُختَزَلًا في عِبادَةٍ فَردِيَّةٍ أَو مِساحَةٍ أَخلاقِيَّةٍ؟ وأمور التشريع الكبرى يقررها البشر؟ كَيفَ وَهُوَ تَشرِيعٌ إِلٰهِيٌّ وُضِعَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَعالى وَلَا تَكُون فِتنَةٌ. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٧).

إِن كـانَ التَّحلِيـلُ وَالتَّحـرِيمُ في أُمُـورِ الحَيـاةِ وَالعِبـاداتِ اليَومِيَّـةِ فِيـهِ المَصـلَحَةُ المُطلَقَـةُ لِلمُسـلِمِ وَالمُسـلِمَةِ، فَكَيـفَ بِحُكـمِ نِظـامِ حَيـاةِ الأُمَّـةِ المُسـلِمَةِ بِشَـرِيعَةِ اللهِ تَعـالى، ثُمَّ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الِاستِجابَةِ لِأَمرِ اللهِ تَعالى في سياسة الدول والحكومات؟

فَاليَومَ نَجِدُ بَرلَماناتٍ دِيمُقراطِيَّة تُناقِشُ قَضايا شَديدَةَ الوُضُوحِ في شَرِيعَةِ رَبِّنا، لِتَأخُذَها مَأخَذَ الرَّأيِ وَتُهَمِّشَها بِسُلطَةِ قانُونٍ بَشَرِيٍّ قاصِرٍ، بَل وَتَنتَقِدها بِقُصورِ عَقلٍ وَخَيبَةِ عَقْلٍ.

وَانقَلَبَ حالُ هؤُلاءِ المُشَرِّعِينَ إِلى تَحلِيلِ ما حَرَّمَ اللهُ وَتَحرِيمِ ما أَحَلَّ اللهُ تَعالى، فَكانَ حالُهُمْ كَأَربابٍ يُعبَدُونَ مِن دُونِ اللهِ تَعالى. قالَ اللهُ تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبهُمُ الذُّبَابُ شَيئًا لَّا يَستَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)

وَمَن يَعرِفُ مَصلَحَةَ العِبادِ غَيرَ خالِقِهِمْ؟ بِحِكْمَتِهِ وَتَدبِيرِهِ سُبحانَهُ وَتَعالى يُحِيطُهُم بِأَلطافِهِ وَرَحمَتِهِ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٠).

وقال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وَكَأَنَّ بِهَؤُلاءِ يَقُولُونَ: لَسنَا بِحاجَةٍ إِلى شَرِيعَةِ اللهِ تَعالى، ثُمَّ رَأَيْنا ما فَعَلُوهُ بِالأُمَّةِ مِن ضَياعِ دِينٍ وَخُلُقٍ وَهَيبَةٍ وَسِيادَةٍ، بَل لَم يَجلِبُوا لِلمُسلِمِينَ إِلَّا الذِّلَّةَ وَالتَّبَعِيَّةَ وَالخُنوع.

يُرهِبُهُمْ قَطعُ يَدِ السّارِقِ وَيَعتَبِرُونَهُ تَشَدُّدًا، لَكِن لَا يُحَرِّكُ ضَمائِرَهُم تَدمِيرُ مَدِينَةٍ كامِلَةٍ وتسطير المجازر بالقصف والتهجير أَمامَ أَعيُنِ البَشَرِ.

وَهَكَذا يَحِقُّ لِلدُّوَلِ الكُبرى وَأَصحابِ الفِيتُو أَن يَعِيثُوا فِي الأَرْضِ فَسادًا وَيُخضِعُوا العالَمَ لَهُمْ بِقُوَّةِ تِرسانَتِهِمُ الوَحشِيَّةِ، لَكِن أَن نُخْضِعَ نَحنُ هؤُلاءِ جَمِيعًا لِشَرِيعَةِ اللهِ تَعالى فَهٰذِهِ مَسْأَلَةٌ مُتَخَلِّفَةٌ وَلَا تَلِيقُ بِحَدِيثِ السّاعَةِ!

فسبحان الله، كَيْفَ يُمكِنُ لِأَحَدٍ أَن يَجرُؤَ عَلَى الدِّفاعِ عَن نُظُمٍ غَربِيَّةٍ لَمْ تُقَدِّم لَنا إِلَّا الِاحتِلالَ وَالهَيمَنَةَ وَشَرعَنَةَ الفَسادِ فِي الأَرضِ وَالعِصيانِ لِلهِ تَعالى؟ ثم يعيب بل يحارب المطالبة بحكم الشريعة التي فيها الاستقلالية والإصلاح والاستقامة كما أمر الله تعالى!

إِنَّ قَضِيَّةَ التَّحاكُمِ لِشَرِيعَةِ اللهِ تَعالى وَالعَيْشَ تَحتَ أَحكامِ هٰذِهِ الشَّرِيعَةِ وَأَوامِرِ اللهِ تَعالى فِي الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ وَالجَيشِ وَالدَّولَةِ، فِي السِّلْمِ وَالحَربِ، هِيَ مُرتَبِطَةٌ بِشَكلٍ وَطِيدٍ بِقَضِيَّةِ الأُلُوهِيَّةِ، فَاللهُ تَعالى هُوَ الحاكِمُ سُبحانَهُ فِي كُلِّ الكَونِ. قال عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ

مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠-١٣).

وَاليَومَ نَحْنُ نَعِيشُ فِي حِقبَةٍ يصفها قول الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (الشورى: 21).

نَعِيشُ فِي حِقبَةٍ يصفها قوله عز وجل: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: 50).

لَقَد حَكَمَتِ الجَاهِلِيَّةُ العُقُولَ وَالْأَذوَاقَ وَتَفَاصِيلَ حَيَاةِ النَّاسِ، بِسُلطَةِ القَانُونِ وَالدَّولَةِ، فَكَيفَ بَعدَ ذَلِكَ نَتَحَدَّثُ عَن تَحْقِيقِ مَفهُومِ العُبُودِيَّةِ لِلَّهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ؟

المُسلِمُ اليَومَ لَا خِيَارَ لَهُ: إِمَّا أَن يَحتَكِمَ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَو يَحتَكِمَ لِجَاهِلِيَّاتِ البَشَرِ. وَلَا يُمكِنُ أَن تُوفِيَ هَذِهِ الأُمَّةُ لِـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» حَقَّهَا كَامِلًا، دُونَ أَن تُعِيدَ الشَّرِيعَةَ لِلحُكمِ؛ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَم تَكُن مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُنطَقُ بِاللِّسَانِ، بَل كَانَت ثَورَة عَقَدِيَّة وَأَخلَاقِيَّةً وَتَشرِيعِيَّةً عَلَى كُلِّ أَشكَالِ الطُّغيَانِ وَالعُبُودِيَّةِ لِغَيرِ اللَّهِ تَعَالَى.

لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ إِقرَارٍ بِوُجُودِ الخَالِقِ، بَل إِعلَانُ تَحَرُّرٍ مِن كُلِّ سُلطَةٍ لَا تَستَمِدُّ شَرعِيَّتَهَا مِن أَمرِ اللَّهِ، وَمِن كُلِّ منظومة تُنَازِعُ أَمرَهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَلَكِن مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ، تَحَوَّلَت هَذِهِ الكَلِمَةُ عِندَ كَثِيرٍ مِنَ المُسلِمِينَ إِلَى شِعَارٍ يُتلَى بِاللِّسَانِ، لَا حَقِيقَة تُقَامُ فِي الْأَرْضِ.

نعم، قد نُطِقَت فِي الْأَذَانِ وَعَلَى المَنَابِرِ، وَلَكِنَّهَا غَابَت عَن مَيَادِينِ التَّشرِيعِ وَالحُكمِ وَالمُعَامَلَةِ.

المُقتَضَى التَّشْرِيعِيُّ لِـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يَعنِي أَنَّ الحَاكِمِيَّةَ لِلَّهِ وَحدَهُ، وَأَنَّ مَصدَرَ القَوَانِينِ وَالأَحكَامِ يَجِبُ أَن يَكُونَ مِن وَحيِهِ سُبحَانَهُ. فَكَمَا أَنَّهُ لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ، كَذَلِكَ لَا مُشَرِّعَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ.

لَكِنَّ الْمُسلِمِينَ، لَمَّا ابتَعَدُوا عَنِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَصَلُوا بَينَ العَقِيدَةِ وَالتَّشرِيعِ، وَجَعَلُوا الدِّينَ مُجَرَّدَ عِلَاقَةٍ رُوحِيَّةٍ، بَينَمَا التَّشرِيعُ أَخَذُوهُ مِنَ الشَّرقِ وَالغَربِ.

قَالُوا "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" بِأَلسِنَتِهِمْ، ثُمَّ استَمَدُّوا أَنظِمَتَهُمْ وَقَوَانِينَهُم مِنَ البَشَرِ، فَخَالَفُوا مُقتَضَاهَا مِن حَيثُ لَا يَشعُرُونَ.

لَقَد ضَاعَ المُقتَضَى التَّشْرِيعِيُّ حِينَ استُبدِلَت شَرِيعَةُ اللَّهِ بِقَوَانِينِ وَضعِيَّةٍ، وَحِينَ صَارَ الحَلَالُ وَالْحَرَامُ يُحَدَّدَانِ بِقَرَارَاتٍ بَرْلَمَانِيَّةٍ لَا بِنُصُوصٍ رَبَّانِيَّةٍ، وَحِينَ أُقصِيَ الدِّينُ عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ الْيَوْمِيَّةِ، عَنِ الِاقتِصَادِ وَالسِّيَاسَةِ وَالتَّعلِيمِ وَالإِعلَامِ وكل ميدان قيادة وريادة.

وَضَاعَ أَيضًا حِينَ فُهِمَت "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" عَلَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ نَفيٍ لِلأَصنَامِ القَدِيمَةِ، لَا نَفيٌ لِكُلِّ طَاغُوتٍ حَدِيثٍ يَتَأَلَّهُ فِي الْأَرضِ بِاسمِ الفِكرِ أَوِ الحُرِّيَّةِ أَوِ المَصلَحَةِ.

إِنَّهَا لَيْسَت كَلِمَةَ تَوْحِيدٍ ترددها الألسن فحسب، بَل كَلِمَةُ تَوْجِيهٍ وَتَشرِيعٍ، مَعنَاهَا: لَا يُعبَدُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يُطَاعُ فِي أَمرٍ وَنَهيٍ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُتَحَاكَمُ إِلَّا إِلَى شَرْعِهِ.
وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (يوسف: 40).
فَكُلُّ مَن جَعَلَ لِغَيرِ اللَّهِ سُلطَانًا يُشَرِّعُ أَوْ يُحَلِّلُ أَوْ يُحَرِّمُ، فَقَد عَطَّلَ مُقتَضَى هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ.

وَالعَودَةُ إِلَى مُقْتَضَاهَا لَيسَتْ بِالهُتَافِ وَلَا بِالشِّعَارَاتِ، بَل بِإِقَامَةِ الدِّينِ فِي وَاقِعِ النَّاسِ، وَرَدِّ الأَمرِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﷺ، وَتَحكِيمِ الوَحيِ فِي الحَيَاةِ كُلِّهَا.
فَحِينَئِذٍ فَقَطْ، تَعُودُ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" إِلَى مَعنَاهَا الأَوَّلِ الَّذِي أَقَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّةَ العَدْلِ وَالنُّورِ، لَا شِعَارًا يُتلَى لرفع العتب، بَل مَنهَجًا يُطَبَّقُ بصدق السعي والطلب.

لَن نُحَقِّقَ مُقْتَضَيَاتِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» التَّشرِيعِيَّةَ حَتَّى نَضَعَ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ وَحُكْمَ الْبَشَرِ بَعضِهِم لِبَعْضٍ تَحْتَ أَقْدَامِنَا، فَلَا عُبُودِيَّةَ إِلَّا لِلَّهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا لِنِظَامٍ دُوَلِيٍّ كَبِيرٍ، وَلَا لِحُكُومَةٍ دِيمُقرَاطِيَّةٍ أَو مَدَنِيَّةٍ شِرْكِيَّةٍ.

لَن نُعِيدَ لِلْإِسلَامِ هَيبَتَهُ فِي حَيَاتِنَا حَتَّى نَنبِذَ كُلَّ حُكمٍ بِغَيرِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَنُعلِنَ بِلَا تَرَدُّدٍ أَو مُدَارَاةٍ أَنَّهُ حُكمُ جَاهِلِيَّةٍ، أَيًّا كَانَ مَصدَرُهُ، وَأَيًّا كَانَت صُورَتُهُ وَمُحتَوَيَاتُهُ، هُوَ تَحتَ أَقْدَامِنَا كَمَا عَلَّمَنَا نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم.

وَمَا لَمْ يَلتَزِمِ النَّاسُ بِشَرعِ اللَّهِ، فَأَذعَنُوا لِتَشْرِيعَاتِ البَشَرِ، سَوَاءٌ كَانَ المُشَرِّعُ فَردًا، أَو جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ، أَوْ مَجمُوعَ النَّاسِ كُلِّهِم، فَهُم تَحتَ حُكمِ جَاهِلِيَّةٍ، وَلَو تَضَمَّنَ حُكمُهُم احتِرَامَ شَرِيعَةِ اللَّهِ لِمَن يُرِيدُهَا.

لَقَدِ اكتَمَلَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَنقُصُ شَرِيعَةَ رَبِّنَا شَيءٌ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3).

قَالَ عمر ﷺ: "قَدْ عَرَفنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ". رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

فَلَا عُذرَ لِأَحَدٍ، لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ الرَّبَّانِيَّةَ قَد أَحَاطَت بِكُلِّ جَوَانِبِ الحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ، وَشَمِلَت كُلَّ مُتَطَلَّبَاتِ الْإِنسَانِ فِي حَيَاتِهِ عَلَى الْأَرْضِ.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: 44)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المائدة: 45)، وقال جل في علاه: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (المائدة: 47).

لقد ارتبط التخلف عن الحكم بما أنزل الله بحكم شرعي صريح وواضح، إنها مخالفة لأمر الله تعالى وانحراف عن سبيله.

والشَّرِيعَةُ تُقَدِّمُ مَنظُومَةَ حُكْمٍ تَقُومُ عَلَى ثَوَابِتَ لَا تَتَغَيَّرُ، وَلَا يَجُوزُ تَغيِيرُهَا، كَمَا تُجِيزُ لِلْمُؤْمِنِ، الْمُلتَزِمِ بِمُقتَضَيَاتِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، الِاجتِهَادَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْمُستَجَدَّاتِ بِنَاءً عَلَى مَرجِعِيَّةِ الْأَحكَامِ الثَّابِتَةِ، لِيَبقَى كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ المَرجِعِيَّةَ الأُولَى لَا تَبدِيلَ لَهَا.

وَالِاجتِهَادُ هُوَ الأَدَاةُ الصَّادِقَةُ لِلتَّوفِيقِ الدَّائِمِ بَينَ الثَّابِتِ وَالْمُتَغَيِّرِ فِي حَيَاةِ الْمُسلِمِينَ، لِتَحفَظَ حَيَاتَهُمْ فِي إِطَارِ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، لَا تُخَالِفُهَا أَبَدًا، وَإِن وَسِعَت اجْتِهَادَاتٍ مُتَخَالِفَةً، ومَن عَانَدَهَا خَابَ وَخَسِرَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 32–33).

إِنَّ أَخبَثَ مَا يُرَوِّجُ لَهُ دُعَاةُ التَّشرِيعَاتِ البَشَرِيَّةِ وَتَهمِيشِ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، هُوَ تَعطِيلُ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُم يَنفُونَ عَن اللَّهِ صِفَاتِ العِلمِ وَالحِكمَةِ، صِفَةَ الخَبِيرِ وَالبَصِيرِ، وَهُم يُرَدِّدُونَ بِخُبْثٍ: إِنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تُوَائِمُ عَصْرَنَا.

وَهَذَا مَحضُ افتِرَاءٍ وَكَذِبٍ، فَقَد حَارَبُوا الشَّرِيعَةَ وَلَمْ يَكتَفُوا بِتَهمِيشِهَا، وَلَو أَنَّهُمْ تَرَكُوا لَهَا فُرْصَةً لِلْحُكمِ لَفَضَحَتْ خَوَارَ تَنظِيرَاتِهِم، وَكَشَفَت بَاطِلَ ادِّعَاءَاتِهِم وَاتِّهَامَاتِهِمُ المُجحِفَةَ الظَّالِمَةَ.

يَعيشُ المسلمون في مجتمعاتٍ تُبيحُ الرِّبا بل تَفرِضُه، وهو مُحرَّمٌ في شريعةِ الله، يَعيشون في مجتمعاتٍ تَعتبِرُ الانحلالَ حُرِّيَّاتٍ، والفاحشةَ لا تَستوجِبُ حَدًّا ولا ضَبطًا، ثمَّ يَدَّعون أنَّهم يَعيشون في مجتمعٍ مُسلِمٍ وبلادٍ مُسلِمةٍ! بينما مَعصيةُ الله تعالى ومُخالَفةُ أمرِه تَتمُّ بالسُّلطةِ والقانونِ.

لِنَتأمَّلْ لِلحظةٍ مجتمعاتٍ تُطبِّقُ فيها حدودَ الشريعةِ، فتحكم "لا إله إلا الله" كل نواحي الحياة وتطبق الأحكام لتحقيق العدالة، وتسود مَنظومةُ حلالٍ تَحفَظُ حقوقَ الناس، ومَنظومةُ حِسبةٍ تَمنَعُ الظُّلمَ والطُّغيان، ومَنظوماتُ اقتصادٍ وسياسةٍ وتربيةٍ وإعلامٍ، وكلُّ ما تَقومُ به حياةُ الناسِ مُهذَّبةٌ بشريعةِ الله تعالى، كم ستُصبِحُ حياةُ الناسِ آمنةً؟ وهل يَصلُحُ للبشرِ غيرُ شريعةِ ربِّهم؟! ومع ذلك يُهمِّشونَها!

وكيفَ للشريعةِ أن تُهَمَّشَ، وهي حياةُ الفردِ والأمَّةِ!
ثمَّ ماذا قدَّمَتِ النُّظُمُ الغربيَّةُ؟ غيرُ مزيدٍ من الفسادِ والتَّحايُلِ والالتفافِ، حتى في طُرُقِ اختيارِهم للرئيسِ تُستَخدَمُ الحِيلُ والكذبُ والدِّعايةُ الإعلاميَّةُ المُضلِّلةُ، وكلُّ ما يُخدَعُ به الناسُ. ثمَّ يُسجَنُ اللِّصُّ الصغيرُ، ويُكرَّمُ الطاغوتُ الفاسدُ الكبيرُ!

لِماذا يجبُ إعادةُ الشرعيةِ للشريعةِ الرَّبانيةِ؟

يجبُ أن تحكمَ الشريعةُ لأنها رَبانيةٌ، وليست من صُنع البشر، ولا أفضلَ من وحيِ اللهِ تعالى الذي خلقَ الإنسانَ وأدرى بما يُصلحه. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: 14).

فالشريعةُ حُكمٌ إلهيٌّ خالٍ من الأهواءِ والظلمِ والمصالحِ الشخصيةِ، كما أنّها تتّسمُ بشُمولٍ وتنظيمٍ عظيمٍ؛ فهي تُنظِّمُ علاقةَ الإنسانِ بربّه، وبنفسِه، وبالناسِ، وبالمجتمعِ، وبالبيئةِ، وبالدولةِ. ولا تُقصي جانبًا من جوانبِ الحياةِ عن توجيهِها، بل تتكاملُ جميعُها معًا في صناعةِ الأمنِ والأمانِ، والقوّةِ والازدهارِ.

وبفضلِ ما تُحقّقُه الشريعةُ من توازنٍ بين الروحِ والجسدِ، وبين الفردِ والمجتمعِ، وبين الدنيا والآخرةِ، تُصانُ الحقوقُ والاحتياجاتُ الماديةُ والنفسيةُ، ويُؤتى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه. ولذلك، حتى ينعَمَ الناسُ ببركاتِها، يجبُ أن يُطبّقوها كاملةً، دون اجتزاءٍ أو تطفيفٍ، لأنها كُلٌّ متكاملٌ.

يتميّزُ حُكمُ الشريعةِ بعدالتهِ المطلقةِ، لأنه يقومُ على ميزانِ العدلِ الإلهيِّ الذي لا يَظلِمُ أحدًا. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 90).

ويتميّزُ حكمُ الشريعةِ بثباتِ المبادئِ ومرونةِ التطبيقِ؛ فمقاصدُ الشريعةِ وأصولُها ثابتةٌ، ووسائلُها وأساليبُها قابلةٌ للاجتهادِ وفقَ الزمانِ والمكانِ، مما يجعلُها صالحةً لكلِّ الظروفِ والحيثياتِ والعصورِ.

كما يُراعي حكمُ الشريعةِ الفطرةَ الإنسانيةَ، ويَفي باحتياجاتِها صيانةً وحمايةً، لأنه يقومُ على تشريعاتٍ واقعيةٍ لا تُصادِمُ طبيعةَ الإنسانِ، بل تُهذِّبُه وتُوجِّهُه إلى الأفضلِ، وتَحميه من الأسوأِ.

الشَّرِيعَةُ مَنظُومَةُ حُكمٍ مُتكَامِلَةٌ، فَهِيَ تَحكُمُ جَمِيعَ مَيَادِينِ الحَيَاةِ، وَمِنَ الظُّلمِ العَظِيمِ أَنْ تُحرَمَ الشَّرِيعَةُ حُكمَ هَذِهِ المَيَادِينِ، فَهِيَ لَا تَظهَرُ عَظَمَتُهَا حَتَّى تَحكُمَ جَمِيعَ المَيَادِينِ وَالمَنظُومَاتِ فِي تَكَامُلٍ وَتَنظِيمٍ مَهِيبٍ.

فَحِينَ تَحكُمُ الشَّرِيعَةُ، هَذَا يَعني أَنَّنَا نُرَسِّخُ عَقِيدَةَ التَّوحِيدِ وَنَنفِي الشِّركَ، كَأَصلٍ ثَابِتٍ يَقُومُ عَلَيهِ كُلُّ شَيءٍ وَكُلُّ فِكرٍ وَعَمَلٍ، وَهَذَا يَسمَحُ بِغَرسِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَالقَدَرِ، وَتَبيَانِ مَنهَجِ النُّبُوَّةِ، وَتَسْهِيلِ الِاستِقَامَةِ وَمُوجِبَاتِ الِارتِقَاءِ، إِذ تُبنَى السُّلُوكَاتُ كُلُّهَا عَلَى نِظَامٍ آمِنٍ يَسُدُّ مَنَافِذَ الفَسَادِ وَيُعَزِّزُ عَوَامِلَ القُوَّةِ وَحُسنَ الِاستِجَابَةِ.

حُكمُ الشَّرِيعَةِ يَعمَلُ عَلَى تَنظِيمِ عَلاقَةِ العَبدِ بِرَبِّهِ مِن صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَدُعَاءٍ وَذِكرٍ، بِمَا يُزَكِّي النَّفسَ وَيُغَذِّي الرُّوحَ، وَيُوَفِّرُ لِلمُسلِمِ جَوًّا مِن الأَمَانِ وَالِاستِقرَارِ النَّفسِيِّ لِإِظهَارِ شَعَائِرِهِ وَالِاستِعلَاءِ بِدِينِهِ وَإِيمَانِهِ. يُسَهِّل له الحلال ويُصَعِّب عليه الحرام.

كَمَا تُضبَطُ الشَّرِيعَةُ بِمَنظُومَةِ الأَخلَاقِ العَظِيمَةِ سُلُوكَ الإِنسَانِ بِالقِيَمِ العُلَيَا، وَتَحفَظُ هَيبَةَ الصِّدقِ وَالأَمَانَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ وَالرَّحمَةِ وَالعَدلِ وَالإِيثَارِ وَالعِفَّةِ وَالحَيَاءِ وَالمُرُوءَةِ وَالإِحسَانِ.

تُنَظِّمُ الشَّرِيعَةُ أَحكَامَ الزَّوَاجِ وَالطَّلَاقِ وَالمَوَارِيثِ وَالحُقُوقَ الأُسرِيَّةَ، فَتَحفَظُ الأُسرَةَ الَّتِي هِيَ نَوَاةُ المُجتَمَعِ، وَتَضمَنُ التَّكَافُلَ وَالرِّعَايَةَ وَالرَّحمَةَ.

وَبِفَضلِ شُمُولِيَّتِهَا وَتَكَامُلِهَا الَّذِي يَستَوعِبُ المَيدَانَ الِاقتِصَادِيَّ، تُحَقِّقُ الشَّرِيعَةُ العَدَالَةَ الِاجتِمَاعِيَّةَ، وَتَمنَعُ الظُّلمَ وَالرِّبَا وَالِاحتِكَارَ، وَتُشَجِّعُ الكَسبَ الحَلَالَ، وَتَفرِضُ الزَّكَاةَ وَالإِنفَاقَ، وَتُحَقِّقُ التَّوَازُنَ بَينَ الفَقرِ وَالغِنَى.

وَعَلَى عَكسِ مَا يُخفِي المُرجِفُونَ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ رَائِدَةٌ فِي قِيَادَةِ المَيدَانِ السِّيَاسِيِّ وَالإِدارِيِّ، إِذ تَضَعُ نِظَامًا لِلحُكمِ قَائِمًا عَلَى الشُّورَى، وَالعَدلِ، وَالمُسَاءَلَةِ، وَوُجُوبِ الطَّاعَةِ فِي المَعروفِ، وَالإِنكَارِ لِمَا تُنكِرُهُ الشَّرِيعَةُ، وَمِن ذَلِكَ تَستَمِدُّ الأُمَّةُ خَيرِيَّتَهَا،

قَال تَعَالَى:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيرًا لَهُم ۚ مِنهُمُ المُؤمِنُونَ وَأَكثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (آلِ عِمرَان: ١١٠).

وَمِن أَبرَزِ مَا يُمَيِّزُ حُكمَ الشَّرِيعَةِ قُوَّةُ القَضَاءِ فِيهَا، فَالجَمِيعُ سَوَاسِيَةٌ أَمَامَ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا فَرقَ بَينَ عَرَبِيٍّ وَلَا أَعجَمِيٍّ، وَلَا أَبْيَضَ وَلَا أَسوَدَ، وَلَا شَرِيفٍ وَلَا عَبدٍ، أَمَامَ شَرِيعَةِ اللَّهِ، فَتُحمَى الحُقُوقُ، وَتُفرَضُ الحُدُودُ وَالتَّعَازِيرُ لِضَمَانِ الأَمنِ العَامِّ، وَتَردَعُ المُجرِمِينَ بِعَدلٍ وَرَحمَةٍ.

تَستَوعِبُ الشَّرِيعَةُ احْتِيَاجَاتِ المَيدَانِ العِلمِيِّ وَالفِكرِيِّ، فَتُشَجِّعُ عَلَى حَرَكَةِ العِلمِ وَالمَعرِفَةِ، وَتَرفَعُ مَكَانَةَ العُلَمَاءِ، وَتَعتَبِرُ طَلَبَ العِلمِ عِبَادَةً.

كَمَا تُنَظِّمُ الشَّرِيعَةُ عَلاقَةَ الأُمَّةِ الإِسلَامِيَّةِ بِغَيرِهَا، فَتَدعُو لاحترام سيادتها وَالوَفَاءِ بِالعُهُودِ، وَفِي الوَقتِ نَفسِهِ تُصَانُ قُوَّةُ الدَّولَةِ وَتُحفَظُ هَيبَتُهَا فِي المَيدَانِ العَسكَرِيِّ وَالإِعدَادِ وَالجِهَادِ وَمَا يُرهِبُ الأَعدَاءَ وَيَضمَنُ حِفظَ مَكَانَةِ الأُمَّةِ المُسلِمَةِ قَوِيَّةً مُصَانَةً.

شَرِيعَةُ اللَّهِ فِي الأَرضِ تَحُثُّ عَلَى عِمَارَةِ هَذِهِ الأَرضِ وَتُحَرِّمُ الإِفسَادَ فِيهَا، وَتَحفَظُ الحُقُوقَ وَالمُمتَلَكَاتِ وَتَصُونُ الأَمَانَاتِ.

لَا أمْنَ وَلَا أمَانَ بِدُونِ شَرِيعَةِ الرَّحمَنِ

الشَّرِيعَةُ هِيَ النِّظَامُ الوَحِيدُ فِي هَذَا العَالَمِ القَادِرُ عَلَى تَحقيقِ الأَمنِ النَّفسِيّ وَالِاجتِمَاعِيّ، فَهِيَ نِظَامٌ مُتَكَامِلٌ، يَربِطُ النَّاسَ بِرَبِّهِم، وَتُبقِي ضَمَائِرَهُم حَيَّةً، وَبِفَضلِ مَفهُومِ الإِخلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى، يُتقِنُ العِبَادُ أَعمَالَهُم دُونَ حَاجَةٍ لِرِقَابَةٍ بَشَرِيَّةٍ، وَيَنزَجِرُونَ عَنِ الظُّلمِ مِن قُلُوبِهِم قَبلَ أَيّ سُلطَةٍ أَو قُوَّةٍ.

فَأَوَّلُ حِصَانَةٍ تُقَدِّمُهَا الشَّرِيعَةُ هِيَ حِصَانَةُ النَّفسِ ضِدَّ مَا يُفسِدُ فِطرَتَهَا وَحِسَّهَا السَّلِيمَ وَحُبَّهَا لِلخَيرِ وَالعَدلِ. وَمَتَى سَلِمَ هَذَا المَبدَأُ وَهَذَا البُنيَانُ، فَكُلُّ مَا يَلِيهِ سَيَكُونُ أَسهَلَ وَأَسلَمَ.

إِنَّ تَحقيقَ نِظَامٍ يَعيشُ فِيهِ النَّاسُ تَحتَ ظِلَالِ العَدَالَةِ وَالمُسَاوَاةِ لَا فَرقَ فِيهِ بَينَ غَنِيّ وَفَقِيرٍ، وَلَا بَينَ حَاكِمٍ وَمَحكُومٍ، فَالكُلُّ أَمَامَ حُكمِ اللَّهِ سَوَاءٌ، لَهُوَ جَدِيرٌ أَن يَحكُمَ البَشَرِيَّةَ.

وَالمُتَأَمِّلُ فِي مَنهَجِيَّةِ تَطبِيقِ أَحكَامِ الشَّرِيعَةِ يُذهِلُهُ ذَلِكَ العَدلُ العَظِيمُ، فَلَا يُقَامُ حَدُّ الزِّنَا إِلَّا بِحُضُورِ أَربَعَةِ شُهُودٍ يَشهَدُونَ بِوُقُوعِ الزِّنَا عَينًا، وَلَا يُقَامُ حَدٌّ حَتَّى يَستَوفِيَ شُرُوطَهُ، وَلَو نَقَصَ شَرطٌ لَا يُقَامُ !

فَدَقَائِقُ العَدلِ تَصُونُهَا الشَّرِيعَةُ فِي نِظَامٍ يَقُومُ عَلَى العَدلِ.

وَعَلَى عَكسِ مَا تُصَوِّرُهُ الآلَةُ الإِعلَامِيَّةُ الغَربِيَّةُ، فَإِنَّ أَحكَامَ الشَّرِيعَةِ لَيسَت مُتَشَدِّدَةً بَل رَحِيمَةٌ وَبَعِيدَةُ النَّظَرِ بِحِكمَةٍ وَدِرَايَةٍ بِالنَّفسِ البَشَرِيَّةِ، لِأَنَّ العُقُوبَاتِ الشَّرعِيَّةَ تُرَدِّعُ المُجرِمِينَ وَتَحفَظُ الحُقُوقَ، فَتَقِلُّ مَعَدَّلَاتُ الجَرِيمَةِ، وَتَحِلُّ الطُّمَأنِينَةُ حَيثُمَا شَعَرَ الإِنسَانُ بِوُجُودِ حِمَايَةٍ لِلأَموَالِ وَالأَنفُسِ وَالأَعرَاضِ.

فَالشَّرِيعَةُ تُحَرِّمُ الِاعتِدَاءَ عَلَى الدِّمَاءِ وَالأَموَالِ، وَتَجعَلُ القِصَاصَ حَيَاةً لِلأُمَّةِ، وَتُعَظِّمُ أَجرَ مَن دَافَعَ عَن حُقُوقِهِ وَتَرفَعُهُ لِمَرتَبَةِ شَهِيدٍ.

عَن سَعِيدِ بنِ زَيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَن قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَن قُتِلَ دُونَ أَهلِهِ، أَو دُونَ دَمِهِ، أَو دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ".صَحِيحٌ[14].

فَتَأَمَّلْ عَظَمَةَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي يَستَوجِبُ فِيهِ حِفظُ الحُقُوقِ وَالدِّفَاعُ عَنهَا مَرتَبَةَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَكَيفَ يَعِيشُ المُوَاطِنُ تَحتَ نِظَامٍ يَصُونُ حُقُوقَهُ وَيُعطِيهِ صَلَاحِيَّاتٍ كَامِلَةً فِي حِفظِهَا وَالدِّفَاعِ عَنهَا، وَبِمَنعِ الرِّبَا وَالِاحتِكَارِ وَالغِشِّ، وَبِفَرضِ الزَّكَاةِ وَالتَّكَافُلِ، وَيَحرِصُ عَلَى تَحقِيقِ التَّوَازُنِ بَينَ الطَّبَقَاتِ، وَعَلَى جَبرِ الفَقرِ وَمَنعِ الظُّلمِ؟
كَيفَ تَكُونُ حَيَاةُ النَّاسِ تَحتَ ظِلَالِ الشَّرِيعَةِ فِي مُجتَمَعَاتٍ نَظِيفَةٍ، قَائِمَةٍ عَلَى الصِّدقِ وَالرَّحمَةِ وَالتَّعَاوُنِ، خَالِيَةٍ مِنَ المُنكَرَاتِ وَالفَوَاحِشِ، مَلِيئَةٍ بِأَسبَابِ الثَّبَاتِ وَالعِلمِ وَالدَّعوَةِ وَالخَيرِ؟
وَالكُلُّ مُحَاسَبٌ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالكُلُّ فِي عِبَادَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى.

فَهَذِهِ حَقِيقَةٌ، هِيَ غَايَةُ مَا يَطمَحُ لَهُ إِنسَانٌ سَوِيٌّ مِن خِلَالِ حُكمٍ يَحكُمُهُ، وَلَا يُمكِنُ لِحُكمٍ غَيرِ الإِسلَامِ تَحقِيقُهُ، وَلَا يُمكِنُ أَن تَجِدَ ذَلِكَ إِلَّا فِي الإِسلَامِ.

---

[14] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَأَحمَد

شَرِيعَةُ اللَّهِ تُقَدِّمُ لِلإِنسَانِ دُستُورًا كَامِلًا شَامِلًا، يَسمَحُ لَهُ بِأَدَاءِ دَورِهِ خَلِيفَةً فِي الأَرضِ بِالحَقِّ، يَسعَى لِلعِمَارَةِ وَالإِصلَاحِ، لَا لِلفَسَادِ وَالتَّخرِيبِ.

الشَّرِيعَةُ لَيسَت قَيدًا، بَل ضَمَانٌ لِلحُرِّيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ وَالكَرَامَةِ الإِنسَانِيَّةِ، هِيَ الَّتِي تَصنَعُ التَّوَازُنَ بَينَ الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ، بَينَ الرُّوحِ وَالمَادَّةِ، بَينَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

وَبِقَدرِ مَا يُطبَّقُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، يُرفَعُ الظُّلمُ، وَيُزرَعُ الأَمنُ، وَيُبنَى الإِنسَانُ السَّوِيُّ القَائِمُ بِرِسَالَتِهِ فِي الأَرضِ.

إِنَّ مَا يَجِبُ تَصحِيحُهُ جِدًّا، هُوَ أَنَّ التَّخَلُّفَ المَادِّيَّ الَّذِي يَعِيشُهُ المُسلِمُونَ إِنَّمَا هُوَ تَحصِيلٌ حَاصِلٌ لِلتَّخَلُّفِ العَقدِيِّ، وَالعَودَةُ لِلشَّرِيعَةِ لَا تَعنِي مَزِيدَ تَخَلُّفٍ مَادِّيٍّ، بَل تَعنِي نَهوضًا مَهِيبًا، لَه مُوجِبَاتُهُ وَفَضَائِلُهُ.

وَإِلَّا فَإِنَّ مَصِيرَ الإِنسَانِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعيُنٌ لَّا يُبصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَئِكَ كَالأَنعَامِ بَل هُم أَضَلُّ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ (الأَعرَاف: ١٧٩).

الغَايَةُ مِنَ الوُجُودِ هِيَ الَّتِي تَحكُمُ آثَارَ الأُمَمِ وَوَاقِعَ حَضَارَاتِهِم، فَالعَيشُ وَفقَ مَبدَإٍ رَأسمَالِيٍّ بَرَاغمَاتِيٍّ جَشِعٍ لَا يُمكِنُ أَن يُعَكِّسَ قِيمَةً حَقِيقِيَّةً أَو إِنسَانِيَّةً.

إِنَّ حَرَكَةَ الأُمَمِ تَقُومُ عَلَى نَظرَةِ الإِنسَانِ لِنَفسِهِ، فَمَن رَضِيَ أَن يَكُونَ كَالأَنعَامِ فَلَا يُنتَظَرُ مِنهُ إِصلَاحٌ وَلَا صَلَاحٌ فِي الأَرضِ.

المقتضياتُ الحضاريَّةُ

إنَّ عِمارةَ الأرضِ ليست تَرَفًا حضاريًّا تُمارِسُه الأمَّةُ الإسلاميَّةُ مَتَى شاءت، ولا هي زِينَةٌ دُنيويَّةٌ تُضافُ إلى الإيمان، بل هي تَكليفٌ رَبَّانِيٌّ ومُقتضًى من مُقتضَياتِ "لا إلهَ إلَّا الله"، تَدانُ الأمَّةُ بالتَّقصيرِ إن تَخلَّت عنه، كما تُدانُ إن هَجرتِ الصَّلاةَ أو عطَّلتِ الشَّريعة.

لقد جَعَلَ اللهُ الإنسانَ خَليفَةً في الأرض، واستَعمَرَه فيها، وسخَّرَ له ما في السَّماواتِ وما في الأرض، وأمرَه أن يَسعى في مَناكِبِها، وأن يَأكلَ من رِزقِه، ثمَّ ذكَّرَه بالنُّشورِ لِيَعلَمَ أنَّ السَّعيَ في الأرضِ عِبادة، وأنَّ الإنتاجَ والعُمرانَ لا قيمةَ له إن لم يَكُن وفقَ المَنهجِ الرَّبَّانِيّ الذي يَزِنُ الأمورَ بالحلالِ والحرام، ويَجعلُ الغايةَ من كلِّ حركةٍ في الحياةِ وجهَ اللهِ والدَّارَ الآخرة.

فالحضارةُ في ميزانِ الإسلامِ ليست زَخرفَةَ مادَّةٍ ولا بَراعةَ صِناعةٍ، وإن كان ذلك مطلوبًا، لكنَّها قبلَ ذلك عِمارةٌ على هُدى، وإبداعٌ على تَقوى، وتقدُّمٌ لا يَقطعُ الصِّلةَ بالسَّماء. إنَّها إقامةٌ لِبُنيانِ الإسلامِ في الأرض.

الحضارةُ الجاهليَّةُ تَصنَعُ وتُجمِّلُ وتُزخرف، لكنَّها تَهدِمُ الإنسانَ من الدَّاخل، لأنَّها تُغذِّي الجَسدَ وتُميتُ الرُّوح، وتَبني المدنَ وتُخرِّبُ القلوب، بينما الحضارةُ الإسلاميَّةُ تَجمَعُ بين الدُّنيا والآخرة، بين العملِ والعبادة، بين العلمِ والإيمان.

الحضارةُ الحَقَّةُ هي التي تَبدأُ من "لا إلهَ إلَّا الله" وتَنتهي بـ"لا إلهَ إلَّا الله"، فتُوجِبُ علمًا نافعًا، وصناعةً نزيهةً، وسلوكًا مُهذَّبًا، ومجتمعًا تَسودُه الرَّحمةُ والعَدل. هي التي تَجعلُ الإنسانَ يَخطو على الأرضِ بقلبٍ مُعلَّقٍ بالسَّماء، فيُبدِعُ بعقلِه، ويُزَكّي عملَه بالإيمان، ويُشيِّدُ عُمرانًا يَشهدُ على توحيدِه لا على غَفلته.

وهكذا كانتِ الحضارةُ الإسلاميَّةُ في أوجِها: بَنَتِ المدنَ، ورَصَفَتِ الطُّرُق، واستَخرجَت خيراتِ الأرض، لكنَّها لم تَنسَ أن تَبدأَ كلَّ ذلك من المسجدِ الجامع، حيث تَتَّصِلُ الأرضُ بالسَّماء، وحيث يُستمدُّ الإلهامُ من السُّجودِ قبلَ الصِّناعة، ومن التَّوحيدِ قبلَ التَّخطيط.

فـ"لا إلهَ إلَّا الله" ليست كلمةً تُقال فقط، بل مَنهجًا يُعمِّرُ الأرضَ بالحقِّ، ويُهذِّبُ الإنسانَ بالقِيَم، ويُقيمُ الحضارةَ التي تَليقُ بخَليفةٍ في أرضِه.

المقتضياتُ الفِكريَّةُ

إنَّ للمسلمِ مَنهجًا مُتميِّزًا في التَّفكيرِ والتَّعبير، يَستمدُّ رُؤيتَه من عَقيدتِه في "لا إلهَ إلَّا الله"، فهي التي تَمنحُه تَصوُّرًا خاصًّا للكونِ والإنسانِ والحياة، وتَجعله يَزِنُ الأمورَ بموازينِ الوحي، لا بمَقاييسِ الجاهليَّةِ أو المَناهجِ المادِّيَّةِ المُنفصِلةِ عن الإيمان.

فالمسلمُ يَتعامَلُ مع العلمِ والفنِّ والفكرِ من مُنطلَقِ إيمانِه، فيَفهَمُ الحقائقَ العِلميَّةَ وِفقًا لنورِ القرآنِ والسُّنَّة، ويَرى الإنسانَ كما وَصفَه اللهُ: مخلوقًا من طينٍ ونَفخةٍ من روح، مُكرَّمًا بالعقلِ والإرادةِ والاختيار، مُكلَّفًا بعمارةِ الأرضِ والخِلافةِ فيها.

ومِن هذا المَنهجِ يَتكوَّنُ المُفكِّرُ المسلمُ والعالِمُ المسلمُ والأديبُ المسلم، الذين يَجمعونَ بين العلمِ والإيمان، وبين العقلِ والوحي. وحين كانتِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ مُتمسِّكةً بدينِها، أنجَبَت هذه النَّماذجَ الرَّاقيةَ التي قادَتِ الحضارةَ بالعلمِ والإيمانِ معًا.

لكن حينَ انبهرتِ الأمَّةُ بالحضارةِ الغربيَّةِ، وقلَّ تمسُّكُها بدينِها، ضَعُف هذا النَّموذجُ حتى كادَ يَختفي، وظهر بدَلَه دُعاةُ "الانفتاح" الذي يَعني في الحقيقةِ الذَّوبانَ والتَّقليد.

والحقُّ أنَّ الانفتاحَ والتَّبادُلَ مَطلوبان، لكن بعِزَّةِ الإيمانِ وتَميُّزِ المَنهج، لا بالتَّبعيَّةِ والانبهار. فالعالَمُ اليومَ لا يَحتاجُ إلى مزيدٍ من العلمِ المادِّيِّ الجافّ، بل إلى علمٍ مؤمنٍ، وعالِمٍ مؤمنٍ، يَربطُ بين الغيبِ والشَّهادة، ويقودُ البشريَّةَ إلى التَّوازنِ والنَّجاة.

حينَ يَنطِقُ المسلمُ بـ"لا إلهَ إلَّا الله"، لا يُعلِنُ مجرَّدَ شهادةٍ إيمانيَّة، بل يُؤسِّسُ لرُؤيةٍ فكريَّةٍ مُتكاملةٍ تُعيدُ تَرتيبَ علاقتِه بالكونِ والحياةِ والإنسان.

فهو يَرى أنَّ الكونَ كتابٌ مَفتوحٌ من آياتِ الله، وأنَّ الحياةَ مِيدانُ عبادة، وأنَّ الإنسانَ خَليفَةٌ مُكرَّم، لا كائنٌ طارئٌ جاء صُدفَةً في رُكامِ المادَّة.

في ضوءِ هذه الكلمةِ العظيمة، لا يكونُ العلمُ أداةً عَمياءَ تَكتفي بالرَّصدِ والتَّجريب، بل يُصبِحُ وسيلةً لِفَهمِ الحِكمةِ الإلهيَّةِ في الخَلق، واستِبانةِ القوانينِ التي سَنَّها اللهُ لِحفظِ التَّوازنِ بين المخلوقات.

فحينَ يَرى المؤمنُ تَمَدُّدَ الماءِ عند تَجمُّدِه، لا يَراه ظاهرةً فيزيائيَّةً فحسب، بل تَدبيرًا رَبَّانيًّا يَحفَظُ حياةَ الأسماكِ في مياه البحيرات والبِحار.

وحينَ يَتأمَّلُ تعاقب الليل والنهار، لا يَراه حركةً ميكانيكيَّةً باردة، بل يَلمسُ فيها رَحمةً قَدَّرَتْ للإنسانِ ليلًا ونهارًا بميزانٍ دَقيقٍ، يَليقُ بحياتِه ووظيفتِه في الاستخلاف.

إنَّ المُقتضى الفِكريَّ لـ"لا إلهَ إلَّا الله" يَرفُضُ أن يكونَ العقلُ عبدًا للطَّبيعةِ أو أسيرًا للنَّظريَّاتِ المادِّيَّةِ التي تَتخبَّطُ في تفسيرِ الوجود، تارةً بالمُصادفة، وتارةً بالضَّرورةِ العَمياء.

فالعقلُ المؤمنُ ليس تابعًا للموجةِ الفِكريَّة، بل هو حرٌّ بقدرِ ما هو خاضعٌ لله.

حرٌّ في بَحثِه، خاضعٌ في غايتِه.

يَستمدُّ مَنهجَه من وحيِ اللهِ لا من أوهامِ الإنسان.

وهنا يَكمُنُ الفارقُ الجوهريُّ بين التَّفكيرِ الإيمانيّ والتَّفكيرِ الجاهليّ:

الأوَّلُ يَنطلِقُ من يقينٍ بأنَّ وراءَ الكونِ إرادةً حَكيمةً، فيَرى في كلِّ ذرَّةٍ معنًى، وفي كلِّ نظامٍ مقصدًا.

أمَّا الثاني فيَجعَلُ الطَّبيعةَ إلهًا، ويَعبُدُ "القوانينَ" كما عَبَدَ أسلافُه الحَجرَ، ثمَّ يُسمِّي ذلك عِلمًا وتقدُّمًا.

لقد أَخطأ الفِكرُ المادِّيُّ حينَ ظنَّ أنَّ الحقائقَ تُفسَّرُ بِمَعزلٍ عن الغاية، وأنَّ الإنسانَ يُمكنُ أن يُفهَمَ من خِلالِ جَسَدِه فقط دونَ روحِه.

فمَن فَصَلَ بين العِلمِ والإيمانِ، فقد فَصَلَ بين الحقيقةِ ومعناها، وبين المعرفةِ ووظيفتِها.

إنَّ العلومَ كلَّها ـ على اختلافِ مَجالاتِها ـ حين تُبنَى على التَّصوُّرِ الإيمانيّ، تُصبِحُ وسيلةً لعبادةِ اللهِ في فَهمِ سُنَنِه، لا سُلَّمًا لتأليهِ العقلِ أو تقديسِ المادَّة.

الاقتصادُ لا يَعودُ فَنًّا لجمعِ المال، بل نِظامًا لإقامةِ العَدلِ في توزيعِ رِزقِ الله.

والتَّربيةُ لا تكونُ صِناعةَ عُقولٍ متمرِّدة، بل غَرسَ قلوبٍ تَعرِفُ خالقَها.

والتَّاريخُ لا يُروَى من زاويةِ القوَّةِ والغَلَبة، بل من زاويةِ العُبوديَّةِ والرِّسالة.

والأدبُ لا يُكتَبُ لتَسليةِ الحِسّ، بل لتَزكيةِ النَّفسِ وإحياءِ الفِطرة.

هذه هي المَنظومةُ الفِكريَّةُ التي تَنبثِقُ من "لا إلهَ إلَّا الله"، مَعرِفةٌ بالله، تُضيءُ تَصوُّرَنا عن الكون، فتَرسُمُ مَنهجَنا في الحياة، وتُهَذِّبُ نَظرتَنا إلى الإنسان.

تَصوُّرٌ يَجعلُ كلَّ علمٍ وسيلةً للمَعرِفةِ بالله، وكلَّ فكرٍ سُلَّمًا لِلارتقاءِ إليه، وكلَّ حركةٍ في الأرضِ عِبادةً تُكتَبُ في ميزانِ التَّوحيد.

فالمسلمُ حينَ يُفكِّرُ، يُفكِّرُ بوَحيٍ من إيمانِه، وحينَ يُبدِعُ، يُبدِعُ بقلبٍ يُسبِّحُ اللهَ مع كلِّ ذرَّةٍ في الوجود.

وهكذا تَبقَى "لا إلهَ إلَّا الله" أصلَ الفِكرِ كما هي أصلَ الدِّين؛ تُحرِّرُ العقلَ من عُبوديَّةِ المخلوق، وتَربطُه بعُبوديَّةِ الخالق، فتَجعَلُ الإنسانَ يَعيشُ في الكونِ بعَينِ العالِم، وقلبِ العابِد، وضَميرِ الخَليفَة.

المقتضيات التعبيرية

إنَّ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ» لَيسَت مُجَرَّدَ عبارة، بَل مِيثَاقٌ عَظِيمٌ يَنسَحِبُ أَثَرُهُ عَلَى كُلِّ مَجَالَاتِ الحَيَاةِ، حَتَّى عَلَى التَّعْبِيرِ الفَنِّيِّ وَالأَدَبِيِّ وَالإِعلَامِيِّ.

فَكَمَا أَنَّ فِي الْإِسلَامِ مُقتَضَيَاتٍ إِيمَانِيَّةً وَتَعَبُّدِيَّةً وَتَشرِيعِيَّةً، وَفِكرِيَّةً وَثَقَافِيَّةً، فَإِنَّ لَهُ أَيضًا مُقتَضَيَاتٍ تَعبِيرِيَّةً بِجَعلِ الكَلِمَةِ وَالصُّورَةِ خَاضِعَتَينِ لِمِيزَانِ التَّوحِيدِ.

لَقَد عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ البَيَانَ نِعمَةٌ، وَأَنَّ الكَلِمَةَ قَد تَكُونُ جِهَادًا يَذُودُ عَنِ الحَقِّ كَمَا يَذُودُ السَّيْفُ فِي الْمِيدَانِ. فَكَمَا قَالَ لِحَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أُهْجُهُمْ، وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ"[15].

فَالْكَلِمَةُ فِي مِيزَانِ الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ لَهْوًا، وَلَا مَتَاعًا زَائِلًا، بَل رِسَالَةٌ وَمَسؤُولِيَّةٌ. مَن أُوتِيَ مَوهِبَةَ البَيَانِ فَحَقٌّ عَلَى مَوهِبَتِهِ أَن تَنطِقَ بِالحَقِّ، وَأَن تُسَخِّرَ جَمَالَهَا لِتَمجِيدِ الخَالِقِ، لَا لِتَقدِيسِ الهَوَى.

لَيسَت مهمَّةُ الأَدِيبِ المُسلِمِ أَن يُحَوِّلَ فَنَّهُ إِلَى مَوعِظَةٍ مُبَاشِرَةٍ، فَالفَنُّ الوَاعِظُ وَحدَهُ لَا يَكفِي، بَل أَن يَجعَلَ مِنَ الجَمَالِ وَسِيلَةً لِإِحيَاءِ القَلبِ، وَإِيقَاظِ الضَّمِيرِ، وَتَثبِيتِ مَعَانِي الإِيمَانِ فِي النُّفُوسِ بِغَيرِ تَكَلُّفٍ وَلَا تَصَنُّعٍ. فَالفَنُّ الْإِسلَامِيُّ هُوَ البَلَاغُ الرَّفِيقُ، يَلمَسُ الوِجدَانَ دُونَ صَخَبٍ، وَيَصِلُ إِلَى القُلُوبِ كَمَا تَصِلُ النَّسمَةُ إِلَى الزَّهرِ.

وَالْأُمَّةُ الْيَومَ فِي حَربٍ فِكرِيَّةٍ وَإِعلَامِيَّةٍ لَا تَقِلُّ خَطَرًا عَنِ الْحُرُوبِ العَسكَرِيَّةِ، تُستَعْمَلُ فِيهَا كُلُّ أَدَوَاتِ التَّعْبِيرِ لِتَشوِيهِ الحَقِّ وَتَزيِينِ البَاطِلِ، وَصَرفِ النَّاسِ عَن مَعَانِي العُبُودِيَّةِ. وَهُنَا يَأْتِي دَورُ حَمَلَةِ الكَلِمَةِ وَأَهلِ الفَنِّ المُؤمِنِينَ؛ أَن يَرُدُّوا العُدوَانَ بِالجَمَالِ الحَقِّ، بِالكَلِمَةِ المُضِيئَةِ الَّتِي تَكشِفُ الزَّيْفَ وَتَزرَعُ اليَقِينِ.

---

[15] أخرجه أحمد (18642)، والنسائي في ((الكبرى)) (8237)، والطبري في ((تهذيب الآثار)) (924) جميعهم بلفظه.

إِنَّ الأَدِيبَ المُسلِمَ لَا يَكتُبُ مِن فَرَاغٍ، بَل مِن وَعيٍ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَنطِقُ بِهِ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 162).
فَكُلُّ تَعبِيرٍ عَنِ النَّفسِ هُوَ جُزْءٌ مِنْ "مَحْيَايَ"، وَكُلُّ مَا فِي المَحيَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ.

الفَنَّانُ المُسلِمُ لَا يَرفَعُ شِعَارَ «الفَنُّ لِلفَنِّ»، وَلَا يَعبُدُ «الحَيَاةَ» بِمَفهُومِهَا المَادِّيِّ كَمَا تَفعَلُ الجَاهِلِيَّاتُ الحَدِيثَةُ، بَل يَجعَلُ فَنَّهُ عِبَادَةً بِمَعنَاهَا الوَاسِعِ؛ عِمَارَةً لِلأَرْضِ بِمَنهَجِ اللَّهِ، وَإِصلَاحًا لِلقُلُوبِ، وَإِحيَاءً لِلضَّمِيرِ.

إِنَّهُ يَقِفُ ضِدَّ كُلِّ صُوَرِ الظُّلمِ، لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الظُّلمَ عَلَى نَفسِهِ، وَجَعَلَهُ بينَ عِبَادِهِ مُحَرَّمًا، وَيَعْلَمُ أَنَّ أَعْظَمَ الظُّلْمِ هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَأَنَّ أَعْظَمَ الْعَدْلِ هُوَ التَّوْحِيدُ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ كُلَّ إِنتَاجٍ فَنِّيٍّ أَوْ إِعلَامِيٍّ يُنكِرُ الظُّلمَ، وَيُعَلِّي رَايَةَ العَدلِ، وَيَهدِي إِلَى اللَّهِ، هُوَ جُزْءٌ مِن أَدَاءِ الأَمَانَةِ التَّعبِيرِيَّةِ لِـ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ".

وَأَمَّا اليَومَ فَهَذَا المَفهُومُ مُنتَكِسٌ تَمَامًا، فَمَن يَحتَلُّ الفَنَّ وَالإِعلَامَ غَالِبًا مُنسَلِخُونَ عَنِ الدِّينِ تَمَامًا، مَسحُوبُونَ فِي تَيَّارِ التَّغرِيبِ الهَادِرِ، يَركُضُونَ صَوبَ هَاوِيَةِ الضَّيَاعِ وَهُم يَظُنُّونَ أَنَّهُم عَلَى هُدًى.

وَالْآيَاتُ تَقرَأُ حَالَهُم بِوُضُوحٍ صَارِخٍ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: 103 – 105)؛ الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِ رَبِّهِم وَلَمْ يُؤمِنُوا بِلِقَائِهِ فَبَطَلَتْ أَعمَالُهُمْ، فَلَا يُؤْخَذُ لَهُم فِي مِيزَانِ القِيَامَةِ وَزْنٌ.

وَقَد جَنَحَتْ آلَةُ التَّغْرِيبِ فِي حَمْلِ رِسَالَتِهَا بِكُلِّ الوَسَائِلِ، مِن مَنَاهِجٍ تَعْلِيمِيَّةٍ تَزُجُّ بِالْأَجيَالِ فِي مَتَاهَاتٍ الضلال والتيه والعبث، وَوَسَائِلِ إِعلَامٍ وَصَحَافَةٍ تُمهِرُ الْخِطَابَ بِالقُشُورِ وما يخدم أجندات أربابها، إِلَى مَسرَحٍ وَسِينِمَا تُسَوِّقَانِ صُوَرَ الحَيَاةِ المَبتُورَةِ، وَ«تَحَرُّرٍ» لِلمَرأَةِ عَلَى نَحوٍ يَستَبِيحُ القِيَمَ، وَشَوَاطِئَ عَارِيَةٍ، وَمَدَارِسَ تَنصِيرِيَّةٍ، وَاستِقدَامِ فِرَقٍ فَنِّيَّةٍ وَغِنَائِيَّةٍ، وَتَرجَمَةِ ثَقَافَاتٍ غَربِيَّةٍ تُبخِسُ الذَّاتَ، وَنَشرِ أَفكَارٍ مَادِّيَّةٍ كَالدَّارُوِينِيَّةِ، وَالدَّعوَةِ لِلاختِلَاطِ، وَلِلقِيَمِ القَومِيَّةِ وَالوَطَنِيَّةِ كَبَدِيلٍ عَنِ الِاجْتِمَاعِ تَحتَ رَايَةِ الْإِسلَامِ.

وَفِي غُضُونِ قَرنٍ وَاحِدٍ تَبَدَّت صُورَةٌ مُخِيفَةٌ: لَمْ يَعُدِ السَّائِرُونَ فِي المَظهَرِ يُمَيَّزُونَ إِلَّا مِن خِلَالِ مَهَارَةِ الغَربِ فِي فُنُونٍ مَعَيَّنَةٍ، بَينَمَا صَارَ كَثِيرٌ مِنَ المُسلِمِينَ مُقَلِّدِينَ بِلَا هُوِيَّةٍ وَاضِحَةٍ.

وَهَكَذَا تَرَاجَعَت مُقتَضَيَاتُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فِي صُدُورِ كَثِيرٍ مِنَ المُسلِمِينَ إِلَى مُجَرَّدِ طُقُوسٍ خَاوِيَةٍ مِن رُوحِهَا، وَأَضحَتِ المُجَاهَرَةُ بِالرَّذِيلَةِ وَالِانحِلَالِ وَالمَعصِيَةِ مَنقَبَةً وَمَفخَرَةً يُشَارُ إِلَيْهَا كَرَمزٍ لِلتَّقَدُّمِ وَالِانفِتَاح!

وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَ حَاجِزٌ صَامِدٌ لِمُدَّةٍ لَيسَت بِالْقَصِيرَةِ، وَبَقِيَت هُنَاكَ دَعَوَاتٌ لِلتَّحَاكُمِ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ. وَهَذَا الخَطَرُ تَحدِيدًا هُوَ الَّذِي أَبصَرَهُ أَعدَاءُ الْإِسلَامِ، فَبَدَؤُوا يَسعَونَ جَاهِدِينَ إِلَى طَمسِهِ مِن حَيَاةِ النَّاسِ، باغتياله إعلاميًا وبملاحقته ميدانيًا، وبمنع سبل وصوله ونشاطه عالميًا، لِيُسدِلُوا السِّتَارَ نِهَائِيًّا عَلَى وُجُودِهِ فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَعُودُ لَهُ قَرَارٌ وَلَا مَقَامٌ.

"الفَنَّانُونَ" وَ"الأُدَبَاءُ" وَ"الإِعلَامِيُّونَ" الَّذِينَ يَشغَلُونَ الشَّاشَاتِ مُجَرَّدُ فَقَاقِيعَ زَائِفَةٍ مَلَأَتِ السَّاحَةَ بِاسمِ الحَدَاثَةِ وَالتَّحَرُّرِ، وَاسْتَعبَدَتِ النَّاسَ لِلشَّهَوَاتِ، وَلِمَا حَطَّ، بينما نحن بحاجة إلى إقامتها وفق مقتضيات "لا إله إلا الله"، فتزدهر الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَالصُّورَةُ المُشرِقَةُ، وَالفَنُّ الَّذِي يَرفَع الْإِنسَانَ إِلَى أُفُقِ العُبُودِيَّةِ الحُرَّةِ.

فَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لَيْسَت فَقَطْ عَقِيدَةً تُعقَدُ فِي الْقَلبِ، بَل مَنهَجٌ كامل يُوَجِّهُ الْفِكرَ، وَيُهَذِّبُ الشُّعُورَ، وَيُطَهِّرُ الْفَنَّ، وَيَجْعَلُ الحَيَاةَ كُلَّهَا بكل تفاصيلها ودقائقها، سَبِيلًا إِلَى اللَّهِ جل في علاه.

يتباين الناس بقيمة وأثر الكلمات في نفوسهم..

ولذلك كان الصحابة أعظم قدرًا .. حملوا كلمة التوحيد منهج حياة وغاية .. وأرخصوا لأجلها النفس والنفيس.

وفي زماننا يلقي المرء كلمة مزلزلة تشهد لها السماء والأرض .. ويمضي لا يلتفت.. كأنه لم يعرف لها أثرًا!

قيمة الإنسان بقيمة المعاني في حياته.

تهذيب المفاهيم بمقتضيات لا إله إلا الله

كنا تناولنا فيما سبق مقتضيات "لا إله إلا الله" بشكلٍ من التفصيل، ونخصص الحديث فيما يلي، عن مفاهيمٍ خُذلت أو هُمّشت في زماننا، أرى ضرورة التأكيد عليها كي تتضح على ضوء تلك المقتضيات وتترسخ جليّة، فيقوم عليها كل عملٍ وأداءٍ باستقامة لا اضطراب فيها، لها موجباتها وفضائلها الجليلة.

إخلاص الدين كله لله تعالى

إخلاصُ الدينِ لله تعالى أن تكون الأعمالُ والنياتُ كلُّها خالصةً لوجهه وحده لا شريك له، وأن يُتَّبع رسولُه ﷺ في العبادة كلها، فلا يبتغي العبدُ بعمله ثناءَ الناس ولا حظوظَ النفس وأهواءَها، ولا ينتصر لأشخاصٍ أو فئاتٍ يعظّمها ويقدّسها، بل يكون قصدُه اللهَ وحده وابتغاءَ مرضاته. قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: 3).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (الزمر: 2).

ومن أبرز دلالات إخلاص الدين لله تعالى، والتي نفتقدها بشدة في زماننا لغلبة العصبيات والجاهليات، أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خالصًا لله، لا تحرّكه الأهواء والانتماءات، ولا يوجّهه ما يحبه الناس أو يكرهونه، بل يدور مع الحق

حيث دار. قال عز وجل: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:104)

وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية:" أي أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه".

وقال عز من قائل: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:114).

قال الطبري: "لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً (إلا من أمر بصدقة أو معروف) و"المعروف" هو كل ما أمر الله به، أو ندب إليه من أعمال البر والخير، (أو إصلاح بين الناس) وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به. ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك طلباً لرضى الله بفعله ذلك، فسوف يعطيه جزاء لما فعل "عظيماً" أي: في الدنيا والآخرة، ولا حد لمبلغ ما سمى الله "عظيما" يعلمه سواه".

وهذا امتحانُ صدقٍ حقيقيّ، يتميّز فيه الصادقُ من المرتاب، والمخلصُ حقًّا ممن خالط إخلاصَه الدَّخَن، ويظهر فيه من يرجو رحمةَ ربّه ورضوانَه، ممن يرجو الانتصارَ لحظِّ نفسه وهواه.

إن لا إله إلا الله، أعظم شيء في الكون وأعظم ما في الدنيا، كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ (الأنعام: 19). هذه الشهادة خلق لها الإنسان، ومن أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب. هذه الشهادة، يُقام سوق الجنة والنار عليها، وكل الدماء والسنن والرسالات حولها. فهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، لا يدخل الجنة أحد إلا بها. لقد جعلها الله عز وجل محور الحساب يوم القيامة: فقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: 6). وكل من حمل هذه الكلمة بحقها، عاش حياته مكرسًا لها، مهما تكبّد من تكاليف أمانة حملها، فهي كلمة "لا إله إلا الله"، التي أفلح بها الصحابة وأولياء الله.

ولذلك من المهمّ جدًّا إدراكُ عظمتها ومكانتِها في حياة المسلمين، حتى لا تُبخس حقوقُها عند غلبة الأهواء وتقلب الأحوال، فتتحوّل العبادةُ إلى غير الله تعالى من حيث لا يشعر العبد، فينتقض إخلاصُه أو يعتريه الاضطراب.

لا إله إلا الله أي "لا معبود بحق إلا الله". والمعبودات كثيرة في زماننا، فهناك من يعبد صنم المال، وصنم الوطن وصنم الجماعة وصنم السلطة وصنم الشيخ، وصنم النفس والهوى، وهناك من يعبد الغرب الكافر، ومن يعبد التطور العلمي والتقني، وكل هذه عبادات باطلة، ويبقى الله عز وجل هو المعبود الحق. كما قال ربعي بن عامر: "ابتعثنا الله ليخرجنا من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد"[16].

[16] ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (الجزء السابع، غزوة القادسية)

كيف يعبد الناس كل هذه الأصنام؟

يكفي أن يُخلِصوا لها الدين، فيجعلوا الدينَ أداةً لنصرتها حصرًا، ويُهوّنوا من حقوق الله ورسوله ﷺ كلما تعارضت مع ما يحبون ويهوون.

لقد قدَّم كثيرٌ من الناس أهواءهم وانتماءاتهم وأصنامهم المعنوية على حقوق الله ورسوله ﷺ بحجةٍ أو بأخرى، حتى أخذوا ينحدرون إلى جاهليةٍ هي من أخطر الجاهليات؛ لأنها تتستر بشعارات الدين، بينما إخلاصُها في الحقيقة لغير الله ظاهرٌ لمن تأمل.

ومن هنا ترى من يتجاوز حدود الله انتصارًا لمعشوقه، ويُلوي أعناق النصوص لتوافق هواه، ويُدلِّس في الاستدلال، ويستبيح الكذب والفجور والظلم ما دام ذلك يحقق الغلبة لمن يحب ويعظِّم.

لذلك كان من الضروري ترسيخ معنى العبودية الخالصة لله وحده، وإفرادِه بالدين والطاعة والقصد، فلا يكون في القلب تعظيمٌ مطلقٌ ولا خضوعٌ كاملٌ إلا له سبحانه. فإذا استقر هذا المعنى، صارت حياة المسلم كلُّها عبادةً لله: في صلاته وصيامه وزكاته وحجه، وفي أقواله ومواقفه وأحكامه وتعاملاته، بل حتى في ابتسامته للناس وإحسانه إليهم، لا يبتغي بذلك إلا وجهَ الله تعالى ورضوانه، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 162).

أي إن حقيقة إخلاص الدين لله تقتضي أن تكون أفعالنا ومواقفنا وأحكامنا كلها، صغيرةً كانت أم كبيرةً، خالصةً لله تعالى، متحررةً من سلطان الهوى ومن التعصب لشيخٍ أو قبيلةٍ أو جماعةٍ أو دولةٍ، مهما بلغ حبنا لها أو انتصارنا بها، ولا يتحقق ذلك إلا بقلبٍ سليم.

أهمية القلب السليم

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 88-89).

فالقلب هو المحرك الأساسي للعبادة، فإذا صلح القلب، صلحت العبادة. وصلح كل ما يبنى على ذلك.

و"لا إله إلا الله" هي العلاج لكل قلب معتلٍّ، فهي تُطهّر القلب من المعبودات الباطلة والهوى. سواء أكانت معبودات ملموسة كالأموال والتجارة، أو معنوية، كالهوى والنفس. والإنسان غالبًا ما يقع في معبودات خفية لا يشعر بها، ولذلك يجب إبقاء حس اليقظة مرتفعًا، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: 43).

ثم إن التوحيد حقًّا هو إخلاصُ الدين كلِّه لله تعالى وحده لا شريك له، والانقيادُ لأمره في كل حال، لا أن يحكم مواقفَنا وأحكامَنا إخلاصٌ انتقائيٌّ ينتصر للحظوظ والأهواء، ولو بتجاوز حدود الله تعالى. وما يقع ذلك إلا من فسادٍ في القلب وانتكاسٍ في الاستقامة.

فحالُ من يطيع الله إذا وافق الأمرُ هواه، ثم يعصيه إذا خالف رغبتَه، كحال من يصلي في أوقات الراحة والرضا، فإذا ضاق صدرُه أو ثقلت عليه نفسه ترك الصلاة. فهذا لم يجعل هواه تابعًا لأمر الله، بل جعل طاعته تابعةً لهواه.

وهذا المعنى يجري في سائر الفرائض من الزكاة والصيام والحج والجهاد وسائر التكاليف الشرعية؛ فكلها عباداتٌ خالصةٌ لله تعالى، لا تتبدل بتبدل الأمزجة، ولا تسقط عند مخالفة الأهواء، بل يظهر صدق العبودية حين يكون أمر الله أحبَّ إلى العبد من مراد نفسه.

ولذلك لا يليق بالمسلم أن يكون إخلاصُه لله انتقائيًّا؛ فيشتدُّ إنكارُه إذا وقع خصمُه أو منافسُه في الخطأ، متذرعًا بالغيرة على الدين، ثم إذا وقع من يحبُّه ويعظِّمُه في المنكر خفت صوتُه، أو سكت، أو التمس الأعذار، أو نافح عنه، لأنه صرف من ولائه وإخلاصه لشيخٍ أو جماعةٍ أو وطنٍ أو شخصٍ ما لا ينبغي أن يُصرف إلا للحق. وما أكثر صور هذا البلاء في زماننا.

والدينُ معاملة، ومن إخلاص الدين لله تعالى أن يظهر أثرُه في معاملة الناس جميعًا؛ فيراعي المسلم ربَّه في أحكامه ومواقفه وتعامله، فيعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه وفق ميزان الشريعة، لا وفق ميزان الهوى والانتماء. فلا يخصُّ بالإنصاف والولاء من يوافقه في نصرة شيخٍ أو جماعة، ثم يبخس ذلك من يخالفه أو ينتقده مع قيام حجته وحقه؛ فإن

هذا ليس إخلاصًا للدين لله تعالى، بل إخلاصٌ لمن يُهوى ويُناصر، وتقديمٌ للانتماء على الحق.

وإخلاصُ الدين لله تعالى يقتضي أن يدرك المؤمن أن الصبر على من ظلمه أو أساء إليه عبادةٌ خالصةٌ لله عز وجل، يبتغي بها الأجرَ والمعيةَ والرفعةَ عنده، فلا يحمله الغضب على الفجور في الخصومة، وهي من خصال النفاق. بل يكون كظمُ الغيظ وضبطُ النفس وتركُ الانتقام للنفس من أجلِّ القربات، رجاءَ ما أعدَّه الله للصابرين من عظيم المنزلة يوم القيامة. ومن ثمَّ تنضبط ردودُه وتفاعلاتُه بميزان الشرع، لا بثورة الغضب ولا بدافع الهوى والانتقام، كما في الحديث:" مَن كَظَمَ غيظًا وهو قادرٌ على أن يَنْفِذَه دعاه اللهُ عزَّ وجلَّ على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ حتى يُخَيِّرُه اللهُ مِن الحُورِ ما شاءَ"، صحيح أبي داود.

وكذلك العفو والإحسان، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 134– 135).

إن العمل الخالص لله يكون متأدبًا بهدي الشريعة، وليس لأجل مكاسب دنيوية أو لإرضاء أحد من الناس.

فلا إله إلا الله منهج حياة كامل: ينعكس فيها الخضوع لله في العبادة وفي المعاملات اليومية. ويكون بتصفية القلب من الهوى والمعبودات الباطلة. ويكون بمراعاة الحق والعدل حتى لو كان الآخر خصمًا أو منافسًا. فلتكن خصومة ومنافسة بشرف!

ويكون بالتحلي بالصبر والإخلاص في كل الأعمال، بما فيها الجهاد في سبيل الله تعالى، لا لأنفسنا أو لأهوائنا. فمن ابتسامة صغيرة لجهاد كبير! كله خالص لله تعالى لا نبتغي منه إلا مرضاة ربنا، وهكذا تتحق الاستقامة بيسر وبتأييد رباني يُرتجى.

وكل من عاش بهذه الكلمة في قلبه ووجدانه، تهذّب سلوكه واستقامت حياته واشتد رضاه في الدنيا قبل الآخرة، وتصبح عبادته أرجى قبولا عند الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 162–163)

"لا إله إلا الله" يقوم عليها نظام حياة كاملة، وقلب سليم، وطاعة لله وحده، وسلوك عملي في كل شؤون الحياة. من يثبت على هذه الكلمة ويجعلها منهجًا له، يعيش لذّة الإيمان وراحة القلب، ويلقى ربه مجاهدًا نفسه على أن يكون قلبه نقيًا من أي معبود باطلٍ أو هوى مُضِلّ، قد أُعذر بحسن استقامته واجتهاده وتوبته، وهذا حال المؤمن المطمئن بإيمانه، في دنياه وآخرته.

ولهذه المرتبة موجبات وفضائل عظيمة، لو علمها المحرومون منها ممن انغمسوا في إرضاء أهوائهم على حساب الوفاء لهذا الأصل العظيم في الإسلام، لأدركوا كبر الجريمة التي يقعون فيها ببخس مقامات نصرة الدين حقها حين يتعلق الأمر بأهوائهم!

كما أن للتفريط بهذا الأصل العظيم موجبات وخسائر لا تُجبر، وأولها أن يكل الله عز وجل العبد لنفسه وكفى بها عقوبة مثخنة.

فاللهم اجعلنا من أهل "لا إله إلا الله"، ووفقنا لعبادتك بإخلاص الدين كله لك وحدك لا شريك لك. اللهم اجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء:125).

محمد رسول الله ﷺ

أشهد أن لا إله إلا الله: أي أن لا معبود بحق إلا الله. مُحَمَّد رسول الله: أي أن لا متبوع بحق إلا رسول الله ﷺ.

فكل كلام البشر يمكن أن يؤخذ أو يرد، إلا كلام رسول الله ﷺ. اتباعه مطلق، وغير مشروط، بينما غيره يُقاس في ميزان الشريعة. سواء أكان لشيخ أو جماعة، لحكومة أو دولة، لقبيلة أو تكتلٍ من الأفكار والناس، فإن أي قول أو عمل يُتخذ أو يُرفض يكون بالمعيار: "قال الله، قال الرسول". كل ما كان موافقًا لذلك يُتبع، وما خالفه يُترك.

شهادة "مُحَمَّد رسول الله" تعني الإقرار في القلب، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح على أن النبي ﷺ هو المبلغ عن ربه، ولا يصل الإنسان إلى الله إلا عبر اتباعه.

كل العبادات تُقام وفق منهج النبي ﷺ. حتى حياتنا اليومية يجب أن تكون وفق هديه، وإلا سيكون هناك مخالفات وانحرافات تطيل المسافة بيننا وبين مقامات الفضل والحق والشهادة!

فهذا يؤثر مباشرة على قربنا من الله أو بعدنا عنه. ولفهم معنى اتباع النبي ﷺ، يوجهنا الخطاب القرآني، بقول الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65).

وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: 80).

فاتباع النبي ﷺ يعني الإيمان بكل ما جاء به، والعمل بكل ما أمر، والامتناع عن كل ما نهى، وعبادة الله بما شرع فقط لا بما يبتدع الناس ويجادلون عنه جهالة واغترارًا.

ولتحقيق ذلك عمليًا، يجب دراسة السنة النبوية، ودراستها واجب وليس مجرد سنة.

وفي الواقع فإن أي مجال عمل يحتاج معرفة هدي النبي ﷺ، سواء أكان الزراعة أو الإدارة، أو التجارة، أو الدعوة أو الجهاد! في جميع الميادين، اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ليس مجرد خيار، بل هو فرض: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (النور: 54).

والهدي النبوي يشمل كل الحياة، من صلاة وعبادات إلى المعاملات اليومية: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: 7).

وكيف سنفهم كل ذلك إن لم ندرس حياته ﷺ منذ استيقاظه حتى نومه، منذ بعثته وحتى وفاته، في أيام السلم كما في أيام الحرب، لتطبيق الهدي عمليًا.

في الواقع، كثير من الناس لا يتبعون هذا الهدي عمليًا. فانظر إلى التعاملات المالية أو السفر، قلّما يُراعى هدي النبي ﷺ.

والنبي ﷺ أوصى بالتمسك بسنته والعضّ عليها بالنواجذ، لكننا في الواقع، نرى انفصامًا بين دروس العلم والخطب وبين التطبيق العملي في الحياة اليومية. الكثير من

طلبة العلم يكتشفون لاحقًا أن هدي النبي ﷺ ليس مجرد نظرية، بل له علاقة مباشرة بالممارسة العملية ولذلك موجبات، نراها في إدارة العلاقات، في السياسة، في الحرب، والحياة اليومية كلها مستمدة من حياته ﷺ. ومن تمسلك بهدي النبي ﷺ وعمل به في حياته، استشعر معية الله تعالى ترافقه، ورأى فضائل هذا التمسك وبركاته. فيستقوي قلبه أكثر، ويُقدم بيقين أكبر.

ولننظر مثلا، كيف أن الأحداث المفصلية مثل ما يكون في حال الحروب، يجب أن تخضع كلها لمنهج النبي ﷺ، مثل التعامل مع الأسرى، مثل أدب النصر والهزيمة، مثل أحكام التعامل مع الكافر المحارب، كل ذلك يعكس منهج النبي ﷺ. وكله نجده في سيرته ﷺ، ونستمد منه القوة والثبات، فإن كانت هناك شدّة فقد عرفها الصحابة رضي الله عنهم في غزوة الأحزاب، والتي نتعلم منها كيف تجاوزها الصحابة رضي الله عنهم، بمواقف النبي ﷺ وثباته وصبره. لقد علمهم ﷺ الثقة بوعد الله تعالى، وحفر بذلك درسًا للمؤمنين على امتداد محور الزمن، يحدوه اليقين.

إن التربية العملية التي تلقاها الصحابة من النبي ﷺ استمرت بعد وفاته، وكان أول درس عملي لها، سيرة أبو بكر رضي الله عنه، فقدمت مدرسة النبوة أروع النماذج للتمسك بمنهج النبي ﷺ وفدائه! وشهد التاريخ على فضائل حسن الاتباع وإقامة شريعة الله تعالى دون تلكؤ أو اجتزاء.

وما شريعة الله إلا سياسة الله لخلقه، وهي ليست كسياسة البشر للبشر، بل هي عظيمة مهيبة، تحفظ جميع التفاصيل منسجمة في نظام حياة كامل لا يدخله القصور ولا النقص.

ولتحقيق حسن الاتباع لشريعة الله تعالى يجب الاقتداء بالنبي ﷺ، وهذا يعني أن نطبق هذه السياسة في كل صغيرة وكبيرة: في إدارة الناس، في العمل، في القيادة، وفي الحروب وسياسة الدول!

فشهادة "مُحَمَّد رسول الله" لا تبقى مجرد كلمات، وليست مجرد عبادات محصورة في حيّز الفرد والأسرة والمسجد، بل هي منهاج كامل يضبط سلوك الفرد والأمة، وينظم حياة الأسرة والدولة، كله وفق هدي النبي ﷺ، فهو الأساس لكل تصرف، وكل قرار، وكل عبادة، وكل إدارة، وكل تعامل مع البشر أو الأحداث.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

والخلق كله لم يُخلق إلا لعبادة الله تعالى. فحياتك كلها يجب أن تكون عبادة. والتفكر في هذه المعاني مهم جدًا لتحويل كل حركاتنا وسكناتنا لعبادات خالصة لله تعالى على منهج النبوة، فإذا قصّرنا فيها، لم نَفِ لهذه المهمة – التي خُلقنا لأجلها– حقها من الوفاء!

الغاية أيها المسلم، ليست الرزق أو الطعام، قال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ﴾ (الذاريات: 57). وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: 58) وقال جل في علاه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: 22).

بل الغاية تمام الغاية، عبادة الله عز وجل، وكل ما تقوم به من مشي في الطرق، تأسيس بيت والزواج، تربية ابن أو ابنة، السعي للرزق والعمل، أو أي نشاط، يجب أن يكون عبادة لله. وحتى تحظى هذه العبادة بالقبول، هناك شروط أساسية لها:

- **الإخلاص لله تعالى: أي أن كل عمل تُقدمه يجب أن يكون خالصًا لله وحده.**
- **المتابعة لهدي النبي ﷺ: فلا تكون العبادة صحيحة إلا باتباع ما شرعه الرسول ﷺ.**

والعبادة ليست مقتصرة على الصلاة والصيام أو الشعائر التعبدية، بل تشمل الحياة كلها قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)﴾ (الأنعام: 162).

فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

أي أن أي شيء تقيسه على مقاصد الشريعة ووافقها فهو عبادة.

حتى الجلسات اليومية، مثل حديثنا الآن، يجب أن يكون عبادة. لماذا نحن نتحدث هنا؟ من أجل أن نرسخ الفهم الصحيح لـ"لا إله إلا الله" ونبيّن مقتضياتها وأثرها في حياتنا، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: 39).

والجهاد، على سبيل المثال، هو جزء من هذه العبادة الشاملة، وهو مشقة على النفس، لكنه وسيلة لتحقيق غاية الدين لله، لإعلاء كلمة الله تعالى، ليس لحب رياسة أو ملك أو شجاعة! ليس لاسم جماعة أو صيت جماعة!

فيا لعظمة هذا الدين يضبط الأعمال الصغيرة كابتسامة لأخيك المسلم بمقياس العبادة، قال ﷺ: " تبسُّمُكَ في وجْهِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ" صحيح الترمذي، ويعظم كل فعل في سبيل الله كما في الحديث:"لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه

طليق"، صحيح الجامع. ويقيم كل ما هو أكبر من ذلك أو أصغر وفق نظام واحد لا يدخله خلل ولا قصور.

ولنتأمل كيف تضبط النيّة أفعالنا وأهدافنا، فإذا كانت ابتسامة المرء تخرج تعبدًا لله تعالى، فهي عبادة حقيقية. وإذا كانت للفت الانتباه أو رياءً أو لنية فاسدة، فالأثر مختلف تماما. وهذا على مستوى ابتسامة، فكيف في مسائل أكبر، كالجهاد والسياسة؟!

فكل حياتك أيها المسلم يجب أن تكون عبادة لله عز وجل، بالإخلاص والمتابعة لهدي النبي ﷺ، فهما الشرطان الرئيسيان. ومن هنا يتضح أن شهادة "لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله" هي الأساس لكل عبادة ولكل عمل صالح، وهي مفتاح الحياة كلها. وما لم نفيها حقها من العلم والعمل، فلم ندرك بعد عظمة هذا الدين وهذه الرسالة!

مفهوم العمل

ننتقل الآن إلى مفهوم العمل. وفي البداية، يجب أن نفهم أن كل شيء يفعله الإنسان هو عمل، وأن العمل يشمل حتى العبادة كالصلاة، الصيام، الزكاة، وكل الأعمال الصالحة. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة: 277). والصلاة والزكاة من "الصالحات"، مما يدل على أن الأصل في كل عمل أنه عبادة، ويجب أن يُؤدى بطريقة صحيحة، مع مراعاة الإخلاص لله تعالى ومقتضيات لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله ﷺ، التي نجدها في القرآن العظيم وفي سنة النبي ﷺ.

لقد وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالخير والرضا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: 96).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: 107).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: 6).

فلا يمكن أن ينفصل الإيمان عن العمل، بل إن "لا إله إلا الله" توجب العمل والسعي للصالحات.

ومفهوم العمل ليس مقصورًا على الشعائر التعبدية فقط، بل يشمل كل نشاط يقوم به الإنسان بنية خالصة لله تعالى. فالعمل الصالح هو أي فعل يحسن المرء فيه النية، ويحرص فيه على المتابعة لهدي النبي ﷺ. حتى الجلسات اليومية والتعاملات اليومية، في التعاون، وتقديم المساعدة، في العمل الإداري والتعليم، كلها أعمال إذا نوى الإنسان بها أن تكون وسيلة لرضا الله تعالى وأن تنضبط بهدي النبي ﷺ، فإنها تحسب أعمالا صالحة.

وعند لقائك لأخيك، تستحضر قول رسول الله ﷺ: " تبسُّمُكَ في وجْهِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ وأمرُكَ بالمعروفِ ونَهيُكَ عنِ المنْكرِ صدقةٌ وإرشادُكَ الرَّجلَ في أرضِ الضَّلالِ لَكَ صدقةٌ وبصرُكَ للرَّجلِ الرَّديءِ البصرِ لَكَ صدقةٌ وإماطتُكَ الحجرَ والشَّوْكَ والعظمَ عنِ الطَّريقِ لَكَ صدقةٌ وإفراغُكَ من دلوِكَ في دلوِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ"، صحيح الترمذي.

وعند القيام بالمهمات الموكلة إليك، مهما كانت صغيرة أو غير ملفتة للآخرين. تستحضر " إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ"، صحيح الجامع.

وعند تلقي الإساءة من لئيم، تستحضر: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: 134) وقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: 199).

وكل مشقة تعيشها، تستوجب الصبر والتحمل في المواقف الصعبة، فالصبر مثل رأس البدن، فبدونه لا يسير الجسد، والصبر على مشقات العمل جزء لا يتجزأ من العبادة. والصبر من أجلّ العبادات التي تُوجب الفضل الواسع ومرضاة رب العالمين لمن احتسب.

والمخلص لربه متقن في كل حاله وظرفه!

قال النبي ﷺ: " إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ"، صحيح الجامع.

فالإتقان يعني القيام بالعمل كاملاً وفق ما أمر الله عز وجل، ومراعاة حقوق الآخرين في كل تفاصيل العمل.

حتى في الأعمال اليومية كالصلاة، يجب الاستعداد لها جيدًا، بإحسان الوضوء، بنظافة الثياب، بالخشوع، بالتركيز وحضور القلب، بتجنب الانشغال بأمور تلهي عن العبادة. كل ذلك جزء من العمل الصالح.

ومفهوم العمل يتضمن القدوة الحسنة، فحين تقدم على عمل صالح، أنت تقدم قدوة للآخرين بحسن آدائك فيه.

واستحضار معنى القدوة يجعل كل ما تقوم به يحظى بالمسؤولية والأمانة، فتتصرف مع كل عمل سواء أكان صغيرًا أو كبيرًا، برقابة الله لك، فالله ينظر لقلبك وعملك. ولا يهمك ما يقوله الناس، إن كان عملك مستوفيًا للشروط الشرعية.

فيا أيها المسلم، اجعل كل أعمالك خالصة لله تعالى، واحرص على متابعة هدي النبي ﷺ، والصبر على المشقات والاحتساب. ليكن همك الأول القبول والإحسان، لتكون قدوة حسنة.

وكل عمل مشروع بنية خالصة لله، وكل صبر وتحمل فيه، هو عبادة، فالعمل ليس مجرد إنجاز مادي، بل هو وسيلة للتقرب من الله ورضاه، وممارسة لحياتنا وفق هدي النبي ﷺ. وفي زمن الفتن يصبح الحرص على الإخلاص في الأعمال والاستكثار من الأعمال الصالحة وسيلة المؤمن للثبات وتجاوز المحن كما في وصية النبي صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيْهَا مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا". صحيح مسلم.

ضبط المصطلحات

بعد التأكيد على مفهوم إخلاص الدين لله تعالى، ومفهوم "مُحَمَّد رسول الله" صلى الله عليه وسلم، ومفهوم العمل كيف يجب أن يكون، ننتقل الآن لضبط مفهوم أساسي في حياتنا، ألا وهو مفهوم المصطلحات.

وحين نتحدث عن "المصطلحات" فنحن نتحدث عما اتفقت عليه الناس، أي "اصطلحوا عليه ومشوا عليه". والمصطلحات ليست مجرد كلمات، بل هي أدوات تُبنى عليها الأحكام والمعاني، ومن خلالها تُفهم الأمور بشكل صحيح.

وأكثر ما تفشى في زماننا تغيير المصطلحات بشكل يضلل المعنى. وهو ما يحاربنا به أعداؤنا، فهم يستعملون المصطلح لغير حقيقته، فيصبح مألوفًا، لكن معناه الحقيقي

يتغير. وليس القصد تغيير أسماء الأدوات والأغراض التي نستخدمها في حياتنا، إنما القصد تغيير المصطلحات التي تتعلق بها الأحكام الشرعية.

فهذا أمر خطير ومضلل بشدة. قال النبي ﷺ محذرًا من تغيير أسماء العبادات: "لا تَغْلِبَنَّكُم الأَعْرَابُ على اسم صلاتِكم، أَلا إِنَّها العِشَاءُ، وهم يُعْتِمُونَ بالإِبِل". وفي رواية: «فإنها في كتاب الله العِشاءُ، وإنَّها تُعْتِمُ بحلابِ الإِبل»[17] ، أي لا تسمحوا بأن يُستبدل اسم صلاة العشاء باسم آخر كالـ"صلاة العتمة"، لأن الاسم يحمل دلالة عظيمة ومضمونًا شرعيًا.

والمصطلح السليم يجب أن يُحفظ، لأنه ليس مجرد لفظ، بل يحمل حكمًا وغاية. وإذا دخل عليه التحريف أو اللبس، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة: 104). فحينها يجب الحذر من استخدامه، لأنه أصبح مسيئًا وغير متسق مع المعنى الأصلي.

وما أكثر المصطلحات المستوردة وغير المتوافقة مع الشريعة في زماننا، وهي مصطلحات مستوردة من ثقافات وملل أخرى، وتأتي محملة بقيم ومعتقدات وأفكار مختلفة. مثل "الديمقراطية" أو "الاشتراكية"، أو مصطلحات التعاملات المالية مثل "الفوائد البنكية" وهي محض ربا، والتي لا يشعر الناس أنها مخالفة صريحة للشريعة إذا لم توزن بمقياس الدين.

وكل مصطلح يستورد من الغرب يضطرنا للتحاكم إليه وفق مقاييس غربية لا تتوافق مع الشرع الإسلامي، كحال الديمقراطية! فإذا استندنا إليها، سنحاكم أنفسنا وفق

---

[17] رواه مسلم في المساجد (٦٤٤) من طريق سفيان بن عيينة، عن أبي لبيد، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمر فذكره.

أفكار خارجية لا تمثل ديننا بل تعارضه، فالديمقراطية في صلبها أن الحكم للأغلبية، وهذا يناقض أصل الإسلام العظيم، الذي لا يتبدل، ولا يجوز التهاون فيه وهو أن الحكم لله وحده لا شريك له.

واليوم استشرت المصطلحات غير المنضبطة بالشريعة، ونذكر منها مصطلح "المقاومة" بدل مصطلح "الجهاد"، فنجد أنفسنا نفتقد المعنى الشرعي والروحاني للجهاد، ليصبح مجرد عمل محدد بزمن ومكان لأجل أهداف وطنية بحتة ومصالح حزبية أو قومية خالصة، وليس جهادًا في سبيل الله تعالى. فيصعب ضبطه وفق الشريعة، لأنه متفلت بمصطلحه الذي هو ضيّق جدًا بالمقارنة مع مصطلح الجهاد الأوسع والأعظم.

لذلك من الضروري الحفاظ على المصطلحات الشرعية الأصيلة وعدم تبديلها بأسماء مغرية أو مستوردة لأنها تصنع هشاشة وتشويهًا للأحكام الشرعية وتفصل المسلمين عن دينهم وعن غايتهم الأسمى.

ولننظر كيف سرت فكرة الدعاية والترويج كما تسري النار في الهشيم، حتى أضحت المؤسسات والنخب تتأثر بها وتستحل الكذب والتدليس في سبيل تلميع الأسماء وإخفاء العيوب، واليوم الكثيرون إلا من رحم الله تعالى، يسلكون مسلك الديمقراطيين والجمهوريين في عرض ما لديهم، ببخس كل حق لدى المنافس وباستحلال الكذب والتدليس وتزيين الصور الظاهرة والتزكية المغترة، على حساب المصداقية والوجل! حتى على مستوى شراء منتج.. أضحى المسلم اليوم مضطرًا للحذر، فالدعاية مضللة ومبخسة لحقوق الغير، وهذا أمر لم يعرفه المسلمون من قبل حتى غزت ديارنا الفكرة الغربية، وأصبح كل شيء مباح في سبيل الشهرة والتصدر والإثارة.

يجب أن ننتبه إلى أن المصطلحات ليست مجرد أسماء، بل تحمل معانٍ وأحكامًا شرعية وقد تمس بحقوق المسلمين وواجب الإنصاف والعدل.

وأن المحافظة على المصطلحات الصحيحة واجبة، لأنها تحدد الأحكام والمعاني وتبقي الارتباط وثيقًا بشريعة الله تعالى لا تنفصل عنها ولا تتفلت.

وأن التعامل مع المصطلحات الأجنبية أو المحرّفة يجب أن يكون بحذرٍ شديدٍ، لأنها قد تصل للكفر والمخالفة لأمر الله تعالى وتعدي حدوده تحت أسماء براقة، جوهرها خطير.

في كل مصطلح وكل كلمة، يجب أن نسأل أنفسنا: هل هذا يتوافق مع شرع الله أم يخالفه؟ لنحافظ على ديننا ومجتماعتنا وأمتنا وغاياتنا مخلصة لله وحده لا شريك له.

بيدك – أيها المسلم– أن تضبط أداءك، وأن تجعل كل ما تفعله في هذه الدنيا خالصًا لله تعالى، وأن تكون عبادتك له عز وجل على منهج النبي ﷺ، مسابقةً إلى الخيرات، مترفّعةً عن كل ما يدنّسها أو يحرفها عن سبيل المؤمنين.

وبحملك يقظةً دائمةً تجاه ما يُكاد للإسلام وما يُدسّ له، فإنك تصون أمانةً عظيمة، تردّدها بلسانك وتحييها في واقعك: لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله؛ أمانةٌ ومنهجٌ وغاية، لا تقبل التبديل ولا البخس ولا الخذلان.

كلمة تصنع بطلا .. تقيم عدلا .. تنصر حقًا .. تحفظ شرفًا.. تبني مجدًا .. تعلي همة .. تحي أمة..

كل العظمة تبدأ من كلمة .. تقتات على أرواحنا .. وتستمر بالثبات على مبادئنا .. وبالصبر على مصائبنا .. وبرجاء ما عند الله.

كلمة واحدة تفعل مفعولها في هذه الأمة فترفعها عزيزة:

إنها كلمة التوحيد.

الانحرافات التي طرأت على مفهوم لا إله إلا الله على امتداد محور الزمن

إن الفهم الشامل لمعنى "لا إله إلا الله" في الرسالة المحمدية، بما يحمله من مقتضيات عملية وحياتية –كما بيّنّا فيما سبق – هو السرّ الذي صاغ خير أمة أُخرجت للناس. فلم تكن هذه الكلمة في الإسلام شعارًا يُردَّد، بل منهجًا متكاملًا، تجاوز في شموله وعمقه كل ما عرفته الأمم السابقة من قبل؛ وهو أمرٌ تفرضه طبيعة هذه الرسالة التي جاء بها الاكتمال الإلهي للدين، قال عز وجل: ﴿اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ علَيْكُم نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: 3).

ثم جاء ختم النبوة ليؤكد أن هذه الرسالة ليست مرحلة عابرة في تاريخ البشرية، بل هي الخاتمة التي لا تليها رسالة، ولا يعقبها نبي، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 40) وزاد هذا الشمول رسوخًا كونها رسالة موجهة إلى الإنسان حيثما كان، لا يحدّها زمان ولا مكان، قال ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

وحين تكون الرسالة مكتملة، وخاتمة، وعالمية، وباقية إلى قيام الساعة؛ فإن مقتضيات "لا إله إلا الله" فيها لا بد أن تكون بدورها شاملة لكل تفصيل في حياة الأمة التي

تحملها، وتتحرك بها، وتُجسّدها في واقعها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهكذا كانت في حقيقتها الأولى: كلمةً حية، نابضة، تصوغ الإنسان والمجتمع، وتوجّه الفكر والسلوك، وتبني أمةً لا تنفصل عقيدتها عن حركتها في الحياة.

غير أن السؤال المؤلم يفرض نفسه: كيف انحسر هذا المعنى الواسع في وعي الأجيال المتأخرة – إلا من رحم الله – حتى غدت لا إله إلا الله مجرد لفظٍ على اللسان؟

والجواب نجده في مسيرة طويلة عبر التاريخ، لها محطاتها وتحولاتها، جرى خلالها تفريغ هذه الكلمة العظيمة تدريجيًا من محتواها الحيّ، وصاحب ذلك تقلّصٌ مماثل في فاعلية الأمة وقوتها؛ فبقدر ما أُهمِلت مقتضيات لا إله إلا الله، ضمر وزن الأمة في ميزان التاريخ.

حتى إذا انتهى الأمر إلى أن تُختزل الكلمة في مجرد نطقٍ بلا التزام، صارت الأمة – كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ – غُثاءً كغثاء السيل؛ كثرة بلا أثر، وحضورًا بلا وزن.

قال رسول الله ﷺ:"يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلةُ إلى قصعتِها". فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: "بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ". فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ ! وما الوهْنُ؟ قال: "حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ"، صحيح أبي داود.

ولم يحدث هذا بين يوم وليلة بل امتد على خط التحولي التاريخي في عمر الانحرافات الممتدة!

أبرز محطات الانحرافات التي طرأت على "لا إله إلا الله"

نحاول فيما يلي، أن نلخص أبرز المحطات التاريخية التي شهدت انحرافًا – كليًا أو جزئيًا – عن مقتضيات "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله"، منذ عصر النبوة إلى واقع الأمة المعاصر، مع التأكيد على أن هذه الانحرافات لم تكن وليدة لحظة واحدة، بل جاءت في سلسلة متراكمة، يبدأ معظمها خللاً في الفهم، ثم يتحول إلى انحراف في التصور، ثم ينتهي إلى خلل في السلوك والنظام والحياة.

لقد بقيت "لا إله إلا الله"، كما علّمها رسول الله ﷺ، في عهده وعهد أصحابه ﷺ، توحيدًا كاملًا شاملاً، يجمع بين: عبادة الله وحده بلا شريك، والتحاكم إلى شرعه، والانقياد العملي لأوامره ونواهيه.

وكانت هذه الحقيقة هي روح الدين وعموده الفقري، ولم يُعرف في تلك المرحلة فصلٌ بين الإيمان والعمل، ولا بين العقيدة والنظام الحاكم.

أول الانحراف: التفريق بين القول والعمل

ولم يظهر أول انحراف عملي إلا بعد وفاة النبي ﷺ، في حروب الردة، حين ظنّ بعض الناس أن الإسلام مجرد نطق بالشهادة، وأن الالتزام ببعض الفرائض – كالزكاة – أمر اختياري لا صلة له بجوهر "لا إله إلا الله". فكان موقف أبي بكر الصديق ﷺ موقفًا

تاريخيًا حاسمًا، أعاد به تعريف الدين في وعي الأمة، حين قال كلمته الخالدة: " واللهِ لَأُقاتِلَنَّ مَن فرَّقَ بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ فإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المالِ، واللهِ لو مَنَعوني عَناقًا كانوا يُؤَدُّونَها إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَقاتَلتُهم على مَنعِها" صحيح البخاري، وفي رواية: " إنَّهُ قدِ انقطعَ الوحيُ وتمَّ الدِّينُ أينقصُ وأنا حيٌّ ؟".[18]

فأثبت بذلك أن " لا إله إلا الله" ليست مجرد كلمة تُقال، بل منهج يُلتزم.

ثم جاء الانحراف الفكري الأول: الغلو والتفريط

وكان ذلك حين جاءت الفتنة الكبرى التي أخبر بها رسول الله ﷺ، فظهرت أول الانحرافات الفكرية في فهم "لا إله إلا الله". فظهر الخوارج، الذين غلوا في الدين، فكفّروا العصاة، وجعلوا التوحيد سيفًا مسلطًا على رقاب الناس، وحوّلوا "لا إله إلا اللهُ" من باب رحمة وعدل إلى أداة إقصاء وسفك.

وفي الجهة المقابلة، ظهرت المرجئة، الذين فرّطوا في مقتضيات التوحيد، ففصلوا بين الإيمان والعمل، وجعلوا الطاعة غير داخلة في حقيقة " لا إله إلا اللهُ" ، فماتت عندهم آثارها العملية في السلوك والمجتمع.

وهكذا بدأ الخلل بين غلوّ يفسد المعنى، وتفريط يفرغه من مضمونه.

---

[18] أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) (2/ 476)، واللالكائي في (شرح أصول الاعتقاد) (2426)، وابن بشران في (فوائده- الجزء الأول والثاني) (624) بنحوه.

الانحراف الكلامي

ثم جاء بعد ذلك الانحراف الكلامي: بتحويل التوحيد إلى قضية عقلية، فمع اتساع الفتوحات، واختلاط المسلمين بالفلسفات الأجنبية، تسللت الانحرافات العقدية، فظهرت الفرق الكلامية كالمعتزلة والجهمية، الذين حوّلوا التوحيد من عبودية قلبية وسلوكية إلى مجرد قضية ذهنية عقلية. فأُوِّلت الصفات، وأُضعفت معاني التعظيم، وأُفرغت "لا إله إلا الله" من آثارها في الخضوع والاتباع. وفي خضم هذه الفتن، وقف أئمة السنة كالإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله– يدافعون عن التوحيد كما جاء به الوحي، لا كما تصوغه العقول المجردة.

الانحراف العملي

ثم جاء الانحراف العملي: في التوسّط بين العبد وربه، حيث شهد التاريخ مرحلة أخرى من الانحراف، تمثلت في التصوف المنحرف، خاصة من القرن الخامس إلى الثامن الهجري، حيث بدأ التوحيد يُنتقص عمليًا بإدخال الوسائط بين العبد وربه، وانتشرت البدع، وظهرت عقائد وحدة الوجود، التي ألغت الفارق الجوهري بين الخالق والمخلوق. وتحوّلت شهادة "مُحَمَّد رسول الله" من اتباعٍ وامتثال، إلى مجرد محبة رمزية، وتبرك بالأسماء والآثار، دون التزام حقيقي بالهدي والسنّة.

اشتداد الانحرافات

واشتدت الانحرافات مع التفكك السياسي والجهل العام الذي رافق ضعف الدولة الإسلامية، خاصة في أواخر العهد العثماني، حيث انتشر الجهل، وغابت معاني التوحيد

عن عموم الناس، وأصبح كثير منهم يظن أن "لا إله إلا الله" مجرد كلمة تُقال، بينما تُصرف أنواع من العبادة لغير الله تعالى، وتُعطّل الشريعة في الحكم.

وكان من أخطر ما أصاب تلك المرحلة تسلل القوانين الوضعية، مما مهّد لسقوط نموذج "الخلافة الإسلامية" أو "الدولة الإسلامية" الذي عرف لقرون طويلة، ثم دخول الاحتلال الغربي، وبداية مرحلة العلمنة الشاملة، التي فصلت الدين عن الحياة، وحصرت التوحيد في زاوية الشعائر الفردية. كانت هذه المرحلة المظلمة مرحلة انسلاخ كبير جدًا عن جوهر "لا إله إلا الله" وتمكن الاحتلال الغربي من ترويض العالم الإسلامي، وانتهت فكرة سيادة الدولة الإسلامية إلى تبعية وانهزامية ممتدة.

محاولات الإصلاح والصراع القائم

ورغم هذا الانحدار، لم يخلُ التاريخ من محاولات إحياءٍ وانبعاثٍ جديد، فظهرت حركات الإصلاح، وعلى رأسها دعوة الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب – رحمه الله–، التي أعادت التأكيد على أن التوحيد ليس مجرد إيمان قلبي، بل منهج حياة، يحكم العقيدة والعبادة والنظام. وبعيدًا عن محاولات "شيطنة" هذه الدعوة المباركة، فقد حفظت بفضل الله تعالى هيبة التوحيد ووقاره، وتصدّت للبدع الشركية وطهرت البلاد من جاهلية مثخنة.

ولا تزال الأمة إلى اليوم تعيش صراعًا حادًا بين فهمين:

- فهم يرى "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" إعلانًا لعقيدة شاملة تحكم الحياة كلها،
- وفهم يحصرها في شعائر فردية منزوعٍ منها أثرها الحضاري والتشريعي.

وهكذا بدأت الانحرافات صغيرة في الفهم، ثم اتسعت في الفكر، ثم تجذّرت في العمل والنظام، حتى أصبحنا نردد الشهادتين بألسنتنا، ونتفاعل مع الحياة بعلمانية مجحفة، بينما الأمة أحوج ما تكون إلى أن تعيشهما واقعًا ومنهجًا من جديد.

طبيعة الانحرافات التي طرأت على مقتضيات لا إله إلا الله

أولًا: الاكتفاء بالتوحيد لفظًا دون تحقيقه عملًا

فيُرَدِّد المرء الشهادة، بينما قلبه معلق بغير الله، أو منقاد لهواه، أو مقدّم لرغباته ومصالحه على أمر الله.

ثانيًا: الانحرافات الكلامية والعقدية

وفي مقدمتها إنكار الصفات أو تحريفها، مما أضعف معاني التعظيم والخشية، وأبعد الناس عن حقيقة التوحيد.

ثالثًا: الابتداع في العبادة والتوسّل بغير الله عز وجل

حتى صارت القبور والأولياء وسائط تُطلب منها الحاجات، وأضاف الغلاة عناصر شركية هدمت التوحيد قولًا وعملًا.

رابعًا: إسقاط معنى "إلا الله" في الحياة الاجتماعية والسياسية

بتقديم الطاعة والولاء والتشريع لغير الله تعالى، تحت مسميات متعددة، مع بقاء الشعار الإسلامي ظاهرًا.

خامسًا: التفسيرات المعاصرة المبتدعة للتوحيد

حيث يُفرغ التوحيد من جوهره، ويُستخدم كشعار لتبرير مواقف أو مشاريع لا تمت للعبودية الخالصة بصلة.

فمن أخطر الانحرافات المعاصرة في فهم التوحيد إعادة تفسير" لا إله إلا الله" بما يفرغها من جوهرها العملي، ويُبقيها شعارًا بلا مقتضى؛ فتُختزل في تجربة روحية فردية معزولة عن التشريع والحياة العامة، أو تُحوَّل إلى رمز ثقافي أو هويّاتي لا يلزم صاحبه بطاعة ولا التزام، أو تُستعمل لتبرير واقع سياسي أو اجتماعي فاسدٍ باسم المصلحة أو المقاصد أو المرونة، أو تُسخَّر لإضفاء الشرعية على الاستبداد وإسكات فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يُنتقى منها ما يوافق الأهواء ويُسقط ما يعارضها، فيُقرّ بتوحيد الربوبية أو بعض مظاهر العبادة، ويُفرَّغ توحيد الطاعة والحكم والتشريع من مضمونه. كما يُفصل التوحيد عن "مُحَمَّد رسول الله"، فيجري الحديث عن عبودية بلا اتباع، ودين بلا سنة، ونصوص تُؤوَّل حتى تفقد دلالتها، ويتحول التوحيد من عقد عبودية شامل يحرر الإنسان من الخضوع لغير الله تعالى، إلى لافتة فكرية تُستعمل لخدمة مشاريع بشرية، بينما يبقى الواقع محكومًا بالهوى أو العرف أو القوة أو الضغط الخارجي. وهذا الضرب من الانحراف أخطر من الإنكار الصريح؛ لأنه يُبقي الاسم ويقتل الحقيقة، ويُردد الشهادة باللسان، بينما تُعطَّل آثارها في السلوك والنظام والحياة.

إن أخطر ما في هذه الانحرافات أنها تُقدَّم أحيانًا بوصفها "تطورًا طبيعيًا"، بينما هي – عند عرضها على ميزان الوحي وفهم السلف – تشويه خطير لمقتضيات لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله.

وما لم تُستعاد هذه الشهادة كما نزلت: عقيدةً، وعبادةً، ونظامًا، فلن تستعيد الأمة عافيتها، ولا دورها، ولا رسالتها.

ولو نظرنا بشيء من التفصيل لوجدنا من أخطر العوامل التي أسهمت في تفريغ «لا إله إلا الله» من مقتضياتها الحيّة، ذلك الفكرُ الإرجائيّ الدخيل، الذي زعم أن الإيمان مجرد تصديقٍ قلبيّ، أو تصديقٍ قلبيّ مع إقرارٍ لسانيّ، وأن العمل ليس داخلًا في مسمّى الإيمان! والعجب كل العجب: كيف تسلّل هذا التصوّر إلى ساحة الإسلام، والإسلام في جوهره دين عملٍ وحركة؟ فلا دعوة تقوم بغير عملٍ وجهاد، ولا دولة تُبنى بغير عملٍ وجهاد، ولا شريعة تُطبّق بغير عملٍ وجهاد، ولا مجتمعٌ يلتزم أوامر الله في واقع الحياة يقوم بغير عملٍ وجهاد، ولا إعدادٌ للقوة التي أمر الله بها يتم بغير عملٍ وجهاد، ولا عمارةٌ للأرض وفق المنهج الرباني تتحقق بغير عملٍ وجهاد.

لا شيء، لا شيء في هذا الدين ينفصل عن العمل. فكيف يُقبل بعد ذلك فكرٌ يقول: إن الإيمان تصديقٌ وإقرار، ولا علاقة له بالعمل؟!

لقد جاءت هذه البلوى من عدوى المنطق والفلسفة، حين أُريد للإيمان أن يُحاصر داخل تعريفٍ فلسفيٍّ جامد، فقيل: إن التعريف الحق هو ما لا يزيد ولا ينقص، فحُصر الإيمان في التصديق والإقرار!

ويا لها من مهزلة: أن تتحكّم مقاييس البشر – ولا سيما الجاهليين منهم – في تعريف دين الله عز وجل، وقد تولّى الله سبحانه تعريفه بنفسه، وبيّنه رسوله ﷺ، وفصّله القرآن والسنة بيانًا لا لبس فيه. قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: 10)، وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: 59).

غير أن هذه المهزلة – رغم كونها أثرًا من آثار الغزو الفكري اليوناني – ظلت زمنًا محصورة في دوائر علم الكلام، حبيسة الأبراج العاجية، لا تمسّ واقع الناس. وكان المسلمون آنذاك يتلقّون دينهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، غير عابئين بتلك المجادلات النظرية المنفصلة عن واقع الحياة.

إلا أن الطامة الكبرى وقعت حين بدأ الناس يتفلّتون من التكاليف بشكل كبير، وبداية التفلت من التكاليف والغفلة عنها، طبعٌ بشريٌّ قديم، صاحب الإنسان منذ نشأته الأولى:، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: 115). غير أن الله جعل لهذا الداء دواءً: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: 55).

وحين كان الناس في القرون المفضّلة يجدون من يذكّرهم بالقدوة قبل القول، كان الانحراف محدودًا، والخطر محصورًا. فلما طال الأمد، وازداد التفلت، وقلّ التذكير بالقدوة الصالحة، بدأ الفكر الإرجائي يهبط من الأبراج العاجية إلى ساحة الواقع، ليملأ الفراغ الذي خلّفه انحسار العمل بمقتضيات "لا إله إلا الله".

ولتقريب الصورة: حين كان العمل بمقتضيات التوحيد قريبًا من الكمال، لم يكن للفكر الإرجائي موطئ قدم. فلما انحسر العمل قليلًا، نزل الفكر الإرجائي ليقول: "إيمانكم كامل رغم هذا النقص". ثم ازداد الانحسار، فاتّسعت رقعة الإرجاء، واشتدّ تبريره. حتى انتهى الأمر إلى القول: "من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملًا واحدًا من أعمال الإسلام!".

ومع ما في هذه المقولة من انحرافٍ خطير، فقد جاء في الأزمنة المتأخرة ما هو أشدّ وأدهى؛ إذ صار مجرد النطق بالشهادة حاجزًا يمنع من الحكم بالكفر مطلقًا، ولو نقض صاحبها «لا إله إلا الله» بأقواله وأفعاله عشرات المرات في اليوم الواحد!

إنها رحلة الانحدار حين تُفرَّغ الكلمة العظمى من روحها، ويُفصل الإيمان عن العمل، ويُطمس جوهر «لا إله إلا الله» التي قامت بها السماوات والأرض.

إن جوهر المشكلة في حقيقتها يعود إلى تفلت الناس من التكاليف، مقرونًا بقلة التذكير بالقدوة العملية، وانصراف عددٍ غير قليل من العلماء عن مهمتهم الأصيلة في التربية، وانكفائهم على التعليم المجرّد وحده؛ مع أن رسالتهم – وهم ورثة الأنبياء – كانت ولا تزال تقوم على التربية والتعليم معًا، لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

نعم، هذا هو الأصل، غير أن الفكر الإرجائي أسهم بلا شك في تفاقم الأزمة وتعميقها. فالناس – وكل بني آدم خطّاء – إذا أخطؤوا وهم يدركون أنهم على خطأ، ظلّ الانحراف – مهما اتّسع – محصورًا في السلوك، لأن التصوّر لا يزال سليمًا. أما إذا كُسيت الأخطاء لباس الشرعية، وأُلبست ثوب الاطمئنان، فكيف يمكن حينها أن تقف عند حدّ؟

لو أن الناس تفلّتوا وهم يشعرون أن إيمانهم مهدَّد بهذا التفلت، لكان ذلك أدعى إلى يقظتهم، وأقرب إلى عودتهم، لا سيما إذا وجدوا من يذكّرهم ويأخذ بأيديهم. أما حين يتفلّتون، ثم يجدون من يطمئنهم إلى كمال إيمانهم رغم تفريطهم، فمن ذا الذي يبقى في ضميره دافعٌ للرجوع إلى ما تخلّى عنه من تكاليف؟

لقد كان الفكر الإرجائي – في هذه المرحلة – مخدّرًا خطيرًا؛ يوهم العصاة والمقصرين والغافلين أنهم بخير، وأن لا خطر يتهدّدهم، ما داموا يصدقون في قلوبهم بوحدانية الله، وينطقون بألسنتهم: لا إله إلا الله.

ثم جاء الاستبداد السياسي ليقتطع بدوره قِسطًا آخر من مقتضيات لا إله إلا الله.

إن الشمول الذي جاءت به هذه الكلمة العظمى في الرسالة المحمدية لم يكن عبثًا، بل لحكمة جليلة في المنهج الرباني؛ وهي أن تُحكم الأرض كلها بمقتضى هذا المنهج، في كل جزئية من جزئياتها، ليقوم الناس بالقسط. وقد علم الله سبحانه، أن العدل السياسي لا يقوم اعتمادًا على ضمير الحاكم وحده؛ فالسلطة مفسدة، إلا من رحم الله. لذلك لم يترك الله الأمر لمشيئة الحاكم: إن

شاء عدل وإن شاء طغى، بل جعل الأمة مسؤولة عنه مسؤولية مباشرة، كما في قوله ﷺ: "كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم!" رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما بعث الله من نبي في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويهتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل".

وصحيح أن النبي ﷺ شدّد في النهي عن الخروج المسلح على الحاكم المسلم الذي يطبق الشريعة، إذا وقع منه الجور، خشية الفتنة التي تمزّق صف المسلمين وتبدّد وحدتهم وتصرفهم عن رسالتهم الكبرى في هداية البشرية؛ لكنه لم يدعُ إلى السكوت على الظلم، كما يأمر بذلك غلاة الطاعة، بل حذّر من عاقبة الصمت عليه والإسلام دين العدل وحفظ الحقوق، قال رسول الله ﷺ: " مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ. ومَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهوَ شَهيدٌ . ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فهوَ شَهيدٌ ". حسن صحيح.[19]

[19] أخرجه أبو داود (4772)، والنسائي (4095)، وأحمد (1652) بلفظه.

وفي حديث مسلم: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم"، قالوا: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: "لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة".

وعن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "على المرءِ المسلم السمْع والطاعة فيما أحبّ وكَرِه إلا أن يُؤْمَر بمعصية، فإن أُمِرَ بمعصية فلا سَمْع ولا طاعة". رواه مسلم.

وعن كعب بن عجرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «سيكونُ بعدي أمراءُ، فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبِهم، وأعانهم على ظلمِهم، فليس مني ولستُ منه، وليس يرد عليَّ الحوضَ. ومن لم يصدِّقهم بكذبِهم، ولم يُعِنهم على ظلمِهم، فهو مني وأنا منه، وهو واردٌ عليَّ الحوضَ» (رواه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب).

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كان النَّاسُ يَسألونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَنِ الخَيرِ، وكُنتُ أسألُه عَنِ الشَّرِّ مَخافةَ أن يُدرِكَني، فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا في جاهِليَّةٍ وشَرٍّ، فجاءَنا اللهُ بهذا الخَيرِ، فهل بَعدَ هذا الخَيرِ مِن شَرٍّ؟ قال: نَعَم، قُلتُ: وهل بَعدَ ذلك الشَّرِّ مِن خَيرٍ؟ قال: نَعَم، وفيه دَخَنٌ، قُلتُ: وما دَخَنُه؟ قال: قَومٌ يَهدونَ بغيرِ هَديي، تَعرِفُ منهم وتُنكِرُ، قُلتُ: فهل بَعدَ ذلك الخَيرِ مِن شَرٍّ؟ قال: نَعَم، دُعاةٌ إلى أبوابِ جَهَنَّمَ، مَن أجابَهم إليها قَذَفوه فيها، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، صِفْهُم لَنا؟ فقال: هُم مِن جِلدَتِنا، ويَتَكَلَّمونَ بألسِنَتِنا، قُلتُ: فما تَأمُرُني إن أدرَكَني ذلك؟ قال: تَلزَمُ جَماعةَ المُسلِمينَ وإمامَهم، قُلتُ: فإن لَم يَكُنْ لهم جَماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال:

فاعتَزِلْ تلك الفِرَقَ كُلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شَجَرةٍ، حتَّى يُدرِكَكَ المَوتُ وأنتَ على ذلك. صحيح البخاري.

وقد عرف تاريخ الأمة وقوف العلماء – ورثة الأنبياء – في وجه الظلم، وأخذهم الحكّام على الحق أخذًا شديدًا، ولو دفعوا ثمن ذلك من حريتهم وأجسادهم، كما صنع الإمامين أحمد وابن تيمية – رحمهما الله تعالى – وغيرهم.

غير أن الحكام الجبريين غلو في استبدادهم، متذرعين بشتى الذرائع، وخوّفوا الناس من "الخوض في السياسة"، وتدخلوا في العقيدة والدين، وراقبوا العلماء وحاصروا مساحة حرياتهم، ليخضعوا الناس لأهوائهم ومصالحهم، وأيًّا كانت مبرراتهم، فقد أحدث ذلك ثلمة عميقة في مقتضيات "لا إله إلا الله"، ثلمة امتد أثرها عبر التاريخ، حتى صار الاستبداد بالسلطة كأنه أصلٌ في حياة الحكّام – إلا من رحم الله –، وتوارثته الدول جيلا بعد جيل. ومع هذا المسار، حدث انحسار تدريجي في شمول الدين، وانكمش مفهوم "الدين" في وعي الناس من الشأن العام إلى الشأن الخاص، ومن منهجٍ شاملٍ للحياة إلى شعائر تعبدية مجرّدة.

والشعائر لبٌّ عظيم من الدين ومظهره العملي، لكنها ليست الدين كله.

وهكذا تحالف الفكر الإرجائي والاستبداد السياسي على تقليص مساحة الدين الحقيقية، وتجريد كثير من مجالات الحياة من ظله الوارف، وتحجيم فاعليته في الواقع، حتى تُركت ميادين واسعة للفساد تعيث فيها بلا رادع. ومع ذلك، فقد بقي في الأمة

خيرٌ كثير – بحمد الله تعالى – بسبب ضخامة الأصل الذي نزل به هذا الدين يوم طُبّق كاملًا كما أنزله الله. ولهذا لم تستطع كل موجات الانحراف أن تقضي على الأمة، ولا أن تمحو الدين من حياتها؛ فقد سبقت مشيئة الله عز وجل أن يبقى هذا الدين إلى قيام الساعة، وأن تبقى الأمة التي تحمله، مهما أصابها من وهن، ويبعث الله لها على مرّ القرون من يجدد لها أمر دينها ويدعوها إلى العودة إليه.

غير أن بقاء هذا الخير جعل كثيرين يتغافلون عن حجم الانحسار الواقع، فزاد الانحسار، خاصة في الجوانب الاجتماعية، حتى استغله الغزو الفكري لاحقًا ليقول للناس: "هذا هو الدين القائم"! ثم يشير إلى واقعٍ مملوءٍ بالفساد والظلم ليصرفهم عن الدين، ويزرع في نفوسهم اليأس من قدرته على إصلاح الحياة.

لقد فرّطت الأمة تفريطًا عظيمًا في الأمانة التي حمّلها الله إياها، حين أهملت من مقتضيات "لا إله إلا الله" ما أهملت، وأقصت من مدلولها ما أقصت. وكان ثمرة ذلك خسرانًا فادحًا، لم يقتصر أثره على حياة الأمة وحدها، حتى صارت –كما أخبر النبي ﷺ – غثاءً كغثاء السيل، بل امتدّ أثره إلى حياة البشرية كلها؛ إذ جعل الله حال الإنسانية مرتبطًا بحال هذه الأمة منذ أخرجها للناس.

الصوفية المنحرفة

ثم جاءت الصوفية المنحرفة لتُكمل دائرة الانحسار.. دائرة التراجع عن مقتضيات لا إله إلا الله في واقع الحياة. لقد كانت الصوفية – شأنها شأن الفكر الإرجائي – دخيلة

على الإسلام؛ ذلك الإسلام الذي هو دين العمل والحركة، ودين المواجهة والجهاد لإقامة المنهج الرباني في واقع الأرض، لا دين الانسحاب والانكفاء والاعتزال.

نعم، إن الإسلام يدعو إلى الزهد في متاع الدنيا، وسيد الزهّاد هو رسول الله ﷺ، الذي لو شاء لامتلك مفاتيح الأرض كلها، لكنه زهد فيها إلا ما يقيم الأود ويحفظ الحياة. أي يصلح الحاجة ويقومها.

نعم، الزهد خلقٌ إسلاميٌّ أصيل، والاكتفاء من الدنيا بأقل القليل منهجٌ رباني واضح، لكن بعد هذه النقطة لا لقاء بين الزهد والصوفية.

كان ﷺ زاهدًا، فهل اعتزل الناس في صومعة بعيدًا عن معترك الحياة؟

كان زاهدًا، فهل قال: دع الخلق للخالق، إن شاء هداهم، وعليك بخاصة نفسك؟

كان زاهدًا، فهل كفّ لحظة عن الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا؟

بل كان داعيًا، ومربيًا، ومجاهدًا، وحاكمًا، ومخططًا، وساعيًا في الأرض بكل طاقته.

حتى مشيته ﷺ –كما تذكر كتب السيرة– كان يمشي كأنما يتقلّع من الأرض تقلّعًا.

فما أبعد سلبية الصوفية، وعزلتها، وتواكلها عن إيجابية الزهد الإسلامي، وحركته، وفاعليته في تغيير الواقع والارتقاء به.

إن فكرة الفناء التي ناضلت الصوفية من أجلها، فكرة هندية الأصل، لا تمتّ إلى الإسلام بصلة. وكذلك فكرة خلاص الروح بتعذيب الجسد أو إهماله أو إهانته. وفكرة اعتزال الواقع الملوث وتركه يعج بالفساد للنجاة الفردية، هذه كلها أفكار مارستها الرهبانية النصرانية، وليست من الإسلام.

فكيف تسلّل هذا الخليط إلى حياة المسلمين؟

في الصوفية الهندية، يسعى الإنسان إلى الخلود بالفناء في "النرفانا" والاتحاد بالروح الأعظم، ولا يتحقق ذلك – بزعمهم – إلا بإذلال الجسد وتعذيبه، حتى تنطلق الروح من قيودها. وهكذا تُعطَّل دفعة الحياة، ولا يُعدّ ذلك خسارة، بل مكسبًا، لأن الحياة الدنيا عندهم دنسٌ وقيد.

وفي النصرانية، يُنظر إلى الإنسان على أنه خاطئ بطبعه، لا يُرجى له صلاح ما دامت الحيوية فاعلة فيه، لأنها – بزعمهم – موطن الشيطان، ولا يتحقق "ملكوت الرب" في الدنيا، بل يُؤجَّل إلى الآخرة بعد قهر الجسد وقتل الدوافع.

وهذا وذاك ليس من الإسلام في شيء.

فالخلود في النعيم – وهو غاية آمال الإنسان – لا يُنال إلا بالإيمان والعمل الصالح والجهاد لإعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: 107) وقال سبحانه: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ (آل عمران: 195). وقال جل في علاه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: 142).

نعم، الجسد وعاء الشهوات، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والشهوات مدخل من مداخله، لكن العلاج في الإسلام لم يكن قط بقتل هذه الشهوات من

أصلها، ولا بإهانة الجسد وتعذيبه. لقد خلق الله هذه الدوافع لتكون محركًا لعمارة الأرض والخلافة فيها. فإذا قُتلت، فمن الذي يعمر؟ ومن الذي يحمل الأمانة؟

إنما العلاج في الإسلام ضبط الشهوات لا إعدامها، وتوجيهها لا خنقها: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: 32).

فالضوابط هي ما أنزله الله من حلال وحرام، ومباح وغير مباح. وإذا التزم العبد بهذه الضوابط، فإن إشباع الدوافع لا يكون مباحًا فحسب، بل مأجورًا، كما في الحديث: "وفي بُضعِ أحَدِكُم صَدَقةٌ"، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أيَأتي أحَدُنا شَهوتَه ويَكونُ له فيها أجرٌ؟ قال: "أرَأيتُم لو وضَعَها في حَرامٍ، أكان عليه فيها وِزرٌ؟ فكَذلك إذا وضَعَها في الحَلالِ كان له أجرٌ"، صحيح مسلم.

وليست الشهوة دنسًا، بل الدنس هو تجاوز الحد.

إن المسلم لا يسعى إلى قتل دوافعه ليهرب من سلطان الشيطان، بل يلتزم بأوامر الله تعالى، فلا يجد الشيطان إليه سبيلًا، وعندها يتحقق ملكوت الله في الحياة الدنيا، لا مؤجَّلًا إلى الآخرة.

نعم، الإنسان خطّاء، لكن خطأه لا يُسقط عنه تكليفه، ولا ينفي عنه تكريمه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: 70)، وقد كلّفه الله – بما وهبه من عقل وطاقات – أن يقيم منهجه في الأرض، ويحقق العبودية له وحده. والذين يقيمون ملكوت الله في الأرض لا يتحولون إلى ملائكة، بل يخطئون ويتوبون، ويقعون ويقومون، فيشملهم فضل الله ورحمته.

وهكذا يتبيّن أن الصوفية، حين جاءت في زمن كان يشهد انحسارًا تدريجيًا لمقتضيات لا إله إلا الله – خاصة السياسية والاجتماعية – زادت الأمر سوءًا، فأكدت الانسحاب الفردي، وعطّلت فريضة الجهاد بمعناها الشامل، وقدّمت مخدّرًا جديدًا إلى جانب المخدّر الإرجائي، إنه الوصول إلى الله لا بالعمل، ولا بالجهاد، بل بالأوراد، والأذكار المجردة، والأضرحة، وبركات المشايخ، والخوارق والكرامات. وبذلك اكتملت دائرة الانحسار، وتقلّص الدين في وعي الناس، وتُرك الواقع فريسة للفساد، وما كان هذا قط هو الإسلام.

الغزو الفكري

وأخيرًا نصل إلى الحديث عن الغزو الفكري، وآثاره العميقة في تفريغ "لا إله إلا الله" من مقتضياتها. ومن المهم أن يُعلَم أن هذا الغزو لم يكن جولة واحدة في تاريخ الأمة، بل جولتين متمايزتين.

الجولة الأولى: غزوٌ في زمن القوة

وقعت الجولة الأولى والأمة في عنفوانها وقوتها، وكان منشؤها خطأً جسيمًا وقع فيه فريق من "مفكري" الأمة، حين ظنوا أن الفلسفة الإغريقية والمنطق اليوناني أدوات محايدة يمكن تسخيرها لخدمة الإسلام. وكان هذا – بحق – أمرًا عجيبًا، لكنه وقع. عجيب؛ لأن الأمة، في حركة الترجمة الواسعة التي قامت بها عن التراث الإغريقي، كانت تمتلك وعيًا نقديًا واضحًا، فكانت تنتقي مما تنقل ما تراه نافعًا، وتعرض عمّا لا ينسجم مع عقيدتها. ودليل ذلك أنها – رغم كثرة ما ترجمت– لم تترجم الأساطير

اليونانية، لما رأت فيها وثنيةً صريحة، وعبثًا بالآلهة لا يليق بجلال الله الذي آمنت به، فاكتفت بنقل العلوم التجريبية والرياضية والطبية.

غير أن فريقًا من المفكرين انخدع بالفلسفة والمنطق، ظنًّا منهما أنهما أدوات محايدة لا تخدم الوثنية بالضرورة، ويمكن توظيفهما في خدمة الإسلام. وساعد على هذا الخطأ أن بعض الخلفاء العباسيين أحدثوا بدعة غريبة، حين فتحوا أبواب المناظرات اللاهوتية مع متكلمي اليهود والنصارى، فكان أولئك يتكلمون في الإسلام بما شاء لهم هواهم، ثم يُطلب من المسلمين الرد عليهم. ولما كان اللاهوت اليهودي والنصراني قد استعان بالمنطق والفلسفة اليونانية في عرض عقيدته، رأى بعض المفكرين المسلمين أن تعلم هذه الأدوات ضرورة للمناظرة! وفي الواقع، كانت تلك عملية عبثية أكثر منها جادة؛ فما أغنى الإسلام عن العبث اللاهوتي، وما أغنى الدين الرباني عن وسائل لشرحه غير القرآن والسنة، وقد قال النبي ﷺ: " تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرّقا حتى يردا على الحوض". أخرجه مالك مرسلاً، والحاكم مسنداً وصححه.

ومهما يكن، فقد كانت ثمرة هذا العبث نشأة ما عُرف في التاريخ الإسلامي بعلم الكلام، وظهور ما سُمّي بـ الفرق الإسلامية، التي صاغت فهمًا فلسفيًا إغريقيًا لـ "لا إله إلا الله"، ما أنزل الله به من سلطان.

ومع ذلك، بقي أثر هذه البلوى محصورًا في نخبة من المتكلمين، ولم يمسّ جمهور الأمة الذي ظل محتفظًا بسلامة فطرته. لكن الخطر الحقيقي بدأ حين اقتُطعت مقتضيات "لا إله إلا الله" من واقع الحياة، فوجدت تلك الفرق فرصة للنزول إلى الساحة، واجتذاب

الجماهير، والاحتماء بهم من نقد العلماء الثابتين على الفطرة والمنهج الصحيح. وكان الفكر الإرجائي من أخطر ما خرج من رحم هذه الفرق.

الجولة الثانية: الغزو الفكري المعاصر

أما الجولة الثانية – وهي الأخطر – فقد جاءت في العصر الحديث، وجاءت والأمة في حالة خواء غير مسبوقة. توغّل الغزو هذه المرة في حياة الأمة توغلًا لم يسبق له مثيل؛ لأنه وجد "لا إله إلا الله" قد سُلبت معظم مقتضياتها، ولم يبقَ منها إلا فتات متناثر، لا يُقيم عقيدة صحيحة، ولا عبادة صحيحة، ولا ممارسة صحيحة، بل أقرب إلى أن يكون تقاليد موروثة خاوية من الروح. حتى الشعائر التعبدية – التي كان الدين قد انحصر فيها – تحولت بدورها إلى عادات اجتماعية، وفقد الدين تلك القوة الدافعة التي كانت له يوم كان فاعلًا في جميع مجالات الحياة. ومع هذا الانحسار الشامل، بقي في حياة المسلمين أمران لم يمسهما الانهيار بعد: الشريعة، والصلاة – أو قل: الشعائر التعبدية – وهذا بالضبط ما جاء الغزو الفكري ليستأصله.

وينبغي ألا ننسى أن الغزو – عسكريًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو فكريًا – لم يأتِ إلا بعد هذا الانحسار. فلولا تراجع الأمة عن مقتضيات "لا إله إلا الله"، لما تجرأ أعداؤها على غزوها، وقد ذاقوا الهزيمة الساحقة في الحروب الصليبية الأولى. لكنهم كانوا يترقبون، فلما رأوا الأمة وقد غفت تحت مخدر الإرجاء والصوفية، وتخلت عن إعداد القوة، وعن عمارة الأرض، وعن طلب العلم، وعن السعي للتمكين، وعن ممارسة

الأخوة، وعن إقامة العدل الرباني، عندئذ وجدوا الفرصة سانحة، فجاءوا بخيلهم ورجلهم، وعاثوا في أرض الإسلام فسادًا.

ومع أن ما بقي من الإسلام لم يكن سوى بقايا متناثرة، فإن الأعداء لم يطمئنوا حتى إليها؛ لأنهم يعرفون هذا الدين جيدًا، ويعرفون قدرته العجيبة على الانبعاث المفاجئ.
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: 146).

وقد قال المستشرق "جب"[20] إن أكثر ما يفزع الغرب من الإسلام هو قابليته الدائمة للعودة. فما دامت الشريعة قائمة، وما دامت الشعائر موجودة، فقد بقيت أسباب الانبعاث الحية والتي قد تنشط فجأة بلا إنذار. لذلك كان لا بد – في نظرهم – من القضاء حتى على هذا الظل الباهت من الدين.
وعمل الأعداء – بكل ما أوتوا من مكر – على إزالة تلك البقايا، لا سيما في القاهرة وإسطنبول، مع إسقاط الدولة التي كان المسلمون يلتفون حولها باعتبارها دولة الإسلام. وقد نجحوا – في أقل من قرن – فيما عجزوا عنه خلال اثني عشر قرنًا، لا لقوةٍ فيهم، بل لخواءٍ في الأمة. وكان هجومهم كاسحًا، وكان نجاحهم كاسحًا.
حتى ليعجب المرء حين ينظر إلى تاريخ القرن الماضي، كيف تحولت الأمة هذا التحول المفزع في زمن قصير. لكن العجب يخفّ حين ندرك أنها لم تكن آنذاك الأمة التي

[20] المستشرق البريطاني هاملتون جب.

أخرجها الله لتكون خير أمة، بل كانت بقايا أمة، كالمريض الذي يترقب من حوله لحظة موته.

وقد استُغل هذا الواقع أسوأ استغلال، فقيل للناس:" هذا هو الدين الذي أوصلكم إلى التخلف! فانبذوه لتتحرروا وتتقدموا!". وكذبوا. فدين الله لم يكن يومًا إلا عزًا، وكرامة، وقوة، وعدلًا، وعلمًا، وتمكينًا. أما الذي كان في الواقع، فهو دين مشوَّه صنعه البشر، فلا عجب أن تكون ثماره ضعفًا وانحطاطًا.

لكن الناس – يومئذ – لم يكونوا على وعي: لا بحقيقة ما يتمسكون به، ولا بخطر ما يُدعون إليه.

وسواء كان دعاة التغريب مخلصين أو عملاء، فالنتيجة واحدة؛ فالعميل المستغفَل أخطر من العميل المأجور، لأنه يُخدع الناس بظاهر إخلاصه.

وهكذا بدأت الدعوة إلى التغيير الشامل: في العادات، والأفكار، والنظم، والصورة، والمضمون. لكنهم لم يجرؤوا في البداية على مهاجمة الإسلام صراحة؛ فهاجموا "التقاليد البالية"، و"التخلف"، و"الرجعية"، وربطوا ذلك كله بـ "جمود رجال الدين"، وكانت هذه الخطوة الأولى في مسخ الهوية.

فأُلغيت الشريعة من واقع الحياة، وحُصرت في الأحوال الشخصية، وسُخِر من المتدين، وشُوِّهت الصلاة، ونُشِر الفساد باسم الحرية، والتغريب باسم التقدم.

ثم انتقل الأمر من التمهيد إلى الهجوم الصريح: بالدعوة إلى السفور وخلع الحجاب، بإلغاء الشريعة، بمحاربة التعليم الديني، بتشريع الربا، بتغيير الهوية والزيّ، بمحو كل مظهر إسلامي، واستبداله بتقليد غربي أجوف. لا ما أُزيل كان حقيقة الإسلام، ولا ما أُخذ من الغرب كان حقيقة تقدمه، بل قشور بلا جوهر، وفساد بلا تمييز.

وهكذا، في قرن واحد، فُعِل بالأمة ما عجز عنه الأعداء في اثني عشر قرنًا، لا لقوة الغزو، بل لضعف الداخل، ولفراغ "لا إله إلا الله" من مقتضياتها.
وصدق رسول الله ﷺ:" لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة"[21].

وفي نهاية هذا الاستعراض لتاريخ الانحرافات التي طرأت على مقتضيات "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله"، ومع كمّ التعقيدات والتداخلات في المشاهد وما أحدثته تفرعات البدع من زيادة انحراف وتشويش، نرى أن الأمة اليوم ما تزال تواجه آثار هذه الانحرافات، التي امتدت عبر القرون من فهم خاطئ إلى تطبيق منحرف، ومن زهد مشوه إلى فلسفات دخيلة، ومن استسهال القول دون العمل إلى تسويغ شعارات بلا مضمون. لقد وصل الحال بنا اليوم إلى مرحلة يُختزل فيها التوحيد في الكلمات والشعائر الفردية، بينما طاقة الإسلام الحقيقية في بناء مجتمع عادل ومنهجي، وتوجيه

[21] رواه أحمد وغيره وصححه الحاكم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.

السياسة والاقتصاد والثقافة، غائبة أو محجوبة تحت ضغط العادات والتقاليد الفارغة، والفكر المستورد، والانحرافات الحديثة التي تبرر المواقف الفردية والجماعية باسم الدين.

ولا يخفى أن أمراض ما بعد الحداثة وانفلات الفكر الغربي، وتسربه إلى المجتمعات الإسلامية قد عمّقت هذه الانحرافات، فباتت الفردانية والتفكير النسقي غير الملتزم بالشرع يبرّر تبني المظاهر والأنماط السطحية، وتقليد الغربي دون وعي أو تمييز. كما أن التقنية والتطور والحداثة، رغم ما تحمله من إمكانات عظيمة، سهلت انتشار هذه الأمراض الفكرية بسرعة غير مسبوقة، فأسست لعالم رقمي يعمّق الانعزال عن الشريعة، ويجعل الفرد غارقًا في شهواته وميوله الشخصية، بعيدًا عن الانضباط الروحي والسلوكي الذي يفرضه التوحيد على حياة الإنسان.

ورغم هذا الواقع المؤلم، يبقى الطريق أمام الأمة واضحًا، وهو العودة إلى فهم التوحيد الصحيح كما علمه النبي ﷺ، لا محاولات جمع المتناقضات الفاشلة، وتطبيق مقتضياته عمليًا في كل مجال من مجالات الحياة، فلا يظل مجرد شعار يُتلى على الألسنة، بل منهج حياة يحيي الأرض ويقيم العدل، ويرسخ العبادة الخالصة لله وحده، ويستنهض الأمة من سباتها الروحي والفكري، لتعود قوة حقيقية قائمة على الصلاح والعمل، لا على التظاهر والفراغ من الجوهر.

إن كل انحراف شهدته الأمة على مر العصور، سواء في العقيدة أو العبادة أو السلوك، قد حذر النبي ﷺ منه، فنبأ عن تداعي الأمم وترك الدين وانحراف الناس، مقدمًا لهم العلاج الشافي والنهائي الذي يعيدهم إلى صراط النبوة الحق. وقد بشر النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن هذا المنهج سيعود ويُقام على أتم صورة في آخر الزمان، ليُحيي الأمة من جديد، ويعيد لها عظمتها وحيويتها وفق ما أراده الله عز وجل.

فلا شيء يفي مقام النبي ﷺ حقه من الشكر والامتنان، فهو الذي أضاء للبشرية طريق الهداية، وهدى القلوب إلى نور الله تعالى، وعلمنا الحق إلى آخر الزمان.

أمة الإسلام تجتاز امتحان الحياة بالتوحيد.

أحيوا معاني التوحيد .. تنجو الأمة.

ولكن: بإخلاص الدين لله وحده لا شريك له!

نواقض "لا إله إلا الله"

إنَّ الفقهاء المتقدمين لم يواجهوا من تشابك الواقع وتعقّد الفتن ما يواجهه هذا الجيل؛ إذ كان نقض لا إله إلا الله في القرون الأولى أمرًا نادر الوقوع، ظاهر المعالم، يُقابل بالحكم الشرعي الذي قرره الله في شأن المرتد بلا مواربة ولا التباس. أما في الأزمنة المتأخرة، ولا سيما في هذا القرن، فقد اشتد البلاء، وتعاظم الخطب، وتكاثرت صور الانحراف، حتى غدت نواقض لا إله إلا الله تلبس على الناس، وتُسوَّغ لهم باسم الأعذار والشبهات، فأصبحت القضية أحوج ما تكون إلى بيانٍ لا لبس فيه، وتذكيرٍ لا مجاملة فيه، وإنذارٍ لا مواربة معه.

وقد سبق بيان ما طرأ على معنى لا إله إلا الله من تحريف وتفريغ، ولا شك أن كثيرًا من هذه الانحرافات قد آل بصاحبه إلى الكفر الصريح والكفر البواح، وإن لبس لبوس الإسلام وتزيّن بأسمائه.

ومع هذا الخطر المتعاظم، فإن القليل النادر من أهل العلم هو من تصدّى لبيان نواقض لا إله إلا الله، حتى آل الأمر إلى جهلٍ عامٍّ بمقتضيات التوحيد، وغربةٍ ظاهرةٍ لحقائق الإسلام. وإذا كان الناس لا يعرفون ما ينقض أصل دينهم، فكيف يُرتجى منهم إصلاح النفوس، أو تغيير الواقع، أو نصر الدين؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

ولن يغيّر الناس ما بأنفسهم ما داموا – تحت تأثير الفكر الإرجائي – يظنون أنهم قائمون بحق لا إله إلا الله، لمجرد تصديقٍ مجرّد في القلوب، أو نطقٍ بالألسنة، وإن ناقضت الأعمال والولاءات والواقع العملي حقيقة هذه الكلمة العظيمة ومقتضاها.

واليوم نرى المنابر تُفصِّل في نواقض الوضوء أضعاف ما تتحدث عن نواقض لا إله إلا الله!

وهنا يظهر الخلل الفادح في ميزان الأولويات، إذ يُعتنى بالفروع ويُغفل الأصل، ويُحذَّر من فساد الطهارة وتُهمَل نواقض الملة.

ولولا ميراث أئمة الهدى من السلف الصالح، الذين أولوا هذه القضية أعظم عناية، فبحثوا نواقض لا إله إلا الله من جهة أعمال القلوب وأعمال الجوارح معًا، ولم يتركوا بابًا من أبوابها إلا طرقوه وبيّنوه بيانًا شافيًا؛ لاندثر الحديث عن نواقض الإسلام في زمنٍ كثر فيه من يضيق صدره، ويستوحش قلبه، بل وينفر من سماع هذه النواقض المهيبة.

ومع ذلك، فليس الكارهون للحديث عن نواقض لا إله إلا الله فريقًا واحدًا، ولا دافعهم واحدًا، بل هم أصناف شتّى، تجمعهم الكراهية ويفرقهم الباعث.

فمنهم من تحلّل من مقتضيات هذه الكلمة العظيمة، وانسلخ عن حقيقتها، فبات يكره أن يُواجَه الناس – أو يواجه نفسه – بالحقيقة المرة: أن إيمانه قد انتُقض، وأن بنيانه قد تهدّم من أساسه. فهو يفرّ من البيان فرار المذنب من المرآة، خشية أن يرى وجهه على حقيقته.

ومنهم من يفعل ذلك تعصبا لشيخ أو جماعة أو قضية وطنية أو فكر، جهالة وتقليدًا أعمى، فيتعامل مع المواقف بمشاعره، يبكي على موت النصارى لأجل مناصرتهم لقضية فلسطين ويعظمهم أكثر من المسلمين، ويمتعض إن أنكر عليه الترحم على

النصراني الكافر. وتأخذه العزة بالإثم، وما أكثر صور هذه الحال في زماننا اليوم وما أكثر ما اشتعل الجدل في مسلمات ثابتة جلية في القرآن والسنة، وحسبنا الله في من يلبسون على المسلمين دينهم.

ومنهم صنف أخبث وأدهى؛ يعلم تمام العلم موقعه من لا إله إلا الله، ويدرك أنه من أعدائها العاملين على نقضها، لا من الغافلين عنها. غير أنه يكره أن تُكشف سريرته، ويجزع أن يُفضح ارتباطه بأعداء التوحيد من اليهود والنصارى. لذا يُعلن الحرب على كل من يسلّط نور الحق على ظلامه، ويكيل للداعين إلى التوحيد أبشع التهم، فيصفهم بالتطرف والغلو، رجاء أن يستتر في العتمة، وأن يختلط صوته بأصوات الصادقين. وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 8).

وثمّة فريق ثالث، وهم علماء السوء، ممن باعوا الآخرة بالدنيا، وآثروا السلامة العاجلة، وخافوا على الأرزاق والمناصب، فكتموا الحق، وسكتوا عن البيان، خشية أن تغضب منهم جهة، أو تثور عليهم جماهير. فلبسوا لباس الحكمة، وما هي إلا جبنٌ مموّه، وقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (البقرة: 174).

ويقابل هؤلاء فريق آخر، طيب النيات، حسن المقاصد، غير أنهم أخطأوا الطريق؛ إذ ظنوا أن مصارحة الناس بحقيقة النواقض تُنفّرهم عن الدعوة، فآثروا المجاملة، وربّتوا على الأخطاء، وسمّوا التنازل حكمة، والسكوت موعظة حسنة. ونسوا – أو تناسوا – أن

رسول الله ﷺ، وهو أعلم الخلق بمراد ربه، وأحكمهم دعوة، واجه قريشًا بالحق الصريح، حتى قالوا: "إن محمدًا قد عاب آلهتنا، وسفّه أحلامنا".

وأما نحن، فنحمل أمانة البيان، لا نملك أن نغيّر الحق إرضاءً للناس، ولا أن نُلبسه ثوبًا غير ثوبه. نُظهر الحقائق كما هي، ليعلم الناس أين يقفون من دين الله تعالى، ولعل الله أن يهدي من يشاء منهم إلى سواء السبيل.

الوهم الأخطر

إن كثيرًا من الناس، تحت وطأة الفكر الإرجائي، يتوهمون أن كلمة لا إله إلا الله تلازم قائلها ما دام حيًّا، وأنها لا تنتقض ولا تزول، مهما قال أو فعل، ولا تسقط عنه إلا إذا جاهر بالكفر نطقًا بلسانه تصريحًا لا يحتمل تأويلًا.

وهذا الوهم من أخطر الأوهام؛ إذ يصادم حقيقة الشهادة من أصلها، ويناقض مقتضياتها، ويصطدم بنصوص الكتاب والسنة التي قررت للتوحيد شروطًا، وجعلت له نواقض، وبيّنت أن الإيمان حقيقة مركبة، لا تقوم على مجرد لفظٍ يُقال، ولا دعوى تُدّعى، وإنما على اعتقادٍ صادق، وقولٍ ظاهر، وعملٍ يشهد له الواقع.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله:

"ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه

وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ :"إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله " (وقوله) لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله" وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة! وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال :المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة. فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار.

بل لا بد من قول القلب، وقول اللسان.

وقول القلب :يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً :ما يوجب تحريم قائلها على النار.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، ... ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

وتأمل أيضاً ما قام بقلب "قاتل المائة " من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمراً آخر، وإيماناً آخر ولذلك ألحق بأهل القرية الصالحة. وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش، يأكل الثرى – فقام بقلبها ذلك الوقت – مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها"[22].

أنواع الكفر

ومما يحسن التنبيه إليه، ويشتدّ الاحتياج لبيانه، أن كفر الاعتقاد ليس لونًا واحدًا، بل تتعدد صوره وتتنوع مسالكه، وقد استقرأ أهل العلم أنواعه فجمعوها في خمسة أصول كبرى:

[22] مدارج السالكين لابن القيم (ج١/٣٣٠ – ٣٣٢) بتصرف بسيط.

أولها: كفر التكذيب

وهو الجزم بكذب الرسل وردّ ما جاءوا به. وهذا النوع – وإن كان أصل الكفر – قليل الوقوع في الأمم، إذ أيّد الله رسله بالبراهين الساطعة والآيات القاهرة التي أقامت الحجة، وقطعت المعذرة. ولهذا كان كثير من المكذبين في الحقيقة جاحدين لا منكرين، كما قال تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: 14)، وقال مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: 33).

وثانيها: كفر الإباء والاستكبار

وهو كفر من عرف الحق ووقن به، ثم أبى الانقياد له استعلاءً واستكبارًا، كما كان شأن إبليس، وكما وقع من أكثر أعداء الرسل، قال تعالى حكاية عن فرعون وملئه: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (المؤمنون: 47)، ومن هذا الباب كفر أبي طالب، إذ صدّق النبي ﷺ في باطنه، ولم يشك في صدقه، غير أن العصبية والحمية الجاهلية منعته من الانقياد.

وثالثها: كفر الإعراض

وهو كفر من أعرض عن الرسول ﷺ إعراضًا تامًا، فلا يصغي لما جاء به، ولا يتأمله، ولا يصدّق ولا يكذّب، بل يولّي عنه كأن الأمر لا يعنيه. وقد تجلّى هذا المعنى في قول

أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ: "إن كنت صادقًا فأنت أجلّ من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك".[23]

ورابعها: كفر الشك

وهو التردد في صدق الرسول ﷺ وعدم الجزم به، لا تصديقًا ولا تكذيبًا. وهذا الشك لا يثبت مع النظر الصادق في آيات الرسالة ودلائل النبوة، إذ هي بذاتها كافية لإزالة الريبة، وإنما يستمر الشك مع الإعراض عن النظر والتفكر.

وخامسها: كفر النفاق

وهو إظهار الإيمان باللسان، وإبطان التكذيب في القلب، وهذا هو النفاق الأكبر، الذي توعّد الله أهله بالدرك الأسفل من النار.

أنواع الشرك

وكما أن الكفر تتعدد أنواعه – نعوذ بالله منه – فإن الشرك كذلك ذو صور وألوان، وهو على نوعين :شرك أكبر مخرج من الملة، وشرك أصغر، وأعظمهما الشرك الأكبر، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: 116). وقد بيّن الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله أن الشرك الأكبر يرجع إلى أربعة أصول:

---

[23] يُروى عن رجلٍ من ثقيف، وذكره ابن تيمية في سياق كفر الإعراض.

أولها: شرك الدعاء، وهو صرف العبادة لغير الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: 65).

وثانيها: شرك النية والقصد والإرادة، بأن يُراد بالعمل غير وجه الله، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: 15 – 16)

وثالثها: شرك الطاعة، وهو تقديم طاعة المخلوق على حكم الله، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: 31). وقد فسر النبي ﷺ ذلك باتباعهم في التحليل والتحريم، وهو عين العبادة.

وفي الحديث، عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: "بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم". [24] قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

[24] تفسير ابن كثير للآية.

ورابعها: شرك المحبة، وهو محبة غير الله كمحبة الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة: 165).

وأما النفاق: فمنه ما هو مخرج من الملة، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول ابن تيمية رحمه الله: "والنفاق منه ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بعضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله" [25]. (ومنه ما هو نفاق أصغر وهو الرياء وقد سبق عليه الكلام.

وأما الردة: فهي الكفر بعد الإيمان فمن قال الكفر أو فعله أو رضي به مختاراً كفر، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه، وبهذا قال علماء السنة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا: إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً، وإما فعلا وإما اعتقاداً. وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً.

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به. وهذا معلوم قطعاً من كتبهم ومن له ممارسة في العلم فلا بد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك ".

---

[25] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 284/7 وما بعدها.

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال: إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم.

نواقض الإسلام

ومن باب التفصيل والتوضيح، وذكر التفصيل بعد الإجمال؛ فإن أهل العلم – رحمهم الله – قد بيّنوا نواقض الإسلام، وهي الأمور التي إذا وقع فيها المسلم خرج من دائرة الإسلام إلى الكفر، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله السلامة والعافية. وذِكرُها إنما هو للعلم بها والحذر منها.

الناقض الأول: الشرك في عبادة الله تعالى

وهو أعظم الذنوب وأكبر الجرائم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: 116). وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: 72).

وقال لقمان لابنه ناصحًا: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13).

ومن صُوَر الشرك: أن يصرف العبد شيئًا من العبادة لغير الله، كالدعاء، أو النذر، أو الذبح، أو الاستغاثة، أو غير ذلك.

الناقض الثاني: جعل الوسائط بين العبد وربه

مَن جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويسألهم الشفاعة، ويتوكّل عليهم؛ فقد كفر إجماعًا؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: 3).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: 106).

الناقض الثالث: عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم أو تصحيح مذهبهم

مَن لم يُكَفِّر المشركين، أو شكّ في كفرهم، أو صحّح مذهبهم؛ فقد كفر إجماعًا؛ لأن الله تعالى كفّرهم في كتابه، وأمر بالبراءة منهم، فقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: 256).

أما مَنْ صحَّح مذهبهم، واستحسن ما هم عليه من الكفر؛ فهو كافرٌ بإجماع المسلمين؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرك وأهله، وهذا والى أهلَ الشِّرك، فضلاً عن أن يكفِّرهم؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256).

الناقض الرابع: تفضيل غير هدي النبي ﷺ أو حكم غيره

مَن اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، أو فضّل حكم الطاغوت على حكمه؛ فهو كافر. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65).

وقال ابن القيم رحمه الله:

واللهِ ما خوفي الذنوبَ فإنها لعلى سبيل العفو والغفران

لكنما أخشى انسلاخ القلب عن تحكيم هذا الوحي والقرآن

ورضًا بآراء الرجال وخرصها لا كان ذاك بمنّة المنّان

ومن ذلك: أصحاب القوانين الوضعيَّة، الذين جعلوها شرعًا ومنهاجًا يسيرون عليه، ويلزمون الناس به؛ قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: 50)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: 44).

الناقض الخامس: بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ

مَن أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به؛ كفر إجماعًا.

فـ "مَن أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كَفَرَ"، وهذا باتّفاق العلماء، وقد نال المنافقون النَّصيب الأكبر من هذه الخَصْلة، وهم يعملون ببعض شرائع الإسلام الظاهرة؛ ولكنهم في الخفاء يُضمِرون البُغض والكراهية لشريعة الإسلام وأهلها، ويتربَّصون بهم الدَّوائر؛ قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (المنافقون: 1)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (المائدة: 61)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (البقرة: 14).

وقد حَكَمَ الله على مَنْ كره شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ بالكفر والضَّلال، وأنَّ أعمالهم باطلةٌ مردودةٌ؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (مُحَمَّد: 8، 9).

فكلُّ مَنْ كره ما أنزل الله فعمله حابِطٌ، وإن عمل بما كره؛ قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (مُحَمَّد: 28).

الناقض السادس: الاستهزاء بشيء من الدين

مَن استهزأ بشيء من دين الله، أو ثوابه، أو عقابه؛ فقد كفر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة: 65–66).

فالاستهزاء بشيءٍ مما جاء به الرسول كفْرٌ بإجماع المسلمين، ولوْ لم يقصد حقيقة الاستهزاء، كما لو هزل مازحًا.

وقد ذكر الله تعالى حال هؤلاء المستهزئين الساخرين بأشرِّ ما ذكر به قومًا؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ (المطففين: 29، 30)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: 79)، وقد نَهَى الله تعالى عن مُجَالَسة هؤلاء المستهزئين، وأنَّ مَنْ جلس معهم فهو مثلهم؛ قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ (النساء: 140).

الناقض السابع: السحر

ومن السحر: الصرف والعطف، فمَن فعله أو رضي به؛ كفر. قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ

الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 102).

أما الصَّرْف: فهو صَرْف الرجل عمَّا يهواه؛ كصَرْفه مثلاً عن محبّة زوجه إلى بغضها، والعَطْف: عمل سحريٌ كالصرف، ولكنه عَطْفُ الرجل عمَّا لا يهواه إلى محبَّته، والسِّحر محرَّمٌ بجميع طُرُقه، وفي جميع الشرائع.

الناقض الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم

مُظاهرة المشركين، ومعاونتهم على المسلمين، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: 51).

الناقض التاسع: اعتقاد جواز الخروج عن شريعة النبي ﷺ

مَن اعتقد أن أحدًا يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ؛ فقد كفر. قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: 153)، فمن رغب الخروج عن شريعة النبيّ ﷺ أو ظَنَّ الاستغناء عنها؛ فقد خَلَعَ رِبقة الإسْلام من عُنُقِه، وعيسى عليه السلام عندما ينزل في آخِر الزمان لا يأتي بشرعٍ جديد؛ بل يكون متَّبعًا لشريعة النبيّ – صلى

الله عليه وسلم – فشريعته – عليه الصلاة والسلام – باقيةٌ إلى يوم القيامة، وعامَّةٌ لجميع الناس؛ ولا يَسَعُ أحدًا الخروج عنها؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: 85).

الناقض العاشر: الإعراض عن دين الله

وهو أن يُعرض عن تعلُّم أصل الدين الذي يكون به المرء مُسلِمًا، والعمل به. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (السجدة: 22).

وقال ابن القيم رحمه الله: "وأما الكفر الأكبر فخمسةُ أنواع"، ذكرها، ثم قال: "وأمَّا كفرُ الإعراض: فأن يُعْرِض بسمعه وقلبه عن الرسول – ﷺ – لا يصدِّقه ولا يكذِّبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يُصغي إلى ما جاء به ألبتة"

قال الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله: "ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجادِّ والخائف؛ إلا المُكْرَه؛ قال تعالى: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)، وكلُّها من أعظم ما يكون خطرًا، وأكثر ما يكون وقوعًا؛ فينبغي للمسلم أن يَحْذَرَها، ويخاف منها على نفسه. نعوذ بالله من موجِبات غضبه، وأليم عقابه".

وقفة ذات أولوية

وحين نتأمل هذه النواقض، فإننا أحوج ما نكون إلى وقفة بصيرة، وتأملٍ عميق عند اثنين منها على وجه الخصوص؛ لما لهما من خطر جسيم، وأثر بالغ في واقع الأمة، ولِما يكشفانه من سرّ الإطالة في الحديث عن قضية الحاكمية، وما يتفرع عنها من مسائل الولاء والبراء. وهما من النواقض التي عمّ بها البلاء، واستفحل شرّها في زماننا.

أولهما: اعتقاد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكمًا سواه أعدل وأحسن من حكمه، كمن يفضّل حكم الطاغوت على حكم الله؛ فهذا الاعتقاد في حقيقته نقضٌ لأصل الإيمان، وهدمٌ لأساس التوحيد. إن إقصاء شريعة الله عن حياة الناس، واستبدالها بقوانين البشر القاصرة، ليس مجرد انحراف عابر، ولا خطأ جزئيًا في التطبيق، بل هو ردة فكرية وتشريعية، لم تعرفها الأمة في تاريخها الطويل إلا في القرون المتأخرة. فقد عاشت الأمة قرونًا متطاولة في ظل شريعة الله، تحكم حياتها، وتضبط شؤونها، حاكمًا ومحكومًا، مع وجود معاصٍ وأخطاء لا يخلو منها بشر؛ غير أن المرجع الأعلى، والنظام السائد، والتشريع النافذ كان شرع الله وحكمه. وكان الجهاد ماضيًا، وكلمة الإسلام في علو وانتشار. أما الطعن في الشريعة، واتهامها بالقصور، والرجعية، وعدم مواكبة العصر؛ فلم يظهر إلا بعد أن مكّن المسلمون الاستعمار من رقابهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، فكان الجزاء من جنس العمل، والعقوبة بقدر التفريط. وقد جاء القرآن الكريم، والسنة النبوية، بنصوص صريحة قاطعة، تجعل الحكم بما أنزل الله قضية إيمانية لا تقبل المساومة ولا التأويل المفرغ من معناه. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وقال: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم قرر سبحانه، بوضوح لا لبس فيه ولا غموض: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وجعل الإيمان الحق مرهونًا بالتحاكم الصادق إلى رسول الله ﷺ، تحاكمًا يخلو من الضيق والحرج، ويثمر التسليم والانقياد: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾. وبيّن سبحانه أن التشريع من دون الله شركٌ صريح، ومنازعة لحقه ﷻ في الحاكمية، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾. ثم كشف زيف دعوى الإيمان عند من يأنفون من حكم الله ورسوله، ولا يرضون به إلا إذا وافق أهواءهم، فقال في وصفهم: ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وبيّن أن قول المؤمنين الصادقين، إذا دُعوا إلى الله ورسوله، إنما هو: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. وقال سبحانه محذرًا من مغبة الانحراف عن هذا الطريق: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم فضح الله تعالى حال من يزعمون الإيمان، وهم في الحقيقة يطلبون التحاكم إلى الطاغوت، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾. وقد صدق من شبّه حال من استبدل شريعة الله بالقانون الوضعي، فقال: إنه كمن يتأذى من عبير المسك، ولا يحيا إلا في روائح العفن والنتن. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

ومن أعظم صور المحادة لله ورسوله: الإعراض عن حكم الله وشرعه، وسنة نبيه ﷺ. وما الذل الذي تعيشه الأمة اليوم إلا ثمرة مرة لهذا الإعراض، وجزاءً وفاقًا لهذا الانسلاخ عن مصدر العزة والتمكين.

أمةٌ كثيرة العدد، لكنها غثاء كغثاء السيل، تتداعى عليها الأمم، وتتكالب عليها القوى، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ، حين بيّن أن سبب ذلك هو حب الدنيا وكراهية الموت.

وإن جانبًا كبيرًا من هذا الانحراف تتحمله فئة لبست لباس العلم، فزيّنت للناس ترك شريعة الله، وقدّمت أهواء البشر في صورة فتاوى وتأويلات. فهؤلاء يحملون أوزارهم، وأوزار من أضلوهم، والإسلام منهم بريء.

رحم الله علماء السلف، الذين وقفوا حراسًا على ثغور العقيدة، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

وقد لخص الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله هذا المعنى حين فسر قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، فذكر ما فعله التتار حين قدّموا الياسق —وهو تشريع وضعي جمع من أديان وأهواء شتى — على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقرر أن من فعل ذلك كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله وحده، فلا يُحكِّم غيره في قليل ولا كثير.

وقد لخص الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم رحمه الله الحالات التي إن فعلها الحاكم دخلت في الكفر المخرج من الملة وهي:

1. إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله. وهو معنى ما روى عن ابن عباس، واختاره ابن جرير، وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم، إن من جحد

أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ قطعياً فإنه كافر كفراً ينقل عن الملة .

2. إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق، ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان، وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير. فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك، علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

3. أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين السابقين كافر كفراً ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

4. من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله.

5. من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله :إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟! وأي مناقضة للشهادة بأن مُحَمَّداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟!

6. ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها "سلومهم" يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله.

أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة: والذي ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنه كفر دون كفر وقوله أيضاً: (ليس بالكفر الذي تذهبون إليه) فذلك مثل، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية سماها الله في كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها الله كفراً.

خطورة التهاون

إذا اتضح الأمر على هذا النحو، وثبت أن التشريع بغير ما أنزل الله ناقضٌ لشهادة لا إله إلا الله، لزم التنبيه إلى حقيقةٍ لا تقل خطرًا عنه، وهي أن الرضا الواعي بهذا التشريع المخالف، والقبول به، والانقياد له، ناقضٌ للشهادة كذلك، إذ لا يستقيم إنكار الشرك مع الرضا به، ولا يصح التوحيد مع التسليم لغير الله في خصائص ألوهيته.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ (النساء: ٦٠)،

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

فهذان النصّان يقطعان بأن الإيمان لا يتحقق بمجرد التحاكم الصوري، ولا بالرضا اللفظي، بل بتحكيمٍ صادق، وانشراحٍ قلبي، وتسليمٍ كامل لا يعقبه ضيق ولا اعتراض.

وقد قرر النبي ﷺ هذا الأصل في سنن التدافع بين الحق والباطل، فقال: "... ثم تكون من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل".

وقال ﷺ أيضًا:"... فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع".

والقضية في أصلها واحدة، وإن تعددت صورها وتنوعت وجوهها؛ فكما أن الذين يشرّعون بغير ما أنزل الله قد نقضوا لا إله إلا الله حين جعلوا أنفسهم أندادًا لله، يقولون في التشريع خلاف قوله، ويحلّلون ويحرّمون على غير حكمه؛ فإن الذين يرضون بذلك التشريع ويتبعونه قد جعلوا هؤلاء المشرّعين أندادًا من دون الله، فناقضوا الشهادة التي تقتضي إفراد الله بالحكم والتشريع، ونفي الشركاء عنه سبحانه.

وكأن حالهم – بلسان الواقع وإن لم ينطق به اللسان – يقول: قال الله قولًا، وقال هؤلاء غيره، فاخترنا قولهم على قول الله! وحكم الله تحليلًا وتحريمًا، وحكموا هم بخلافه، فارتضينا حكمهم واتبعناه!

وإن لم يصرّح كثير منهم بهذا المعنى لفظًا، فإن مآل موقفه ودلالة فعله تشهد عليه.

وتتعدد تبريرات الناس لهذا الموقف:

- فمنهم من يزعم أن للحاكم تعطيل الشريعة إذا اقتضت الظروف،
- ومنهم من يرى أن تغيير الأحكام بدعوى مواكبة العصر نوعٌ من الاجتهاد المشروع،
- ومنهم من يحتج بالاضطرار، والعجز، والخوف من الأعداء... إلى غير ذلك من الذرائع.

ولسنا هنا بصدد تفصيل هذه الشبه، ولا الحكم على أصحابها قبولًا أو ردًّا؛ فلكل مقامٍ مقال، وإنما المقصود بيان الحقيقة المجردة كما دلّ عليها الكتاب والسنة، ليكون الناس على بصيرة من أمرهم، فلا يختلط عليهم الحق بالباطل، ولا الإيمان بالدعوى.

والحقيقة الثابتة التي لا تقبل التلبيس هي أن:

- التشريع بغير ما أنزل الله ناقضٌ لشهادة لا إله إلا الله،
- والرضا الواعي بشرعٍ يخالف شرع الله ناقضٌ لها كذلك،
- وأن أضعف مراتب الإيمان في هذه القضية هو المجاهدة بالقلب، كما دلّ عليه الحديث.

غير أن الإنكار القلبي ليس دعوى تُقال باللسان، ولا مشاعر غامضة تُدّعى في السر، مع الاستمرار في المشاركة بالمنكر والرضا به واقعًا؛ بل حقيقته أن يباعد الإنسان نفسه عنه، وألا يشارك فيه قولًا، ولا فعلًا، ولا حضورًا، ما لم يكن مُكرهًا على ذلك.

فهنا يقف الحدّ الفاصل: بين من بقي في دائرة الإيمان مع تقصيره وضعفه، وبين من تجاوزها بالرضا والمتابعة والانقياد.

دعوات الجاهلية المعاصرة

وثمّة أمرٌ آخر يتصل اتصالًا مباشرًا بقضية التشريع بغير ما أنزل الله، ويشاركها في خطورتها، بل هو في ذاته ناقضٌ لشهادة لا إله إلا الله؛ ويتمثل في اعتناق مذاهب فكرية تُقصي الدين عن حياة الناس، أو تحصره في زاوية ضيقة منها، كالشيوعية، والاشتراكية، والعلمانية، والقومية والديمقراطية التي تُجعل مرجعيةً عليا تعلو على الوحي، وتُقدَّم على حكم الله عز وجل.

ولئن كانت الشيوعية والاشتراكية قد سقطتا سقوطًا مدويًا في الواقع والفكر، فلم تعودا في حاجة إلى كبير بيان، فإن العلمانية والقومية – والديمقراطية على وجه الخصوص – لا تزال في أمسّ الحاجة إلى الكشف والتعرية، لما أُحيطت به من زخرف القول، وكثرة التلبيس، وحسن العرض.

فالعلمانية – مثلًا – ترفع دعوى عريضة مفادها أنها لا تعادي الدين ولا تناقضه، وإنما تفصل الدين عن السياسة فحسب. غير أن دينًا يُعزل عن الحكم، ويُقصى عن توجيه مؤسسات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، قد يكون أيَّ دينٍ آخر، لكنه لا يمكن أن يكون الدين الذي أنزله الله على مُحَمَّد ﷺ.

فهذا هو الدين الذي قال الله فيه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾.

وهو الدين ذو المقتضيات الشاملة التي لا تتجزأ: إيمانية، وتعبدية، وتشريعية، وأخلاقية، وفكرية، وحضارية، وتعبيرية. وأي مذهبٍ يسعى إلى حصر الدين في جانبٍ واحد من هذه الجوانب، ويتعمد إقصاء غيره – ولا سيما المقتضى التشريعي –فإنه يصادم حقيقة لا إله إلا الله، ويقيم في واقع الناس دينًا غير دين الله، وإن تسمّى باسم الحياد أو التنوير.

وليس خافيًا أن المقتضى التشريعي هو أحد الجذور الكبرى التي يقوم عليها الإيمان، والتي متى نُقض واحدٌ منها لم يبقَ بعده إيمانٌ صحيح. ولهذا فإن العلمانيين أنفسهم – وهم أشد الناس حربًا على تطبيق الشريعة – يعلمون في قرارة نفوسهم أنهم حين يهدمون حكم الله، فإنهم يهدمون الدين من أساسه، وإن تلطفوا في العبارة، وتظاهروا بغير ذلك؛ إذ متى نُقضت عروة الحكم، تهاوت سائر عرى الدين تباعًا، كما أخبر

الصادق المصدوق ﷺ: "لَتُنقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً ، فكلما انتقضَت عُروةٌ تشبَّثَ الناسُ بالتي تليها ، فأَوَّلُهُنَّ نقضًا الحكمُ ، وآخرهنَّ الصلاةُ".

وأما القومية – ولا سيما القومية العربية – فلها بريق خادع يغوي فريقًا من الناس؛ إذ يزعمون أنه لا تعارض بين الاعتزاز بالقومية والعمل لها، وبين الاعتزاز بالدين والعمل له. ويحتجون بأن العرب هم الذين حملوا الإسلام ونشروه، فما المانع أن يجتمع الاعتزاز بالعروبة مع الاعتزاز بالإسلام؟

والحق أن الانتماء العِرقي أو القومي – عربيًا كان أو أعجميًا – أمرٌ جبلي لا اختيار للإنسان فيه، ولا يعارضه الإسلام من حيث هو توصيف للواقع؛ فقد ظل سلمان يُعرف بالفارسي، وصهيب بالرومي، وبلال بالحبشي. غير أن هذه الانتماءات جميعًا ذابت في هوية الإسلام، فلم تعد مصدر تفاضل، ولا أساس ولاء أو براء، ولا باعث فرقة أو عصبية.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾، أي: ادخلوا في الإسلام دخولًا كاملًا، بكيانكم كلِّه، فلا يبقى جزء من هويتكم، ولا شعبة من ولائكم، ولا مرجعية من مرجعياتكم خارج رايته. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

ولما حاول اليهودي الخبيث أن يوقظ العصبية الجاهلية بين الأوس والخزرج، بعد أن جمعهم الإسلام، خرج النبي ﷺ مغضبًا يقول: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة".

وهنا يظهر الميزان الحق بلا التباس. فماذا تصنع القوميات المعاصرة اليوم؟ أَتجمع المسلمين تحت راية الإسلام؟ أم تمزقهم، وتحيي بينهم العصبيات، وتغذي الضغائن، وتزرع البغضاء؟

وما حكم قوميةٍ تزعم أن النصراني العربي أقرب إليها من المسلم غير العربي؟!

ألم يشهد المسلمون أن عدوهم، لما عجز عن ابتلاعهم وهم مجتمعون، لجأ إلى تمزيقهم بإحياء النعرات القومية، فنجح في تفريقهم، وتطويقهم، والسيطرة عليهم؟

أفبعد هذا كله يُرتاب في أن هذه القوميات – بصورتها المعاصرة – تناقض حقيقة لا إله إلا الله، وتنقض مقتضاها، وتنازع الإسلام في أعظم خصائصه: وحدة الأمة، ومرجعية الوحي، وولاء العقيدة؟

وفي السياق نفسه، تبرز الوطنية بصورتها المعاصرة بوصفها الوجه الآخر للقومية، وقد آلت في واقع المسلمين إلى رابطةٍ مزاحِمة لرابطة العقيدة، بل مُقدَّمةٍ عليها في كثير من الأحوال. لم تعد "الوطنية" مجرد حبٍّ فطري للأرض التي نشأ عليها الإنسان، وإنما تحولت إلى عصبية جاهلية جديدة، يُوالى ويُعادى عليها، وتُقدَّس حدودها، وتُرفع راياتها، ولو كانت تلك الحدود قد رسمها المحتل بمداده، ثم أورثها للأمة قيودًا من حديد. فتمزق المسلمون دويلاتٍ متناحرة، تعصّب كل قطر لرايته، ونُفخ في صدور أبنائه وهمُ

السيادة والاستقلال، بينما القرار مرتهن، والكرامة مستباحة، والعدو واحد. وهكذا صار المسلم يرى أخاه في الدين "أجنبيًا" لأنه من وطنٍ آخر، وقدّم الانتماء الترابي على الانتماء الإيماني، في انقلابٍ خطير على ميزان الولاء والبراء. وما هذا التفرق المُذِلّ، والضعف المُقيم، والتداعي الذي تعيشه الأمة اليوم، إلا ثمرة مُرّة لتعظيم الوطنية الجاهلية على حساب الأخوّة الإسلامية، وصدق فيهم قول النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»، إذ لم تُثمر إلا فرقة، ولا أنجبت إلا وهنًا، ولا أورثت الأمة إلا مزيدًا من الانكسار.

فتنة العصر

أمّا الديمقراطية فهي – في هذا الباب – الفتنة الكبرى؛ فتنةٌ عمت في هذا الزمان، ووقع في شباكها كثيرٌ من الدعاة، كما وقع قبلهم غيرهم في فتنة الاشتراكية وغيرها من الأيديولوجيات الوافدة.

ومصدر هذا الالتباس الخطير هو الشَّبه الظاهري الذي خُيّل لهم بين الديمقراطية والشورى التي أوجبها الله على الأمة، فتوهموا أن النظامين متطابقان، أو متقابلان يمكن الجمع بينهما في بناءٍ واحد، وأن الديمقراطية ليست إلا صورةً معاصرةً للشورى الإسلامية. ويزيد هذا الوهم رسوخًا ما يلحظه هؤلاء من مظاهر براقة في الديمقراطية؛ كرقابة الأمة على الحاكم، ومحاسبته، والحدّ من تغوّل السلطة، ومنح الأفراد ضماناتٍ تحميهم من بطش الدولة.

وحين يقارن الدعاة بين هذه الصورة المثالية، وبين واقع الأنظمة المستبدة التي لاحقتهم، وضايقت دعوتهم، وسجنت أبناءهم، وقتلت خيارهم، يتولد في نفوسهم توقٌ

مشروع إلى نظامٍ يكفّ الأذى، ويكسر القهر، ويحمي الدعوة وأهلها من سطوة الطغيان.

نعم، هذا الشعور مفهوم إنسانيًّا، لكنه غير مُبرِّر شرعًا للانخداع بالديمقراطية، ولا كافٍ لتجاوز أصول العقيدة وثوابتها.

فهنا تبرز القضية المركزية في حياة المسلم، تلك التي تنبع من صميم التوحيد، وتسري في الفكر، وتنعكس في الموقف والسلوك، وهي :من المعبود؟ أالله وحده، أم يُجعل معه شركاء؟ ويتفرع عن هذه القضية أصلٌ لا يقل عنها خطرًا ولا أثرًا، وهو :من المشرِّع؟

أمّا قضية المعبود، فيكفي للدلالة عليها أن دساتير الديمقراطيات الحديثة تكفل – تحت شعار "حرية الاعتقاد – "حق الإلحاد، وتسوّي بين التوحيد والكفر، وتضع الإيمان بالله في كفّة، وإنكار وجوده في كفّةٍ أخرى، سواءً بسواء.

وأمّا قضية التشريع، فالأمر فيها أظهر من أن يُخفى؛ إذ تقوم الديمقراطية في أصلها النظري على أن السيادة للشعب، وأنه "مصدر السلطات"، وأن البرلمان – بوصفه ممثلًا عنه – هو السلطة التشريعية العليا، يملك حق التحليل والتحريم، والتقنين والإلغاء، بلا قيدٍ من وحي، ولا سلطان لنصٍّ مقدّس. وسواء صدقت هذه الصورة نظريًا أم كانت وهمًا عمليًا – إذ النفوذ الحقيقي في الغالب بيد أصحاب المال ومراكز القوة – فإن النتيجة واحدة :نزع حق التشريع من الله، ومنحه للبشر.

وبمقتضى هذا الأصل، يملك البرلمان أن يشرّع ما شاء، ويُبيح ما شاء، ويُحرّم ما شاء؛ فإن أباح الفواحش – وقد فعل – فلا رقيب عليه، وإن شرعن الشذوذ – وقد فعل – فلا معقّب لحكمه، بل لو أباح كل شيء، ونقض كل القيم، وأسقط كل المحرمات، لبقي – في منطق الديمقراطية – ممثلًا لإرادة الأمة، وقراره واجب النفاذ.

وهنا تتبدّى الحقيقة جليّة: ليست المسألة في بعض الآليات، ولا في بعض النتائج، وإنما في الأصل الذي تُبنى عليه الديمقراطية؛ أصلٌ ينازع الله حقه الخالص في التشريع، ويقيم للناس سيادةً مطلقةً لا يملكها إلا رب الناس، وبهذا المعنى تكون الديمقراطية – مهما تزيّنت – مناقِضةً لحقيقة لا إله إلا الله، وناقضةً لمقتضاها التشريعي، وإن حسنت النيات، وتعددت المسوّغات، وتبدلت الشعارات.

وهنا يعترض بعض الدعاة قائلين: لسنا نقصد هذه الديمقراطية بصورتها الغربية، وإنما نعني الشورى الإسلامية المنضبطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، القائمة على الاجتهاد في المصالح المرسلة وفق مقاصد الشريعة.

لكن الحقيقة التي ينبغي التصريح بها هي أن ما يدعون إليه ليس ديمقراطية أصلًا، وإنما هو الإسلام نفسه، ولا اسم له إلا الإسلام. فالديمقراطية ليست وعاءً محايدًا يمكن ملؤه بما نشاء، بل هي منظومة فكرية وتشريعية لها أصولها التي لا تنفك عنها.

واسأل أي ديمقراطي "أصيل" في العالم، لا ممن يتلاعبون بالألفاظ: قل له: نريد تطبيق الديمقراطية، لكننا نريد تحريم الخمر. سيجيبك فورًا: هذا اعتداء على الحرية الشخصية. قل له: نريد إلزام المرأة بالحجاب. سيقول: ليس لك ذلك، فالدستور يكفل الحرية الفردية.

قل له: نريد إلغاء الربا، وتحريم الزنا، ومنع الإعلام من نشر الإلحاد والانحلال. سيقول دون تردد: هذه عقلية غير ديمقراطية؛ فلا إلزام في الديمقراطية إلا بإرادة الشعب، ولا سلطان لقيمٍ فوق تصويت الأغلبية.
فأين يقف المسلم – حينئذ – من قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؟

إن الديمقراطية بصورتها القائمة اليوم لا يمكن أن تكون جسرًا إلى الإسلام؛ لأنها تقوم ابتداءً على نفي أي التزام سابق، ولو كان هذا الالتزام من عند الله. بل إن أول ما لفظته هذه النظم، وأول ما أعلنت القطيعة معه، هو التحاكم إلى شرع الله.

ثم إن الواقع – من جهة أخرى – شاهدٌ لا يُكذَّب؛ فهذه الأنظمة تفتح أبوابها على مصاريعها لكل عابثٍ ومفسد، ولكل صوتٍ يهدم القيم ويشيع الفساد، لكنها ما إن تشتم رائحة الإسلام حتى تُغلق الأبواب، وتستدعي أدوات الإقصاء والمنع. والتجارب معروفة في العالم الإسلامي، تصل كلها لطريق مسدود، فكل تيار يُسمح له بالفوز...

إلا الإسلاميين. وإن فاز الإسلاميون يتعرضون للانقلاب والسجن والمطاردة بعد أن قدموا التنازلات التي يندى لها الجبين على حساب دينهم.

فلنكن صرحاء مع أنفسنا، وصادقين مع الناس: الذي نريده هو الإسلام، كاملًا غير منقوص، صريحًا غير متخفٍّ، ولا اسم له إلا الإسلام.

ولا يظن أحد أن التخفي وراء شعارات الديمقراطية، أو لبس مسوحها، أو تليين الخطاب باسمها، سيمنحه القبول أو المرور الآمن؛ فخصوم الإسلام يملكون حاسةً حادّة، يدركون بها الحقيقة من بعيد، ويميّزون الجوهر مهما تغيّر الغلاف.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

موالاةُ من يحكم بغير ما أنزل الله

وإنما أطَلْنا الوقوف عند قضية الحاكمية، وبسطنا القول في أصولها وتفاصيلها، لما لها من خطورةٍ عظيمة، ولمكانتها المحورية في صميم التوحيد والعقيدة. فموالاةُ من يحكم بغير ما أنزل الله، والرضا بتشريعه من عند نفسه، وقبولُ تحليله وتحريمه بغير إذنٍ من الله، ليس مجرد خطأٍ سياسي أو اجتهادٍ إداري، بل هو في حقيقته مصادمةٌ لمعنى الألوهية، ومناقضةٌ للإيمان بأن الله وحده هو الإله المعبود، الذي تخضع له القلوب حبًّا وتعظيمًا، وطاعةً وانقيادًا، وتحاكمًا ورضًا بحكمه.

كما أن ذلك نقضٌ صريح لشهادة أن محمدًا ﷺ رسول الله؛ إذ مقتضى هذه الشهادة ألا يُتلقّى الأمر والنهي إلا عنه، وألا يُطاع أحدٌ فيما شرع وبلّغ إلا تبعًا له، وألا يُقدَّم

حكمُ بشرٍ، كائنًا من كان، على حكمه وسنته. فمتى زُوحِم التشريع الإلهي بتشريعٍ وضعي، أو قُدِّم حكمُ الناس على حكم الله، فقد اختلّ أصل الانقياد، وانهدّ ركنٌ من أركان الشهادة.

ولو وعى الناس هذا المعنى حقَّ الوعي، لما بقي لطاغيةٍ في الأرض سلطانُ تشريع، ولا استقرّ لحاكمٍ حقٌّ في فرض حكمه من دون الله، ولما أُقِرّ الكفر، ولا نُحِّي شرع الله المحكم عن حياة الناس، ولا جُعلت القوانين الوضعية حَكَمًا على وحي السماء.

مظاهرةُ المشركين ومعاونتُهم على المسلمين

ومن النواقض العظيمة التي يجب الوقوف عندها بتؤدةٍ وبصيرة، مظاهرةُ المشركين ومعاونتُهم على المسلمين؛ وهو بابٌ خطير من أبواب نقض الإسلام، دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١).

وهذا من أخطر النواقض التي عمّت بها البلوى في زماننا، حتى وقع فيها كثير من الناس وهم لا يزالون ينتسبون إلى الإسلام، ويتسمّون بأسمائه. بل بلغ الحال أن يُستنكَر اليوم وصف الكافر بالكفر، ثم تجاوز الأمر ذلك إلى الإعجاب بأعداء الله، وتعظيمهم، واتخاذهم قدوةً وأسوة، حتى صار ضعاف الإيمان ينظرون إليهم نظرة انبهارٍ وتقديس، يملؤها التمني والمحاكاة، ولو قادتهم إلى الهلاك، تصديقًا لقوله ﷺ: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبلَكُم شِبرًا بشِبرٍ، وذِراعًا بذِراعٍ، حتَّى لو سَلَكوا جُحرَ ضَبٍّ لَسَلَكتُموه"، قُلنا: يا رَسولَ اللهِ، اليَهودَ والنَّصارى؟ قال: "فمَن؟"، صحيح البخاري.

وقد اتخذت هذه المظاهرة صورًا متعددة، تتدرّج من الميل القلبي، إلى تبنّي مذاهبهم الفكرية والإلحادية، ثم مجاراتهم في تشريعاتهم وأنظمتهم، وكشف عورات المسلمين لهم، والاستقواء بهم على أهل الإيمان، ولا تنتهي عند حدٍّ صغير أو كبير من شؤون الحياة. وسيأتي – بإذن الله – تفصيل هذه الصور في فصلٍ خاص ببيان مظاهر الموالاة.

ومن هنا، فإن الفهم الصحيح لحقيقة هذه العقيدة، ومعرفة نواقضها، كفيلان بأن يضعا المسلم على بيّنةٍ من أمره في باب الولاء والبراء، وفق الميزان الشرعي لا وفق أهواء البشر ولا ضغوط الواقع. فلا ولاء إلا لله، ولرسوله، ولدينه، وللمؤمنين، ولا براءة إلا من كل متبوعٍ أو مرغوبٍ أو مرهوبٍ يحادّ الله ورسوله.

موالاةُ أعداء الله

قضيةٌ أخرى من أخطر نواقض "لا إله إلا الله" هي موالاةُ أعداء الله؛ وقد جاء النص القرآني في هذا الباب واضحًا قاطعًا، لا يحتمل تأويلًا مفرّغًا ولا مساومةً مائعة، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (المجادلة: 22).

ومع هذا الوضوح القرآني والحسم الرباني، فإن الجاهلية المعاصرة من جهة، وكيد أعداء الإسلام من جهة أخرى، قد عملا على تمييع هذه القضية في وعي كثير من المسلمين، حتى أُوهِموا أن الولاء والبراء كانا أحكامًا ظرفية ارتبطت بمرحلة تاريخية مضت، وأن

عالم اليوم قد تغيّر، فلم يعد لهذا الأصل العقدي معنى ولا ضرورة. وتُرفع في وجوههم شعاراتٌ براقة خادعة: الإنسانية، العالمية، القرية الواحدة.

وكلما ترددت على الأسماع عبارة "القرية الواحدة"، حضرت إلى الذهن – لمن لم يَعْمَ قلبه – مشاهد غزة: مذابح تشيب لها الرؤوس، ووحشية تعفّ عنها الوحوش، والعالم كلّه يشاهد المجازر ببرود أعصاب، بل يمنع معاقبة المعتدي، ويفسح له الطريق لإبادة المسلمين... وكل ذلك جرى داخل ما يُسمّى "القرية الواحدة"، وتحت مظلة ما عُرف بـ "النظام العالمي الجديد".

في هذا العالم، يُسمح لكل الأمم أن تحتفظ بولاءاتها، وهوياتها، وخصوصياتها، وتغضب لأبنائها، وتدافع عن مصالحها... إلا المسلمين .فهؤلاء يُطالَبون بأن يذوبوا في الكيان العام، وأن يوزّعوا مودتهم على الجميع، حتى على من يقتلونهم، ويمثّلون بجثثهم، وينتهكون أعراضهم! فإن هم أبوا، واحتفظوا بولائهم لدينهم وأمتهم، وُصِموا بالتعصّب والتطرّف والإرهاب.

ويتسابق المستضعفون، المهزومون من الداخل، إلى التحذير والتخويف: إياكم أن تظهر منكم بادرة "تعصّب" في فكر أو شعور أو موقف! فالعالم قرية واحدة، والإسلام دين التسامح!

لكن هذه مذلة والإسلام ليس دين المذلّة، ولا دين الذوبان، ولا دين التنازل عن الثوابت. الإسلام هو الدين الوحيد في تاريخ البشرية الذي أنصف أتباع الديانات الأخرى، فلم يضطهدهم بسبب عقائدهم، ولم يُكرههم على ترك أديانهم. وحين دخل

أبو عبيدة بن الجراح ﷺ الشام، قال له أهلها من النصارى :أنتم – وإن لم تكونوا على ديننا – أرحم بنا من أهل ديننا.

وحين اضطهدت أوروبا النصرانية اليهود، لم يجدوا ملجأً آمنًا إلا في الأندلس الإسلامية، ثم آوتهم الدولة العثمانية بعد سقوط الأندلس، وأمّنت لهم الدين والنفس والمال... حتى ردّ كثير منهم الجميل بالخيانة، والعمل على تمزيق تلك الدولة من داخلها، والإسهام في إسقاطها.

وبغض النظر عن انحرافات الدول الإسلامية في عصر قوتها، يظلّ الإسلام ثابتًا على مبدئه: عدلٌ بلا ظلم، ورحمةٌ بلا ذوبان، وتسامحٌ بلا تنازل عن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

الإسلام دينُ حفظِ الحقوق، لكنه دينُ العزّة بالإيمان، دينُ الواثق بالحق، السائر على هدى الله، لا التابع للضالّين، ولا الذائب في أعدائه. وهو يُحسن معاملة غير المسلمين الذين لم يعتدوا ولم يحاربوا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.

لكنه – في الوقت نفسه – ينهى نهيًا صريحًا قاطعًا عن موالاة المعتدين والمحاربين، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: 9).

والمسلمون اليوم يعيشون حال استضعاف في بقاع كثيرة من الأرض، يُتَخَطَّفون، وتُستباح دماؤهم وأعراضهم، وقد رخّص الله لهم – في حال الخوف والضرورة – كفَّ الأذى وعدم إظهار العداوة دفعًا للشر، لكنه لم يُبح لهم قط موالاة القلوب.

فثمّة فرقٌ بيّن بين مداراةٍ مشروعة تُدرأ بها المفاسد، وبين ولاءٍ قلبيٍّ محرَّم يذيب الهوية ويقوّض العقيدة.

فالولاء الذي يشمل المحبّة القلبية، والنصرة، والانحياز، لا يكون إلا بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: 28).

وهذا الاستثناء إنما هو في الظاهر والسلوك اتقاءً للضرر، لا في ولاء القلوب وميلها. فالله سبحانه يحذّر عباده من أن يتسلّل الشيطان إلى القلوب من باب الخوف والاستضعاف، فيزيّن لهم موالاة الكافرين طلبًا للأمان. كلا... لا ولاء. حتى في حال الضعف لا ولاء، وإنما تجنّبٌ للاستفزاز، وكفٌّ للشر، بلا تنازل عن ثوابت العقيدة.

أما ولاء القلب، فإنه يذيب الحاجز النفسي بين المؤمن وعدوّ الله، فيميل إليه، ويستحسن طريقه، ويألف باطله، حتى يصبح مثله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾.

فإذا كان هذا في مجرّد ولاء القلب، فكيف بالتعاون معهم لا على البرّ والتقوى، بل على محاربة الإسلام والمسلمين، وتشريع الباطل، ونقض أحكام الله؟

كلّ ذلك من نواقض "لا إله إلا الله "التي يقع فيها كثير من الناس اليوم من حيث لا يشعرون. فإذا أُضيف إليها ما سبق من نواقض العقيدة والعبادة – كالشرك في الحكم، أو صرف أنواع العبادة لغير الله، أو الإيمان بالصدفة والطبيعة، أو نفي تدبير الله لشؤون الكون – تراكم ركامٌ كثيف يحجب نور "لا إله إلا الله"، ويعطّل فاعليتها في النفوس والحياة.

وهذا الركام لا يُزال إلا بالبيان، ولا يُنقّى إلا بالتوحيد الصافي، لتعود "لا إله إلا الله" شحنةً حيّة فاعلة، تحكم التصوّرات، وتوجّه السلوك، وتبني الإنسان والأمّة.

وتلك هي المهمة الأولى للمسلم الحقيقي اليوم.

"تظهر الشياطين في المواضع التي يختفي فيها أثر التوحيد".

كتاب النبوات (2/ 1019)

صور الموالاة ومظاهرها

وفي ختام هذا الفصل، نجمع فيما يلي صور الموالاة ومظاهرها حتى يكون القارئ على بينة من الأمور والقضايا التي تمسها قضية الولاء والبراء.

قال مُحَمَّد بن سعيد القحطاني في كتابه بعنوان: "الولاء والبراء في الإسلام" في الفصل السابع بعنوان صور الموالاة :"وأحب أن أنبه في هذا المقام على أنني لم ألزم نفسي بتتبع الحكم الشرعي في كل صورة من هذه الصور، وذلك لصعوبة القطع بالحكم في كل قضية، لأنه – كما يقول أهل العلم – قد يكون القول أو الفعل كفراً ولكن هناك ما يصرفه عن ظاهره فيما بين العبد وبين ربه، ولكن على العموم فهذه الصور تتفاوت من كون فاعلها خارجاً من الملة كمن يحب الكفار لأجل كفرهم إلى الكبيرة من الكبائر كتعظيمهم والثناء عليهم. وذلك أن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات. وقد حرص الدين الإسلامي على إخلاص العبادة وهي الطاعة والانقياد لله وحده والبراءة من كل متبوع أو مرغوب، أو مرهوب، وتعلق القلب بربه في الخشية والخوف والرجاء والعون والنصرة،" لأن كل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه :خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك.. ومعلوم أن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. أما إذا كان القلب متيماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض"[26].

---

[26] رسالة العبودية لابن تيمية (٩٥ – ٩٦) .

وخطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين كافة أعظم من خطر من يكفر في نفسه فقط. "ذلك أن الإضرار بالمسلمين يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد، وهو كاذب عند الله ورسوله والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغيير الاعتقاد"[27]. وإليك تفاصيل موالاة الكفار[28].

1. الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة [29]. ويتضح هذا الأمر في كونه ولاء للكفار: إنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويجاريهم على مذاهبهم الإلحادية. وقد سبق في التمهيد القول بأن من معتقد أهل السنة والجماعة :إن حب القلب وبغضه يجب أن يكون كاملاً. فالذي يحب الكافر لأجل كفره فهو كافر بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين. يقول ابن تيمية رحمه الله: "أما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان. أما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطي ثواب الفاعل الكامل، ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله

---

[27] الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية: ٣٧١.

[28] من أحسن من كتب في ذلك الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصور منقولة من كتبه.

[29] انظر نواقض الإسلام في مجموعة التوحيد (ص١٢٩) مطبعة الحكومة بمكة.

ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠)".

إذن :فالمحبة والرضى أمران جازمان لا يخرجان عن كونهما كفراً إذا كانا للكفار أو إيماناً إذا كانا للمؤمنين.[30]

2. التولي العام واتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء أو الدخول في دينهم وقد نهى الله عن ذلك فقال: ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران: ٢٨).

قال ابن جرير في تفسيرها: "من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرون على المسلمين فليس من الله في شيء. أي قد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل". وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة: ٥١).

---

[30] تفسير الطبري (٣/٢٢٨) .

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها:" من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه"[31].

وقال ابن حزم: "صح أن قول الله تعالى: (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين"[32].

وقال ابن تيمية: "أخبر الله في هذه الآية :أن متوليهم هو منهم وقال سبحانه: (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء (المائدة: ٨١). فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً"[33].

وقال ابن القيم: "إن الله قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود والنصارى، فهو منهم " ومن يتولهم منكم فإنه منهم" فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم. وهذا عام، خص منهم من يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية. بل إما

---

[31] المصدر السابق (٦/٢٧٧) .

[32] المحلى: (١٣/٣٥) تحقيق حسن زيدان سنة ١٣٩٢ هـ الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر.

[33] انظر الإيمان لابن تيمية (ص١٤) طبع المكتب الإسلامي.

الإسلام أو السيف لأنه مرتد بالنص والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين لأن من دان بدينهم من الكفار بعد نزول القرآن فقد انتقل من دين إلى دين خير منه – وإن كانا جميعاً باطلين – وأما المسلم فإنه قد انتقل من دين الحق إلى الدين الباطل بعد إقراره بصحة ما كان عليه وبطلان ما انتقل إليه فلا يقر على ذلك"[34].

ويستبعد الأستاذ سيد قطب أن يكون بين المسلمين، من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. وإنما المراد ولاء التحالف والتناصر. يقول رحمه الله: "إن الولاية المنهي عنها ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم، فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. يوضح ذلك قوله تعالى بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا (مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ) (الأنفال: ٧٢).

أي ولاية التناصر والتعاون وليس ولاية الدين.

---

(34) أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/٦٧، ٦٩) .

"نقول هذا: لأن البعض يخلط بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة :أن تظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين!! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين.

فلندع من يغفل عن هذا ولنكن واعين للتوجيه القرآني: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء) الآية [35] .

٣. الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٥١).

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب:

[35] في ظلال القرآن: بتصرف (٢/٩٠٩ - ٩١٠) وسيرد مزيد من التفصيل إن شاء الله عند الحديث عن زمالة الأديان!

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ (البقرة: ١٠١-١٠٢).

فأخبر سبحانه أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام .فمن كان من هذه الأمة موالياً للكفار: من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة كإتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل: كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك[36]. وإن هذه الصورة من صور الموالاة قد وقع فيها معظم المنتسبين إلى الإسلام اليوم، فالإيمان ببعض ما هم عليه أمر واقع في (العالم الإسلامي) لا ينكره إلا مكابر جاهل، فها هي الببغوات من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا قد آمنت بالشيوعية مذهباً تارة وبالاشتراكية تارة أخرى، وبالديمقراطية نظاماً أو العلمانية دستوراً، فأخذت هذه المبادئ الكافرة وطبقتها في بلاد المسلمين ملزمة الناس بعبادتها (في الطاعة والانقياد والتنفيذ) ونصبت العداء لكل مسلم موحد ينادي في الأمة أن تعود إلى كتاب الله وسنة رسوله.

وهذه الردة الجديدة سيأتي تفصيل الحديث عنها إن شاء الله – في الباب الأخير.

---

(36) انظر فتاوي ابن تيمية (١٩٩/٢٨ - ٢٠١) .

وإن من الإيمان ببعض ما هم عليه: مسألة فصل الدين عن الدولة وإنه لا علاقة للإسلام بالسياسة فهذه أيضاً فرع للقضية السابقة لم توجد إلا في أوروبا أيام الاضطهاد الكنسي لرجال العلم. ولكن أين الإسلام دين العدل ودين السياسة ودين القوة من (هرطقة) رجال الكنيسة حتى يأتي بعض الأقزام فيستورد تلك السموم من أوروبا ليلبس الإسلام قناعاً مزيفاً فيقول: الإسلام علاقة بين العبد وربه والسياسة لها رجالها ولها قضاياها التي لا تمت إلى الدين بصلة [37].

4. مودتهم ومحبتهم .وقد نهى الله عنها بقوله: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة: ٢٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "أخبر الله أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده موالاة أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب"[38]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ (الممتحنة: ١).

---

[37] من أراد التفصيل الدقيق فعليه بمراجعة كتاب العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي للأخ الأستاذ سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

[38] الإيمان: (ص١٣) .

٥. الركون إليهم: قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ (هود: ١١٣).

قال القرطبي:" الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء والرضا به [39]. وقال قتادة معنى الآية: لا تودوهم ولا تطيعوهم .قال ابن جريج :لا تميلوا إليهم.

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم فإن صحبتهم كفر أو معصية. إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة كما قيل عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى".

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٧٤ – ٧٥).

وإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلاة الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟ ".

6. مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين قال تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (القلم: ٩). والمداهنة والمجاملة والمداراة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من (المسلمين) اليوم وهذه نتيجة طبيعية للانهزام

(39) تفسير القرطبي: (١٠٨/٩) وانظر البغوي والخازن (٢٥٦/٣) أما البيت فهو لطرفة بن العبد.

الـداخلي في نفوسـهم. حيـث رأوا أن أعـداء الله تفوقـوا في القـوة الماديـة فانبهروا بهم، ولأمر ما رسخ وترسب في أذهان المخدوعين أن هؤلاء الأعداء هم رمز القوة ورمز القدوة – فأخذوا ينسلخون من تعاليم دينهم مجاملة للكفار ولئلا يصمهم أولئك الكفرة بأنهم (متعصبون)! وصدق المصطفى ﷺ، إذ يقول في مثل هؤلاء: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم". قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال:"فمن؟"[40].

إن المداهنة والمجادلة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو حتى تؤدي – والعياذ بالله – إلى الخروج من الملة. وهذه إحدى مزالق الشيطان فليحذر المسلم منها على نفسه، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا امتثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

ومن الأمور الواضحة في تاريخ المسلمين: أن من أكبر العوامل في انتصارهم – بعد الإيمان بالله ورسوله – الاعتزاز بالإسلام .يصدق ذلك ويؤيده قول الفاروق ﷺ:"إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله"[41].

---

[40] صحيح البخاري (١٣/٣٠٠ح ٧٣٢٠)كتاب الاعتصام وصحيح مسلم (٤/٢٠٥٤ ح ٢٦٦٩)كتاب العلم واللفظ للبخاري.

[41] أخرجه الحاكم في مستدركه (١/٦٢)كتاب الإيمان. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه.

٧. اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ١١٨). نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، ويواصلون رجلاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجوار فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم [42].

وبطانة الرجل: خاصته تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال (لا يألونكم خبالاً) أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضر والهلاك.

والعداوة التي ظهرت منهم :شتم المسلمين والوقيعة فيهم، وقيل: باطلاع المشركين على أسرار المسلمين [43]. وفي سنن أبي داود قوله صلى الله عليه وسلم:"الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" [44].

---

[42] أسباب النزول للواحدي (ص ٦٨) .

[43] انظر تفسير البغوي (٤٠٩/١) وابن كثير (٨٩/٢) .

[44] كتاب الأدب (١٦٨/٥ ح ٤٨٣٣) وفي المسند (١٧٨/١٦ ح ٨٣٩٨) طبعة: شاكر والترمذي في الزهد (١١١/٧ ح ٢٣٧٩) وقال هذا حديث حسن غريب.

8. طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به [45]، قال تعالى ناهياً عن ذلك: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٩).

وقال: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾ (التوبة: ٣١).[46]

٩. مجالستهم، والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله. وقال تعالى في النهي عن مجالستهم: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٠).

---

[45] مجموعة التوحيد (ص ١١٧) .

[46] تفسير ابن كثير (٣٢٢/٣) .

قال ابن جرير:"قوله (إنكم إذاً مثلهم) أي إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.

وفي الآية دلالة واضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم" [47].

وفي الحديث "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم"[48].

١٠. توليتهم أمراً من أمور المسلمين: كالإمارة والكتابة وغيرها والتولية شقيقة الولاية لذلك فتوليتهم نوعاً من توليهم. وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم. ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً.

والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً. والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبداً. ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب – مثلاً – ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان :لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم

---

[47] تفسير الطبري (٥/٣٣٠) .

[48] رواه أحمد (في المسند) (ح ٨/٨٠ ح ٥٧٠٥) بتحقيق أحمد شاكر وصحيح البخاري (٨/١٢٥ ح ٤٤١٩) كتاب المغازي وصحيح مسلم (٤/٢١٨٥ ح ٢٩٨٠) كتاب الزهد.

الأعمال فهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمى: محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه. كان قذى في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين، وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معمورًا برسل الفرنج والنصارى وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الإدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون عن الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. وحدث أن اجتمع في مجلس (الصالح) أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق .وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً. والله تعالى يقول: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ (المائدة: ٧٣).

وأول أمانتهم وعقد دينهم: "بسم الأب والابن وروح القدس إله واحد".

فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا ... حد رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان ديناراً وأخذ لنفسه اثنين ولا سيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟ وانصرف القوم واتفق أن كبت النصراني بطنته، وظهرت خيانته فأريق دمه وسلط على وجوده عدمه [49].

١١. استئمانهم وقد خونهم الله: قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٥).

١٢. الرضى بأعمالهم والتشبيه بهم، والتزيي بزيهم[50].

١٣. البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم[51].

---

[49] أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/٢٤٢ - ٢٤٤) بتصرف بسيط.

[50] مجموعة التوحيد (ص ١١٧) .

[51] مجموعة التوحيد (ص ١١٧) .

١٤. معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم ويضرب القرآن لذلك مثالين هما: امرأة لوط التي كانت ردءاً لقومها، حيث كانت على طريقتهم، راضية بأفعالهم القبيحة، تدل قومها على ضيوف لوط. وكذلك فعل امرأة نوح[52].

١٥. مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم [53] وهذه الصورة ظهرت واضحة في العصور الأخيرة فقد رأينا (أفراخ المستشرقين) مثلاً – ينشرون فضائلهم وأنهم أصحاب المنهج العلمي السديد و.. و.. الخ. كذلك جاء من ينشر (فضائل) الغرب أو الشرق مضيفاً عليها ألقاب التقدم والحضارة والرقي، واصماً الإسلام والمنتسبين إليه بالرجعية والجمود والتأخر عن مسايرة الركب الحضاري والأمم المتقدمة!!

١٦. تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم مثل: السادة والحكماء ومبادأتهم بالسلام "ومما يجب النهي عنه ما يفعله كثير من الجهال في زماننا إذا لقي أحدهم عدواً لله سلم عليه ووضع يده على صدره إشارة إلى أنه يحبه محبة ثابتة في قلبه. أو يشير بيده إلى رأسه إشارة إلى أن منزلته عنده على الرأس وهذا الفعل المحرم يخشى على فاعله أن يكون مرتداً عن الإسلام لأن هذا من أبلغ الموالاة والموادة والتعظيم لأعداء الله"[54].

---

[52] تفسير ابن كثير: (٦/٢١٠) وقد سبق الحديث عنهما.

[53] مجموعة التوحيد (ص١١٧) ورسائل سعد بن عتيق (ص ١٠١) .

[54] تحفة الإخوان للشيخ حمود التويجري (ص ١٩) الطبعة الأولى / مؤسسة النور بالرياض.

والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعزة والتقدير وهما مقصورتان على المؤمن. أما الكافر فله الإهانة والذلة وقد ورد في الحديث الصحيح النهي عن مبادأتهم بالسلام فقال ﷺ: "لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه"[55]. وسيأتي تفصيل هذه القضية في الباب الثاني.

١٧. السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم[56]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله"[57]، وقال:"لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا"[58]. وسوف يأتي بمشيئة الله – في الباب الثاني تفصيل لهذه المسألة إذا كانت هناك ضرورة لهذه المساكنة.

١٨. التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم والقتال في صفهم[59]، وهذه الصورة من أخطر ما ابتليت به أمتنا في هذا العصر.

---

(55) صحيح مسلم: (١٧٠٧/٤ ح ٢١٦٧) كتاب السلام وأبو داود في الأدب (٣٨٤/٥ ح ٥٢٠٥) .

(56) الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ (ص ٦٤) .

(57) أبو داود (٢٢٤/٣ ح ٢٧٨٧) كتاب الجهاد قال الألباني: حديث حسن، وانظر صحيح الجامع الصغير (٢٧٩/٦ ح ٦٠٦٢) .

(58) الحاكم في المستدرك (١٤١/٢) وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(59) الإيمان. حقيقته. أركانه. نواقضه للدكتور مُحَمَّد نعيم ياسين (ص ١٤٧) .

ذلك أن وجود ما يسمى في المصطلح الحديث (الطابور الخامس) قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال سواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشؤون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معاً .وصدق الشاعر محمود أبو الوفا فيما نقله عنه أستاذنا الفاضل الشيخ مُحَمَّد قطب أنه قال حين خرج الاستعمار الإنجليزي من مصر: "خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر!!" – نعم إن داءنا هم الإنجليز السمر.

ترى من هو الساهر على تنفيذ خطة "دنلوب" في التربية والتعليم؟ ومن هو القائم بتنفيذ مخططات اليهود الثلاثة :فرويد وماركس ودور كايم في أفكارهم الخبيثة؟[60] إنهم المستغربون من أبناء هذه الأمة الذين حققوا لأعداء الله ما لا يحلمون به .ولكن هيهات لهم فإن الله يقول:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١ – ١٧٣).

١٩. من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضاً للمسلمين وحباً للكافرين[61].

---

[60] يراجع كتاب الأستاذ مُحَمَّد قطب: التطور والثبات في حياة البشرية فصل: اليهود الثلاثة (ص٣٥) وكتاب هل نحن مسلمون (ص١٣٣) وكتاب مذاهب فكرية معاصرة.

[61] الردة بين الأمس واليوم (ص٣٣) .

٢٠. من انخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية وبذل لها الولاء والحب والنصرة[62] .

ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور

قد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على سلطانهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله، عذراً لهم فيعذرهم من أجلها. لأنها من تزيين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها. والله سبحانه وتعالى لم يقبل عذراً لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم إلا عذراً واحداً هو: الإكراه: قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل: ١٠٦ – ١٠٧).

وقال سبحانه: ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (آل عمران: ٢٨).

والإكراه لا ينفع أحداً فيما يتعلق بالرضى القلبي، والميل الباطني إلى الكفار لأنه غير مأذون فيه على أية حال لقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالإيمان) ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب. فإنه لا يعلم ما في القلب إلا الله. فمن

---

[62] المصدر السابق (ص٤٠) .

والى الكفار بقلبه ومال إليهم فهو كافر على كل حال. فإن أظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره وفي الآخرة يخلد في النار، وإن لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهراً عصم ماله ودمه وهو منافق في الدرك الأسفل من النار.

موقف المسلم تجاه هذه الصور

الولاء والبراء هو الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة .والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦). والله ﷻ أراد للمسلم – بل للإنسان – الكرامة في هذه الأرض ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠).

فحين يكون ولاء المسلم لله ولدينه وحزبه المؤمنين فهو بهذا يقدر هذا التكريم حق قدره، ويعبد الله حق عبادته، لأنه تخلى بل وعادى كل عبودية تريد إخضاعه لسلطانها من دون الله. أما حين ينتكس فيعبد غير الله – سواء بالشعائر أم بالشرائع أم بالطاعة والانقياد – فإنه بهذا يهبط من تلك المكانة والكرامة إلى عبودية أهواء شتى، وآراء ومذاهب تمزق عليه حياته وتضيع عليه آخرته، فيعيش شقياً – وإن زعم أنه سعيداً – ذلك أن مقياس السعادة والشقاوة، في التصور الإسلامي نابع من عبادة الله وحده وتحكيم شرعه والخلوص له، أو عكس ذلك :عبادة الطاغوت والهوى والشهوة وتلك هي دركات الشقاء التي يعيش فيها كل من أعرض عن هدى الله ودينه.

وموالاة غير المؤمنين – فضلاً عن أنها ردة وعصيان لله سبحانه – هي مصدر التذبذب والفصام النكد في حياة فاعلها، لأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وفي هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الآراء، وخلط الحق بالباطل بل أقصي الحق ورفعت شارة الباطل :أين يقف المسلم؟ أين يكون ولاؤه ولمن يكون وهو يرى الكفر الصريح معلناً ومنفذاً في حياة الناس ثم يوضع لذلك (لافتة بسيطة) إن هذا لا يتعارض مع الإسلام؟ ومثال ذلك من يدين بالاشتراكية أو الديمقراطية أو العلمانية أو القومية أو الشيوعية ثم يقال :هذا لا يعارض الإسلام لأنه علاقة بين العبد وربه. لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى شرع الله مبعداً من الأرض ومحارباً، ثم يستورد القانون البشري ليكون هو دستور الناس في حياتهم ومنهج مسيرتهم ويقال، إن هذا لا يعارض الإسلام لأن التشريع الإسلامي – سواء قيلت بلسان الحال أو المقال، – لم يعد مسايراً لركب الحضارة والتطور؟!

لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى المنافقين يتمسحون باسم الإسلام وهم في الحقيقة أخطر على الدين من أعدائه الصرحاء؟

هذه أسئلة وأسئلة غيرها كثيرة ... والإجابة عليها تكمن في الحقيقة التالية: إنه لا يمكن للمسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه وللمؤمنين خالصاً إلا إذا كان مدركاً لحقيقة التوحيد "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" متمثلاً لها، مدركاً مدلولها ومعناها عارفاً بمقتضياتها ولوازمها.

ثم علمه بالجاهلية والشرك والكفر والردة والنفاق حتى لا يكون مصيدة للوقوع في هذا الشر. لأنه لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

ثم علمه بحقيقة الولاء والبراء في المفهوم الإسلامي الصحيح وهو: أن الولاء والحب والنصرة للمؤمنين من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا وفي أي مكان حلوا، لأنه لا يؤمن بما تؤمن به الجاهليات من لوثة الدم ونتن العرق وخسة التراب.

فهو مع إخوانه المؤمنين بقلبه ولسانه وماله ودمه، يألم لألمهم ويفرح لفرحهم وبغضه وبراءه لجميع أعداء الله سواء كانوا كفاراً أصليين أم مرتدين أم منافقين وموقفه منهم :الجهاد بالنفس والمال والقلم واللسان وكل ما أوتي من طاقة وعلى حسب جهده وطاقته.

إن هذه الحقيقة هي التي – إذا أدركها المسلم وعمل بها – يستطيع بها أن يحدد موقعه من كل صورة من الصور السابقة وغيرها، فيعرف من يوالي ومن يعادي، وماذا يريد الإسلام منه وماذا يريد للإسلام من أعدائه.

وهو بهذا يكون مسلماً واعيًاً بعزة الله غير واهن ولا حزين لأن الله معه وهو القائل: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩)[63].

ومن كان الله معه فلن تضيره أن تجتمع البشرية بكاملها لأن تضره فهي بمجموعها لا تستطيع ذلك إلا إذا كان الله يريد له ذلك وإلا فهي أعجز من أن تنال منه شيئاً بسيطاً بغير قدر الله وإرادته.

وفي الختام: بعد هذا البيان المفصّل، يتبيّن أن الحديث عن نواقض الإسلام ليس ترفًا علميًا، ولا جدلًا فكريًا، ولا استدعاءً لخلافات الماضي، وإنما هو من أصل الدين الذي لا يقوم الإيمان إلا به. فكما أن الإسلام لا يثبت إلا بتحقيق "لا إله إلا الله" علمًا

---

[63] حبذا مراجعة كتاب (هل نحن مسلمون) (ص٤٧) .

واعتقادًا وقولًا وعملًا، فإنه ينتقض كذلك إذا نُقضت أصولها، أو هُدمت مقتضياتها، أو نُقضت عراها واحدةً بعد أخرى.

وإن مما يجب التنبيه عليه أن تفصيل النواقض، وشرحها، والتحذير منها، والبراءة منها ومن أهلها ليس غلوًّا ولا تشددًا، بل هو من تمام النصح لله، ولكتابه، ولرسوله ﷺ، ولأئمة المسلمين وعامتهم. وقد كان هذا سبيل الأنبياء، وطريقة السلف، إذ لم يكتفوا بالدعوة إلى التوحيد مجملًا، بل فصّلوه، وبيّنوا ما يفسده وينقضه، لئلا يُلبَّس الحق بالباطل، ولا يُعبد الله على جهل.

ولا يجوز أن نملّ من تكرار هذا البيان، ولا أن نستثقل طرقه على الأسماع؛ فإن الخطر كل الخطر أن تألف القلوب الشرك والبدع والنواقض وهي لا تشعر، وأن تُسلب "لا إله إلا الله" حقيقتها، حتى تبقى لفظًا مجرّدًا لا سلطان له على التصورات ولا على السلوك. وقد أخبر النبي ﷺ أن هذا الدين يُنقض عروةً عروة، وأن أول ما يُنقض منه الحكم، ثم تتتابع العرى حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه.

وإذ نبيّن هذه النواقض، فإننا نُفرّق – وجوبًا – بين الحكم على الأقوال والأفعال والمناهج، وبين الحكم على الأعيان؛ فالأول بيانٌ للحق وحراسة للدين، وأما الثاني فله ضوابطه وشروطه وموانعه، وليس موضعه في هذا المقام. والمقصود هنا أن يكون المسلم على بصيرة من أمره، عارفًا بما يفسد دينه، حذرًا مما يهدم إيمانه.

فالواجب على كل مسلم:

- أن يتعلم نواقض الإسلام كما يتعلم فرائضه،
- وأن يبرأ منها باطنًا وظاهرًا،

- وأن لا يزينها ولا يلتمس لها الأعذار،
- وأن يقف عند حدود الله ولو خالفه الناس جميعًا.

فلا نجاة يوم القيامة بكثرة الأعمال مع فساد الأصل، ولا بسلامة الظاهر مع خراب الباطن، وإنما النجاة بتحقيق التوحيد، وصيانته من كل ما ينقضه أو ينقصه. نسأل الله أن يحيي قلوبنا بلا إله إلا الله، وأن يميتنا عليها، وأن يجعلنا من أهلها صدقًا وعلمًا وعملًا، غير مبدّلين ولا ملبّسين، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

(لَوْلَا أن رَّأىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

المعية الربانية للمخلصين تسير بهم لبرّ الأمان مهما اعترضتهم الفتن والحوادث العظام.

فليكن رجاء معية الله تعالى دأب المؤمن والمؤمنة، وليقدما لها الأسباب الموجبة!

إخلاص التوحيد والعبادة لله جل جلاله وحده لا شريك له.

واجب المرحلة: العودة للدين والجهاد الشامل على كافة الميادين

تقف الأمة الإسلامية اليوم على مفترق تاريخيٍّ بالغ الخطورة، أمام واقعٍ هو الأشدُّ تعقيدًا والأوسعُ شمولًا في مسيرتها كلِّها؛ واقعٌ تراكمت فيه الانحرافات، وتكاثف فيه التخلف، حتى غدا الضياع عامًا لا يستثني قطرًا ولا ميدانًا من ميادين الحياة.

فبينما كانت المحن الكبرى في تاريخ الأمة – كالغزو الصليبي، أو الاجتياح التتري، أو سقوط الأندلس – تصيب جزءًا من جسدها أو ناحيةً من ديارها، فإن البلاء اليوم قد أحاط بالأمة إحاطةَ السوار بالمعصم، مسَّ عقيدتها، وأخلاقها، وسياستها، واقتصادها، وثقافتها، حتى بات الخلل شاملًا في الرؤية والمنهج والوجهة.

وهذا الانحدار العميق لا يمكن اختزاله في أزمة سياسية أو عثرة اقتصادية، ولا يُفسَّر فقط بتآمر الأعداء أو اختلال موازين القوة، بل هو – في حقيقته – أزمة إيمانية وجودية، نابعة من موقف الأمة من أصل دينها، ومن علاقتها برسالتها التي شُرِّفت بحملها.

إنه خللٌ في الجذور قبل أن يكون فسادًا في الفروع، وانحرافٌ في المنهج قبل أن يكون ضعفًا في النتائج.

ومن هنا، فإن البحث عن الخلاص في الحلول المستوردة، أو المسكنات المادية، أو المشاريع الجزئية المبتورة، ليس إلا هروبًا من جوهر الداء، ومراكمةً لهزائم جديدة. فدواء الأمة لا يكون إلا من جنس دائها، ولا تكون نهضتها إلا بالرجوع الصادق إلى منبعها الأصيل.

وهنا يشرق هدي النبي ﷺ، لا بوصفه وعظًا تاريخيًّا، بل تشخيصًا دقيقًا وسُنَّةً ربانية لا تتبدل.

فقد قال ﷺ: "إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم".[64]

فهذه الكلمة النبوية ليست مجرد إخبارٍ عن حال، بل رسمٌ لطريقٍ واضح: ذلٌّ يُسلَّط، وواقعٌ يُكبل، ولن يُرفَع، ولن يتغير، حتى تكون العودة لدين الله تعالى.

والعودة إلى الدين ليست شعارًا يُرفع، ولا عاطفةً تُستثار ولا دعاوى تَّدعى بلا برهان، بل هي التزامٌ شاملٌ يبدأ بإعادة الاعتبار لحقيقة التوحيد وما تقتضيه من تحكيم، وولاء، وبراء، وطاعة، ثم يمتد إلى إقامة الدين في النفس والمجتمع، وينتهي إلى الجهاد بمعناه الواسع: جهاد الإيمان، وجهاد التربية، وجهاد الدعوة والبلاغ، وجهاد الدفع وجهاد إعلاء كلمة الله، كلٌّ في ميدانه وبحسب استطاعته.

فما لم تعُد الأمة إلى دينها عودةَ فهمٍ وعملٍ وتضحية، فستظل تدور في حلقة الذل، مهما تغيّرت الوجوه، وتبدّلت الشعارات، وتعددت المشاريع.

مقتضيات "لا إله إلا الله": جوهر العودة للدين

إن "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" هي الجذور التي تثبت مكانة هذه الأمة في الأرض، وهي "القول الثابت" الذي يثبت الله به الذين آمنوا .

---

(64) رواه أبو داود وصححه جمع من أهل العلم

إن التمكين في الأرض مرهون بمدى وعي الأمة بمدلول هذه الكلمة وعملها بمقتضياتها الشاملة. فمقتضيات التوحيد ليست محصورة في الجانب الإيماني المجرد، بل تشمل كل أدوات التمكين التي يمكن الله بها الأمم.

وكل أسباب ضعف الأمة وتخلفها ترجع إلى سبب واحد نهائي هو التخلف عن مقتضيات لا إله إلا الله. وهذا التخلف شمل الجذور الثلاثة الكبرى:

1. المقتضى الإيماني: المتعلق بصفاء العقيدة واليقين.
2. المقتضى التعبدي: المتعلق بإخلاص العبادة لله وحده.
3. المقتضى التشريعي: المتعلق بتحكيم شرع الله في كل جوانب الحياة.

إن التمكين الذي يعد به الله المؤمنين الصادقين هو تمكين الرضا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور: 55).

وهذا يختلف جذرياً عن تمكين الاستدراج الذي يمنحه الله للكافرين حين يتخذون الأسباب المادية، إذ أنه تمكين مؤقت يعقبه محق وغضب في نهاية المطاف.

هدي النبي ﷺ في التغيير والبناء

إن واجب المرحلة التي تقف عندها الأمة اليوم ليس مجرّد إصلاحٍ جزئي، ولا ترقيعٍ لواقعٍ متداعٍ، بل هو إعادة بناءٍ شاملة، تُقام على أنقاضٍ مثقلة بالانحرافات والتراكمات. وهي – بلا ريب – مهمةٌ أشقّ وأثقل من إقامة البناء الأول؛ إذ إن رسول الله ﷺ بدأ دعوته في أرضٍ خاليةٍ من هذا الركام، أما نحن فنحاول البناء في وسط أنقاضٍ فكرية، وعقدية، وتشريعية متراكمة.

وقد نبّه النبي ﷺ إلى ثقل هذه المرحلة، وعِظم أجر الثابتين فيها، فقال فيما رواه أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إنَّ من ورائِكم أيَّامَ الصَّبرِ، الصَّبرُ فيهنَّ مثلُ القبضِ على الجمرِ، للعاملِ فيهنَّ أجرُ خمسينَ رجلًا يعملون مثلَ عملِكم."

قالوا: يا رسولَ اللهِ، أجرُ خمسينَ منَّا أو منهم؟

قال: "بل أجرُ خمسينَ منكم." رواه أبو داود والترمذي

وإن المنهج النبوي في التغيير لم يكن عشوائيًّا ولا ارتجاليًّا، بل قام على ركنين عظيمين لا قيام لأي نهضة بدونهما:

أولًا: تصحيح التوحيد تصحيحًا شاملًا

وذلك ببيان مقتضيات "لا إله إلا الله" بيانًا واضحًا، وكشف نواقضها كشفًا صريحًا، وتحقيق الكفر بالطاغوت بكل صوره:

- اعتقادًا: برفض كل مرجعية تُزاحم الوحي أو تعلو عليه.
- عبادةً: بإفراد الله وحده بالقصد والخضوع والرجاء والخوف.

- تشريعًا: برفض الاحتكام لغير شرع الله، وعدم الرضا بغير حكمه سبحانه.

فالتوحيد في المنهج النبوي موقف شامل من الحياة، ومن مصادر التلقي، ومن أنظمة الحكم، ومن معايير الولاء والبراء.

قال الله عز وجل: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 256– 257).

ثانيًا: بناء القاعدة الصلبة من الرجال

وهم الأفراد الذين يُربَّون على مستوى عالٍ من الصدق، والبصيرة، والتجرد، والصبر، حتى يكونوا أهلًا لحمل الأمانة، وصالحين للاقتداء، وقادرين على التأثير.

فهذه القاعدة النوعية هي عماد التغيير، وحاملته الأولى، ومنها ينطلق البناء الواسع.

إن التربية لا تُثمر بلا قدوة، وقد كان رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة قولًا وعملًا، حالًا ومآلًا. كما أن حركة البناء في بداياتها لا تُخاطب الجماهير دفعةً واحدة، ولا تُقام على الكثرة العددية، بل تبدأ بصناعة الصفوة المؤمنة التي تحمل ثقل الدعوة، وتصبر على طريقها، وتدفع ثمنها.

وهكذا كان المنهج النبوي: توحيدٌ صافٍ، وتربيةٌ عميقة، وقاعدةٌ صلبة ثم يأتي النصر والتمكين على سنن الله التي لا تتبدل.

فأولئك الذين يهتمون جدا للكثرة والوحدة على أسس هشة، لم يدركوا بعد أهمية الجودة في صناعة القاعدة الصلبة، أهمية سلامة وصلابة الخامات التي تحمل الأمانة، واجتماعها على مقتضيات "لا إله إلا الله" خالصة. وربّ كتيبة نقية صادقة خير من جيش كله كدر، قد اغتر بأعداد جنوده. ولعل في ذلك إشارة لحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن آخر الزمان: (لا تزال طائفة من أمتي) فجعل الظهور لهذه الطائفة لكونها اجتمعت وعملت بمقتضيات "لا إله إلا الله".

ومن يتأمل في حوادث التاريخ يجد التغيير يبدأ دوما من قوة تقود هذا التغيير، وليس من كثرة تحدثه، فالجماهير بحاجة لقيادة وكلما كانت هذه القيادة راشدة، كان انتظامها واعدًا، لكننا نرى نتائج القيادات المتهورة المنحرفة، كيف حرفت الشعوب وأودت بها إلى مهالك الدنيا ومواطن الاستضعاف والذلة.

وما لم يمسك القيادة الأقوياء الأمناء، فلا قيمة لكثرة كالغثاء !

ومن هنا نرى هيبة العلاج النبوي لأزمة الأمة اليوم، فمن تخلّف عن هدي نبيه صلى الله عليه وسلم، تخلّف عن مراتب الريادة والسيادة والشرف.

الجهاد الشامل: ضرورة المرحلة

إن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وهو مقتضى أصيل من مقتضيات "لا إله إلا الله"، بل هو التعبير العملي الأسمى عن صدق الانتماء لهذه الكلمة. والأزمة الراهنة لا يمكن حلها إلا بتجنيد الأمة للجهاد تحت راية التوحيد، ولكن بمفهومه الشامل الذي لا يقتصر على الجانب القتالي بل يشمل كل ميادين الصراع.

ومنه: الجهاد العلمي والفكري، لتحرير العقول من التبعية وتوفير أدوات التمكين الحضاري، ويكون ذلك بمواجهة الغزو الفكري الثقافي ودحض الشبهات وإحياء العقيدة الإسلامية الأصيلة والاستعلاء بها.

والجهاد التربوي والأخلاقي لإقامة القاعدة الصلبة التي لا تزلزلها الأحداث وينعكس إيمنها في سلوك واقعي محسوس، ويكون ذلك ببناء الإنسان المسلم القوي، والأسرة الواعية والقياداة المربية، والمدارس الساهرة على التربية التي تخدم مقتضيات التوحيد، وعلاج العيوب الحضارية في النفس والمجتمع.

والجهاد الاقتصادي والتنموي، لتحرير الأمة من الهيمنة الخارجية وتوفير الموارد اللازمة للجهاد الشامل، ويكون ذلك بالسعي نحو الاكتفاء الذاتي وكسر التبعية الاقتصادية وإقامة نظام مالي إسلامي عادل.

والجهاد السياسي لحماية الأمة من الاستدراج وتوجيه الطاقات نحو الغاية الكبرى وذلك بصناعة الوعي بالمؤامرات الداخلية والخارجية وإدارة الصراع بحكمة والعمل على إقامة حكم الشريعة وصناعة الفهم الصحيح بضرورته وواجب إقامته.

والجهاد القتالي العسكري، وهو لغة التعبير الأوضح عن العزة والتمكين ونتيجة حتمية لنجاح الجهاد في الميادين الأخرى، لحماية الأمة وردع الأعداء ورفع الظلم عن المستضعفين وإعلاء كلمة الله تعالى. ويبدأ من الإحاطة الشاملة بخريطة الأعداء ووسائلهم والعناية بشدة بالإعداد والجمع ورسم الاستراتيجيات الفذّة لإقامة بنيان الإسلام الحر والمستقل والشامل في الأرض، وتعزيز عوامل القوة والتمكين. وبناء القيادات جيش للمسلمين موحّد تقي أمين، لا يكل ولا يمل من حراسة الثغور وجهاد الأعداء وإجهاض مكرهم.

إن الاقتصار على جانب واحد من جوانب التربية أو الجهاد هو إخلال بعملية البناء ذاتها. فكما أن التربية الروحية ليست غاية في ذاتها بل وسيلة لترسيخ البناء، فإن الجهاد القتالي لا يمكن أن يكون فعالاً ومثمراً إلا إذا قام على قاعدة صلبة من الجهاد الإيماني والتربوي والعلمي. وهنا يتجلى لنا تكامل ميادين الجهاد وسعته، حتى أن كل مسلم ومسلمة في أي أرض وفي أي عمر، يدخلون في حركة الجهاد الشاملة التي تعيد هذه الأمة لدينها وتصنع عزتها.

عقبات الطريق ومبشرات النصر

لكن الطريق إلى العودة لدين الله تعالى عودة كاملة شاملة، والجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، محفوف بالعقبات الجسام، وأبرزها:

- الرواسب الفكرية: كالفكر الإرجائي الذي يفرغ التوحيد من محتواه العملي، والفكر الصوفي الذي يغلب الأماني على العمل بالتشريع، والفكر العلماني الذي يفصل الدين عن الحياة. ولو تأملنا نجد كل ذلك يدور في فلك الوهن! حب الدنيا وكراهية الموت.
- الإعلام المفسد والمشوه: الذي يعمل على تشويه العاملين لدين الله تعالى واتهامهم التهم الباطلة، وإفساد الجماهير وتلهيتها عن ذكر ربها. وكما أن هناك إعلام مفسد، هناك إعلام جهادي يبني ويصلح ويحق الحق ويبطل الباطل، حين يقوم عليه الأتقياء الأمناء الأقوياء. وتلك سنة تدافع ماضية، فطوبى لمن نال من فضائلها.
- عنف البطش والكيد العالمي: الذي تمارسه الصليبية العالمية والصهيونية وعملاؤهما لتضييق الخناق على النهضة الإسلامية. ما يتطلب الحذر واليقظة والاستفادة من التجارب السابقة وسعة الإحاطة بأساليب الأعداء. وتطوير الأساليب والأسباب التي تمنع أو تضعف إثخانهم في المسلمين وعوامل الانبعاث.
- منهجية الاجتزاء والتطفيف: الذي تمارسه بعض الحركات الإصلاحية، فتهتم بجانب دون الآخر وتعطل ميدانا من ميادين إعلاء كلمة الله تعالى. فقضايا الأمة

تحل بشكل جذري وشامل وليس جزئي منفصل. وهنا تبرز أهمية تكامل وانسجام الجهود بمرجعية واحدة ومنهجية واحدة وهدف واحد، حتى يعمل الجميع بشكل حلف يعرف مهمته جيدًا، ولو تباعدت الديار والمسافات والأزمنة، كلّ على ثغره قد عرف ما هي مسؤولياته. فيحفظ غزل العاملين ويبني على بصيرة ويصلح بحكمة ويورث بأمانة وعلم.

- تعطيل الرقابة وشجاعة الإصلاح: فالعديد من التجارب لا تهتم بمراجعة الأخطاء وتهتم بصورتها أكثر من جوهرها. وتهمل تربية الأتباع. فتحمل بذور الانهيار بداخلها. وأخطر ما في ذلك تقديم تقديس الرموز والجماعات على الرسالة نفسها، بحجة أنهم يعملون لهذه الرسالة، بل يجب أن يجتمع الجميع على إخلاص الدين لله تعالى والكفّ عن تمجيد الأسماء وتقديسها لحد إخلاص الدين لها بالتماهي مع أخطائها والصمت على منكراتها وتزيين زلاتها. وكلما كان إخلاص الدين لله قويا، كان الإنصاف حاديا ودليلًا بلا غلو ولا بخس. وكان التركيز على خدمة الرسالة أولى لا على من يخدم الرسالة! وشتان بين المقصدين.
- نفور الناس من الشريعة: لما أحدثته الآلة الإعلامية الغربية وأخطاء بعض الجماعات عند تطبيقها، وسوء الفهم والدراية بعظمة هذا النظام السماوي الشامل والمحيط بخصائص البشر وقصورهم. وإبراز محاسن الشريعة ومكانتها في قيادة الأمم، أمر بالغ الأهمية.

ومع كل ذلك، فإن المبشرات أكبر من العقبات وإن كبرت. إذ لا يزال هناك جبهات تدفع هذا العدوان، وهي بحد ذاتها آية من آيات الله تعالى بعد كل ما أصاب الأمة، في وقت أضحينا نبصر أمارات انهيار الحضارة الغربية بما تحمل من عوامل الفساد .

ويكفي من ذلك إقبال مئات الألوف من الغربيين على الإسلام في زمن الحرب العالمية على هذا الإسلام، مما يؤكد أن الإسلام قادم وأن الله غالب على أمره.

الحل العملي الحقيقي

إن الذين يستعجلون الحلول العملية ويستثقلون الحديث عن التوحيد ومقتضياته وموجباته، هم في الحقيقة يمارسون حلولاً خارجة عن المنهج النبوي، وستذهب جهودهم عبثاً لأنها لم تنبعث من لا إله إلا الله ولم تحكم بشريعتها.

والحل العملي الحقيقي للأزمة الراهنة هو الرجوع إلى الإسلام، بكل مقتضياته، بدءاً بالمقتضى الإيماني، ومروراً بكل المقتضيات بعد ذلك، بما فيها الجهاد في سبيل الله عز وجل.

إن واجب المرحلة يقتضي من المسلمين العاملين لدين الله تعالى أن يعرفوا مهمتهم بدقة، وأن يزرعوا اليقين في قلوب الناس بأن المستقبل للإسلام، وأن السبيل إلى ذلك هوالعودة التي لا اضطراب فيها، إلى "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله"، وتربية النفس على مقتضياتها، وتجنيدها للجهاد تحت رايتها. تلك الراية التي لا تحتكر في جماعة أو فئة من الناس، ولا يمكن ذلك، بل هي عظيمة بسعة الإسلام العظيم، الذي يجمع الجميع بإخلاص الدين لله الواحد الأحد .

عندئذ فقط، سيتغير وجه الأرض، وتشرق العقول المتعبة وتملأ المعدات الخاوية، وتعمر الأرض حقاً، تحقيقاً لوعد الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: 96).

ما تزال القدوة نادرة في واقعنا الإسلامي، وهي فجوة لم تتشكل فجأة، بل هي نتاج مسار امتد لعقود. فخلال نحو نصف قرن، انشغلت كثير من الحركات الإصلاحية بتوسيع القاعدة الجماهيرية، قبل أن تُعنى بتكوين العدد الكافي من المربين القادرين على توجيه هذه الجماهير وبنائها. فكانت النتيجة التي نلمسها اليوم بوضوح: إقبال متزايد من الشباب، يقابله نقص حاد في المربين المؤهلين.

وفي ظل هذا الواقع، لم يعد مقبولًا استمرار الخلل، بل بات من الضروري أن تعيد المشاريع الإصلاحية ترتيب أولوياتها، فتتجه بجدية إلى صناعة المربين قبل توسيع الدوائر. فالتربية ليست عملاً تكميليًا، بل هي الأساس الذي يُبنى عليه كل إصلاح حقيقي. وإلا فإننا سنجد أنفسنا أمام ظواهر سطحية واسعة الانتشار، كثيرة الزخم قليلة الأثر، كزبد يعلو ثم لا يلبث أن يزول، بينما ما ينفع الناس وحده هو الذي يستقر ويثمر.

ولا يقف التحدي عند قلة المربين فحسب، بل يتجاوزه إلى غموض مفهوم التربية ذاته لدى كثير ممن يتصدرون للتوجيه. إذ تُختزل التربية أحيانًا في خطاب عاطفي أو توجيه مرحلي، دون بناء متكامل يُعنى بالإيمان والعلم والسلوك معًا. وهنا تبرز الحاجة الملحّة إلى مراجعة المناهج، وتمحيص مسارات الدعوة، وإحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر والنصح لله، بوصفها صمّام أمان يحفظ المسار من الانحراف، ويقي من تسلل البدع والتصورات المختلة.

إن التحدي الحقيقي ليس في كثرة الأتباع، بل في صناعة الإيمان الراسخ؛ الإيمان الذي ينتقل من كونه معرفة ذهنية إلى يقين حيّ في القلب، يملؤه طمأنينة بقدر الله، ويمنح صاحبه ثباتًا أمام الفتن، فلا تزعزعه الأحداث ولا تفتنه التقلبات. فبهذا وحده تُبنى النفوس، وبه تستقيم المسيرة، ويؤتي العمل ثماره في واقع الناس.

لا يمكن تجاهل الآثار السلبية للبيئة التي يعيش في نطاقها كثير من المسلمين؛ بيئة يغلب عليها الاضطراب، وتأنف من النظام، وتميل إلى العفوية التي تنفر من التخطيط، ويطبعها قِصر النفس؛ حماسة تشتعل سريعًا ثم لا تلبث أن تخبو بالسرعة نفسها. وهي سمات تشكّلت عبر سياقات تاريخية واجتماعية معقدة، غير أن الإسلام – حين تمكّن من القلوب – استطاع أن يسمو بالناس فوق هذه المحددات، وأن يصوغ منهم نموذجًا فريدًا: أمةً شاهدةً على الناس، قائمةً بالحق، منضبطةً بمنهج ربها.

لكن حين ضعفت قبضة الإيمان في القلوب، وعاد الدين في بعض صوره إلى دائرة الشعارات لا البناء، تسللت تلك العلل من جديد: فوضى في العمل، ونفور من التخطيط، وضعف في الاستمرار، واندفاع غير منضبط يعقبه فتور سريع. وهنا تتجلى

حقيقة مهمة: أن الخلل ليس في البيئة وحدها، بل في ضعف المنهج الذي يحرر الإنسان من أسرها.

إن معالجة هذه الاختلالات ليست مسألة تنظيمية فحسب، بل هي من صميم مقتضيات "لا إله إلا الله"، إذ تحمل هذه الكلمة في جوهرها معاني الانضباط، والاتزان، والالتزام، وبناء الإنسان القادر على إعمار الأرض وفق منهج رباني. فهي ليست مجرد شعار يُرفع، بل مشروع حضاري يُبنى، يعالج الفوضى بالنظام، والعشوائية بالتخطيط، وقِصر النفس بالصبر والمصابرة.

ومع ذلك، لا بد من وعي العقبات التي تعترض طريق التربية والبناء؛ من تضييق وضغوط تواجه أي مشروع إصلاحي جاد، إلى حملات التشويه، ومحاولات إضعاف الهوية، وإرباك مسارات النهوض. وهي تحديات حقيقية تؤثر في مسار التربية والتعليم، وتفرض واقعًا من التعقيد لا يمكن القفز عليه أو تجاهله.

غير أن إدراك حجم هذه التحديات ينبغي أن يقود إلى مزيد من الوعي لا إلى اليأس؛ إلى بذل الجهد لا إلى الاستعجال. فطريق الإصلاح بطبيعته طويل، يحتاج إلى صبرٍ عميق، ونَفَسٍ ممتد، وعملٍ تراكمي لا يلتفت إلى النتائج العاجلة بقدر ما يثبت على المنهج الصحيح.

وفي مقابل هذه التحديات، تظل بشائر النهوض أكبر وأعمق. فبالنظر إلى حجم الانحرافات التي مرّت بها الأمة، وشدة الضغوط التي تعرّضت لها، كان يُظن أن طريق العودة قد انسدّ، وأن الانبعاث بات بعيد المنال. لكن سنن الله جرت بخلاف ذلك؛ إذ

شكّلت التجارب المتعاقبة – على ما فيها من قصور أو تعثر– محطات إيقاظ متتالية، أعادت تحريك الوعي، وبعثت في الأمة روحًا جديدة.

لقد انتقلت الأمة، في مسارها العام، من حالة خمول ثقيل إلى حركة متنامية، ومن فراغ داخلي إلى بحث جاد عن المعنى والاتجاه. وكل موجة رفض للظلم، وكل استجابة واعية للأحداث، إنما هي دليل على أن جذوة الحياة لم تنطفئ، وأن الواقع القائم لم يعد مقبولًا، وأن التغيير– مهما طال زمنه– بات ضرورة تفرض نفسها.

وهنا تتأكد الحقيقة الكبرى: أن النهوض ليس لحظة عابرة، بل مسار طويل، وأن تجاوز العوائق يبدأ بإصلاح الداخل، وبناء الإنسان، وترسيخ الإيمان الذي يصنع الثبات، ويحوّل الحماسة المؤقتة إلى عملٍ مستمر، ويعيد للأمة قدرتها على السير بثبات نحو غايتها.

وإذا قيل اليوم إن الطريق لا يزال طويلًا، فالحقيقة أنه ليس أبعد من المسافة التي قُطعت بالفعل. فهناك فرقٌ كبير بين الجهد الذي يُبذل لإيقاظ النائم وانتشاله من غفلته، ووضع قدميه على أول الطريق، وبين الجهد الذي يُبذل بعد ذلك لترشيد حركته، وتثبيت خطاه، وبثّ الحيوية في مسيره. وما تحقق من يقظةٍ في واقع الأمة ليس أمرًا هيّنًا، بل هو تحولٌ عميق ينبغي أن يُبنى عليه، لا أن يُستهان به.

وثمة مؤشرٌ بالغ الأهمية، كثيرًا ما يُغفل أو لا يُقدَّر قدره: وهو أن عوامل الفساد لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية، فهذه سنة ماضية في التاريخ؛ إذ لا يقوم باطلٌ على الدوام، ولا يستقر نظامٌ على أساسٍ من الانحراف دون أن تبدأ عوامل انهياره من

داخله. إن تآكل البنى الجاهلية ليس أمرًا طارئًا، بل هو جزء من قدر الله الغالب، لا يملك أحدٌ دفعه أو تعطيله، مهما بلغت قوة الخصوم أو اشتدّت حملاتهم.

وفي مقابل هذا التآكل، تتجلى مظاهر الانجذاب إلى الإسلام في صور لافتة، من أبرزها إقبال أعداد متزايدة من الناس في الغرب – في أوروبا وأمريكا– على اعتناقه، ومن بينهم نسبة معتبرة من النخب المتعلمة: أطباء، ومهندسون، وأكاديميون. ولم يكن دافعهم واقع المسلمين بقدر ما كان صفاء الإسلام ذاته، ووضوح رسالته، وقدرته على مخاطبة الفطرة والعقل معًا. فهو يزداد إشراقًا كلما ازدادت ظلمات الجاهلية عمقًا، ويزداد حضورًا كلما حاولت تلك الجاهلية حجبه أو تشويهه.

ولعلّ اللافت أن محاولات التنفير الطويلة لم تفلح في صدّ هذا الإقبال، بل كثيرًا ما تنقلب إلى دافعٍ معاكس، يثير التساؤل ويقود إلى البحث. وتبرز في هذا السياق فئة النساء اللواتي يُقبلن على الإسلام رغم الضغوط والصور النمطية، في صورة تعكس قوة الحضور الحقيقي للفكرة حين تلامس القلوب بصدق.

ولا ينبغي أن يُغفل عن حقيقة كبرى: أن شدة المواجهة، بما تحمله من ضغوطٍ وقسوة، لم تُفضِ إلى انكماش الفكرة، بل كثيرًا ما كانت سببًا في انتشارها واتساع أثرها. فتاريخ الدعوات يشهد أن المحن – على شدتها– قد تكون وقودًا للامتداد، وأن سنن الله تجري على نحوٍ يتجاوز الحسابات الظاهرة.

ومن هنا، فإن القول بأن الإسلام مقبل ليس مجرد شعار عاطفي، بل قراءة لمسارٍ تتكامل فيه الشواهد. غير أن هذا الأفق المشرق لا يُعفي من المسؤولية، بل يضاعفها؛

إذ يضع على عاتق العاملين واجبًا ثقيلًا: إعادة بناء المعنى في النفوس، وإحياء جوهر "لا إله إلا الله" كما كان فاعلًا في تشكيل الإنسان الأول.

وهذا يقتضي إزالة ما تراكم حول هذه الكلمة من تشوهات عبر القرون، وإعادتها إلى موقعها الطبيعي: مصدرًا للهداية، ومنهجًا للحياة، وقوةً دافعة للإصلاح. فليست القضية أن تُقال الكلمة، بل أن تُستعاد فاعليتها، وأن تُترجم إلى وعيٍ وسلوكٍ ومشروعٍ ينهض بالأمة ويخاطب الإنسانية.

وحين تُفتح القلوب لهذه الحقيقة، وتُفعَّل مقتضياتها في الواقع، تتوقد فيها أنوار اليقين، وتتحول من قلوبٍ متلقية إلى مشاعل هادية، تُضيء الطريق للناس. وذلك هو جوهر التكليف، ومعنى المسؤولية، وطريق النهوض الحقيقي.

ولمن يتساءل عن العمل العملي، ويقول: ماذا بعد "لا إله إلا الله"؟ فالجواب أن كل عملٍ صادق لا بد أن ينبثق من مقتضياتها، لا أن يُفصل عنها. فهي ليست مجرد كلمة تُقال، بل أصلٌ تُبنى عليه الحياة، ومنهجٌ تُوزن به الأعمال، وميزانٌ تُقاس به الاتجاهات. فإذا انطلقت الأفعال من هذا الأصل، صلحت وبارك الله فيها، وأثمرت أثرها الحقيقي، وعندها يتحقق التمكين في الأرض على وفق وعد الله الحق: أن يُستخلف المؤمنين، ويُمكّن لهم دينهم، ويبدّل خوفهم أمنًا، إذا قاموا بحقه وصدقوا في حمله.

قال الله عز وجل: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: 55).

وإن أعظم ما تحتاجه الأمة اليوم هو ترسيخ هذا اليقين في القلوب، حتى لا يبقى فكرةً ذهنية، بل يتحول إلى حقيقةٍ حيةٍ تُحرّك الإرادة، وتوجّه السلوك، وتضبط المسار. نحتاج إلى استنبات بذرة جديدة من "لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله"، بذرةٍ صافيةٍ حيّة، تُغرس في أرض القلوب، فتثبت جذورها في أعماق الإيمان، وتمتد فروعها في واقع الحياة.

كما ضرب الله المثل بالكلمة الطيبة: كشجرةٍ طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. كذلك الإيمان إذا رسخ، أثمر عملًا دائمًا، وأثرًا متجددًا، ونماءً لا ينقطع. فلا تكون الثمرة موسميةً عابرة، بل عطاءً مستمرًا يزكّي النفس، ويصلح الواقع، ويهدي الطريق.

قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: 24).

فاللهم ارزقنا قلوبًا موحِّدةً صادقة، عاملةً بدينك، ثابتةً على منهج نبيك ﷺ، تقيم شرعك، وتُعلي كلمتك، ولا تزيغ أمام فتنة، ولا تنهزم لشهوة، ولا تنحرف مع هوى، بل تمضي على صراط المؤمنين بثباتٍ ويقين.

اللهم اجعلنا ممن يحملون هذا الدين حقًّا، ويحيونه في أنفسهم قبل أن يدعوا إليه غيرهم، حتى نكون مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وشهودًا للحق في زمنٍ كثرت فيه الفتن، واشتد فيه الابتلاء.

"ولولا دويّ القرآن في الآذان، ولولا كلمة التوحيد التي نزلت في جذر قلوب الأمة رجالًا ونساءً، لَتَفارَطَ عقد هذه الأمة العظيمة تحت النكبات كما تتفارط حباتُ عِقْد وَهَى سِلْكُه وهلك."

أبو فهر محمود شاكر، جمهرة مقالاته، ج2 ص1212.

الخاتمة

وفي ختام هذا المسير، يتبيّن لنا أن "لا إله إلا الله" حقيقة كبرى، ومنهج حياة، وعهدٌ بين العبد وربه، يقتضي علمًا يُبصّر، ويقينًا يُثبّت، وعملًا يُترجم، وجهادًا يُصدّق.

إنها الكلمة التي تُحرّر الإنسان من كل عبوديةٍ لغير الله، فتُقيمه عبدًا خالصًا لربه، لا يخضع لهوى، ولا ينقاد لباطل، ولا يُساوم على حق. وهي التي تصوغ القلب على ميزان الحق، فتجعله يزن الأمور بميزان الوحي، لا بميزان الناس، ويثبت على الصراط ولو تزلزلت من حوله الطرق.

لقد تبيّن أن أعظم الخلل الذي أصاب الأمة لم يكن في قلة الموارد، ولا في ضعف الإمكانات، بل في ضعف استحضار مقتضيات هذه الكلمة في واقع الحياة. حين انفصلت عن العمل، وخفّ أثرها في القلوب، ضعفت الأمة، وتفرّقت كلمتها، ووهنت عزيمتها. وحين تعود هذه الكلمة إلى مكانها الصحيح – في القلوب أولًا، ثم في الواقع– يبدأ التغيير الحقيقي، ويُكتب للنهوض أن يرى النور.

إن الطريق ليس قصيرًا، ولا هو مفروشٌ بالراحة، لكنه واضح المعالم لمن صدق. يبدأ بإصلاح القلب، وبناء الإيمان، وتزكية النفس، ثم يمتد إلى إصلاح الواقع، وإقامة العدل، ونصرة الحق. وهو طريق يحتاج إلى صبرٍ طويل، ونَفَسٍ ثابت، وعملٍ لا ينقطع، لكنه في المقابل طريقٌ موصولٌ بوعد الله الذي لا يتخلّف.

وليس المطلوب أن نكتفي بالتنظير عند الحديث عن هذه الكلمة، بل أن نُحييها في أنفسنا، وأن نُعيد لها سلطانها على القلوب، وأن نجعلها الحاكمة على اختياراتنا، وأعمالنا، ومواقفنا. فبقدر ما تُفعَّل مقتضياتها، يكون النصر والتمكين، وبقدر ما تُهمل، يكون الضعف والتيه.

فيا من قرأت هذه الصفحات – مسلمًا كنت أو مسلمة – اعلم أن القضية لم تعد معرفةً تُحفظ أو علمًا تُحيط به، بل مسؤوليةً تُحمل وأمانة تُبلّغ. وأن "لا إله إلا الله" تنتظر منك صدقًا يوازي عظمتها، وعملًا يليق بها، وثباتًا لا يتزعزع أمام الفتن، وكل ذلك يستوجب التزود بذخائر الإيمان والصبر والتوكل واليقين.

فإن صدقتَ مع الله، فإن وعد الله حق لا يتخلف، يفتح لك ربك أبواب الهداية والتوفيق، ويثبّت قدمك عند الفتن والمحن، ويجعلك من جند نصرته وأهل ولايته، ولو كنت وحدك في مواجهة العالم كله.

قال جل في علاه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: 69). وقال عز وجل: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: 62).

فاللهم اجعلنا من أهل كلمة التوحيد حقًا، علمًا وعملاً، ظاهرًا وباطنًا، واجعلها آخر كلامنا من الدنيا، وسبب نجاتنا يوم نلقاك. لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله.[65]

[65] ومهما سطّرتُ من الكلمات، وجمعتُ من الفوائد والعبر، يبقى في النفس شعورٌ بأن المقام أجلُّ من أن تُحيط به العبارات، وأعظم من أن تستوعبه الصفحات. فاللهم اغفر تقصيرنا، فهذا جهدُ المقلِّ، وأنت الكريم الذي يتقبّل القليل ويبارك فيه، فاجعله خالصًا لوجهك الكريم، وانفع به من قرأه، واجعله شاهدًا لنا لا علينا يوم نلقاك.

وفي الختام، أود التنبيه إلى أن هذا الكتاب ثمرة حلقاتٍ متفرّقة نُشرت في قناة "على منهاج النبوة"، على امتداد أزمنةٍ وظروفٍ مختلفة، حيث كانت كلُّ حلقةٍ تُصاغ في سياقها الخاص، بحسب ما يفتح الله به من معنى. ثم جُمعت هذه الحلقات بعد ذلك في كتابٍ واحدٍ ليكون أقرب إلى الانتظام والاكتمال، مع محاولةٍ للاختصار والتهذيب، في محاولة لاستيعاب متطلبات المقامات وتباين المقاصد. وقد وقع فيه من التقصير ما يقع عادةً في مثل هذا الجمع، إذ لا يَسلم عملٌ بشريٌّ من نقص، غير أن المقصود هو تقريب المعاني وتقديمها في صورةٍ جامعةٍ تُعين القارئ على الانتفاع والتأمل، والله المستعان.

فما كان من حق وإصابة فمن الله وحده لا شريك له، وما كان من زلل أو خطأ، فمن نفسي ومن الشيطان، أستغفر ربي وأتوب إليه.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا مُحَمَّد الأمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

اقتباسات من الكتابات والنقولات[66]

- **ظلمات الجاهلية لا يهزمها إلا نور التوحيد!**

- **الدعوةُ إلى التوحيدِ الخالصِ أساسُ كلِّ إصلاحٍ[67].**

- **كل تأصيل شرعي لا يقوم على أصل التوحيد وتعظيمه .. لابد له أن يفسد.**

- **اجعلوا ألسنتكم رطبة بـ "لا إله إلا الله" فهي مفتاح الجنة وهي سر النجاح في الدنيا والآخرة، بهذا التوحيد الخالص لله سبحانه نعيش ونصارع ونستدرك ونرتقي، فطوبى للموحدين قولا وعملا.**

- **القول بالتوحيد سهل، لكن العمل به هو الشأن العظيم. معرفة الناس بمقتضيات التوحيد في زماننا ضعيفة، نتيجة الاكتفاء بالتنظير عن العمل، وترديد النصوص عن خوض معارك الحق ضد الباطل. ولذلك تبقى نظرة المرء قاصرة ما لم ينل شرف المراغمة. الإسلام دين حركة وعمل وجهاد، لا مجرد خطب وحماسة. ولابد من جهاد لإحياء التوحيد في القلوب. ولن يحيي القلوب موحدة مثل الجهاد. (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب)**

---

[66] والقصد مما كتبت في شأن التوحيد على مواقع التواصل أو استشهدت به من كتابات.

[67] موسوعة أعمال مُحَمَّد الخضر حسين (3/185)

- أيها المؤمن، ما كُلِّفتَ بحمل نتائج الطريق، وإنما كُلِّفتَ بالسير فيه على بصيرة؛ تحقق عبودية الله وحده، وتقوم بحق "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله" صدقًا وثباتًا ويقينًا. فإذا فعلت ذلك فقد أديت ما عليك، ثم يكون بعده أحد الحسنيين: نصرٌ يرفع الله به راية الحق، أو شهادةٌ تلقى بها ربك كريمًا. فلا يساوم المؤمن على توحيده، ولا يبدل عقيدته طلبًا لسلامةٍ أو منفعة، ولو كان ثمن الثبات الدنيا بأسرها؛ فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، والله عزيز حكيم.

- مقامات إعلاء التوحيد ونصرته مقامات هيبة جليلة! وهي من أعظم مقامات العبودية! وهي أيضا من أكثر المقامات الموجبة للفتوحات الربانية والتأييد الرباني. (وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم).

- قال ابن القيم رحمه الله كلاما مهيبا فتأمل: وقد روى الإمام أحمد في مسنده عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السمْحِةِ." فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة. فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل. وضد الأمرين: الشرك، وتحريم الحلال، وهما اللذان ذكرهما النبي صلى الله تعالى عليه وآله فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: إني خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ وَإِنّهُمْ أتَتْهُمُ

الشّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينْهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنَزلْ بِهِ سُلْطَاناً." فالشرك وتحريم الحلال قرينان. وهما اللذان عابهما الله تعالى في كتابه على المشركين في سورة الأنعام والأعراف. وقد ذم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المتنطعين في الدين، وأخبر بمهلكهم حيث يقول: أَلا هَلَكَ المُتَنَطعُونَ، أَلا هَلَكَ المُتَنَطعُونَ، أَلا هَلَكَ المُتَنَطعُونَ". وقال ابن أبي شيبة: حدثنا أبو أسامة عن مسعر قال: "أخرج إلى معن بن عبد الرحمن كتاباً، وحلف بالله أنه خط أبيه، فإذا فيه: قال عبد الله: والله الذى لا إله غيره ما رأيت أحداً كان أشد على المتنطعين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا رأيت بعده أحداً أشد خوفاً عليهم من أبي بكر، وإني لأظن عمر رضى الله عنه كان أشد أهل الأرض خوفاً عليهم." وكان عليه الصلاة والسلام يبغض المتعمقين، حتى إنه لما واصل بهم ورأى الهلال. قال: "لَوْ تَأَخّرَ الهِلالُ لَوَاصَلتُ وِصالا يَدَعُ المُتَعمقُونَ تَعَمُّقَهُمْ، كالمَنكلِ بِهِمْ[68]"

- إن أعظم رحمة يرجوها العبد من ربه! هي أن يحفظه بحفظ التوحيد في قلبه وانبعاث قلبه موحدا متبعا لسنة نبيه ﷺ! وما تراه من قتل ودمار وفتك ومصاب وخطب! فهو من رحمة الله ﷻ بعباده، ليفروا إليه موحدين! ولكن الغافل لا يستوعب مراتب الرحمة وقيمة أجل رحمة! رحمة الثبات والانبعاث

[68] اغاثة اللهفان، 158

والموت بالتوحيد! ولا أقسى عقاب من الغفلة عن التوحيد وعظمته وأثره في حياة الفرد والأمة!

- كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف: 24) في تفسير الطبري: "وقوله: (إنه من عبادنا المخلصين) اختلفت القرأة في قراءة ذلك. فقرأته عامة قرأة المدينة والكوفة (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) بفتح اللام من " المخلصين" بتأويل: إن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوّتنا ورسالتنا. وقرأ بعض قرأة البصرة: "إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ" بكسر اللام، بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلَصوا توحيدنا وعبادتنا فلم يشركوا بنا شيئًا ولم يعبدُوا شيئًا غيرنا. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان قد قرأ بهما جماعة كثيرة من القرأة وهما متفقتا المعنى. وذلك أن من أخلصه الله لنفسه فاختاره فهو مُخْلِصٌ لله التوحيدَ والعبادة ومن أخلص توحيدَ الله وعبادته فلم يشرك بالله شيئًا فهو ممن أخلصه الله فبأيتهما قرأ القارئ فهو للصوابِ مصيبٌ".

- الإصلاح في زماننا عملية معقدة جدا، تعتمد على استراتيجية تصحيح الذهنية التي نشأت عليها الأجيال وترعرعت طيلة عقود الهيمنة، تتطلب حفظ المواقع القيادية، وإحساس المسؤولية، وترشيد الجهود، وتكامل الأفراد، وتوضيح الأهداف، وصيانة ذلك بترسيخ التوحيد والسنة والعدل ومكارم الأخلاق

والمروءة وصناعة الهمة. كل ذلك يبدأ من تقدير الله حق قدره ومعرفة العبد والأمة لموقعهما عبادا وإماء لله ﷻ يسألونه تعالى من فضله العظيم!

- لا بد أن نتخلص من خطاب كثرة التظلم إلى خطاب إقامة العدل. ومن خطاب التنصل إلى خطاب تحمل المسؤولية. ومن خطاب الهروب والتعذر إلى خطاب المواجهة. ومن خطاب تحميل الغير كل شيء! إلى البداية مع النفس! ومن خطاب التركيز على الهوامش إلى التركيز على مراكز صناعة القوة وعوامل الانبعاث والقيادة. ومن خطاب عد النقص والمشاكل إلى خطاب سد النقص وتقديم الحلول. لا بد من انتقالة كاملة لتغيير شامل!

- إن تغيير الذهنية التي تعايشت مع الهيمنة إلى الذهنية التي تروم السيادة، يتطلب صدمات وهزات كبرى، وسنن الله نعمة عظيمة من الله تعالى فلنستفد من هذه السنن.

- ما دمت تحمل هذا التوحيد في قلبك .. ستخشاك إمبراطوريات الكفر! ما دمت تحفظ هذا التوحيد في قلبك .. فأنت السيد وعدوك العبد! ما دمت تؤدي حق التوحيد في قلبك وعملك .. فأنت الفاتح المظفّر! ملكنا الدنيا بالتوحيد فلن نملكها مجددا إلا به! فلا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله، هي كل ما نحتاج إليه!

- قال الحافظ ابن رجب رحمه الله:"فإن التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات."[69]

- في زماننا تزداد الحياة غربة وشدة، كلما زادت قيمة المعاني في نفسك وتعاملاتك وغاياتك. من يعيش المعاني بروحه ويبذل لها مخلصا.. لابد أن يدفع ضريبة ذلك من روحه ومن كل مايملك. لذلك كانت ضريبة العيش لكلمة التوحيد هي الأثمن والأشد تكلفة ولا تضاهيها تكلفة.

- الكلمة العزيزة التي تقتات على روحك وتود إسماعها المؤمنين اليوم ثم لا يلقون لها بالا، ستجد نفسك قد ادخرتها غدا لتسمعها للسابقين الأولين في مجلس يتوق له كل بال. كل ذي لبّ وجوهر حق جليل لا يبلى!

- قال ابن القيم في إعلام الموقعين:" وأثبتُ القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت اللَّه بها عباده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصَّادقَ من أثبت الناس وأشْجَعِهم قلبًا، والكاذبَ مِنْ أمْهَن الناس وأجبنهم وأكثرهم تَلَوُّنًا وأقلهم ثباتًا، وأهلُ الفِرَاسة يعرفون صدق الصادق من ثَبَات قلبه وقت الاختبار،

[69] أسباب المغفرة صـ 29

وشجاعَتِهِ ومَهَابته، ويعرفون كذبَ الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة".

- إن من أعظم مواطن الخلل في قراءة واقعنا اليوم أن كثيرًا من الناس ينظرون إلى الصراعات على أنها نزاعات سياسية أو حدودية أو مصالح وطنية وسيادية بهدف دفع عدوان وتحسين الظروف المعيشية والتحرك بحرية! بينما يغيب عنهم أنها في جوهرها صراعات عقدية ومنهجية؛ لذلك لا يليق بالمسلم أن يختزل الصراع على قطعة أرض أو تولي السلطة في بلاد، أو تحصيل حقوق وامتيازات حياتية! إنما يكون الصراع في عقيدة المسلم على إقامة شريعة الله وإعلاء كلمة الله ﷻ. فهي التي تضمن له كل الأهداف والأحلام الواعدة. إن إهمال مطلب تحكيم الشريعة في الحياة ليس أمرًا ثانويًا، بل هو بابٌ لدوامات من الذل والتفكك، ونذيرٌ بنوازل وابتلاءات تعيد الأمة قسرًا إلى جادة الطريق. لم يدرك كثيرون بعد أن الحل ليس في الانتماءات الضيقة، ولا في الوطنية المجردة، ولا في الحزبية التي تُجزِّئ القضايا، بل في ردّ الأمر كله إلى الله عز وجل، وإعلاء كلمته، وإقامة العدل الذي جاء به الوحي. نعم، دفع الظلم واجب، لكن ليس ليُستبدل ظلمٌ بظلم، ولا طغيانٌ بآخر، بل ليقوم الحق، ويُرفع العدل، وتُحكَّم شريعة الله في الأرض. إنها مسألة نيات قبل أن تكون مسألة مواقف؛ فالمؤمن يُسائل نفسه قبل أن يُسائل الواقع: لماذا يتحرك؟ ولأجل من يقف؟ لأن لحظة اللقاء مع الله قادمة لا محالة، وهناك يُسأل العبد: فيم عملت؟ ولأي راية

سعيت؟ أكان ذلك لله، أم لغيره؟ فليتنبه الناس جيدًا لمقاصدهم، وليحذروا من أن تُزيّن لهم الكثرة أو تُغريهم التحالفات، فالعبرة ليست بحجم الاصطفاف، بل بحقيقة المنطلق وخاتمة الطريق. إن إدراك هذه الحقيقة هو أول طريق التصحيح... وأول خطوة نحو نهضةٍ لا تُبنى على الشعارات، بل على التوحيد والعدل والصدق مع الله تعالى. وأقول: إن كان كل ما مضى من فواجع، وكل ما سُفك من دماء، وما دُمر من بلاد، لا يوقظ الضمائر من غفلتها لتعيد للإسلام رايته وريادته، فلا جدوى من التعلّق بتخمينات حالمة أو انتظار نهاياتٍ محتومة. هي حياة واحدة، فلتكن لله وحده لا شريك له، ولتكن لإعلاء سيادة الإسلام رغم أنف كل ملةٍ كافرة، وكل طاغية. فالبداية الحقيقية تكون بضبط النوايا وتصحيح المقاصد، قبل أي حديث عن نصرٍ يُرجى أو تمكينٍ يُرتجى. فالتاريخ ليس مقدسًا، والعبرة ليست بما مضى، بل بما يُختم به الطريق؛ فالخواتيم هي الشرف، وهي الفوز العظيم. ومن لم يتعلم ذلك طوعًا، تعلمه كرهًا بزلازل سنن الله في الأرض!

- كلما استقر الإيمان في القلب، ترسخت كلمة التوحيد: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25]. واشتد الاستغناء وارتقيت غنيًا، فتعطي ولا تنتظر، وتؤثر ولا تعتذر، وتعفو ولا تحقد، قد أبصرت الدنيا على حقيقتها، والآخرة بنور من الله!

- كانت نساء الأندلس يهدهدن صغارهن بترديد كلمة التوحيد لترسخ في مسامعهم منذ مرحلة المهد، بينما اليوم بالكاد تهدهد الأم صغيرها ولكن على موسيقى الغرب، إلا من رحم ربي. فقدمت نساء الأندلس مقومات حضارة إسلامية مبهرة بقيت مضربا للأمثال. وفي زماننا تطارد المشاكل النفسية صغارنا لتقصير في التربية.

- يقول الرافعي: إنّ من الناس من يختارهم الله؛ فيكونون قمح هذه الإنسانيّة: ينبتون ويحصدون، يعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانيّة في بعض فضائلها. ومن تأمل فصول التاريخ وسير من بذل في سبيل الله تعالى ليعلي كلمة ربه وينصر دينه، يعلم أن كل بذل وكل عطاء وفداء كان يقتات على روح مؤمن .. يحترق هو لينير .. ويهب حياته بسخاء كي ينبعث الناس أحياء موحدين! وتلك أجل مراتب الإيثار ولإحسان والبصيرة! إن عقد التوحيد .. موجب للمراغمة وتكلفته ترتفع بحجم موقع الإسلام في قلب المؤمن. فمن ملك الإسلام كل جوانحه طلق الدنيا وانطلق قوة ضاربة في الأرض طوعا أو كرها. ومثله يجب عليه التزود لملاحم الارتقاء .. والاستعداد لحقيقة آن لا ارتقاء بدون جروح وندوب وحتى دماء تشهد صدق الإقبال والبيعة. ولا بلوغ لمنازل الصديقين والشهداء حتى يقدم دنياه لها فداء. ثم ربح البيع!

- أو تنزف الروح! نعم تنزف! حين تبصر البخس لعظمة الإسلام والإيمان والإحسان! حين تشاهد الزهد في إعلاء كلمة الله تعالى في مواطن المسابقة والظفر والشهادة!

- هو طريق واحد لا طريق غيره! طريق (كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)، وعليها أقم نفسك ووسائلك وأهدافك وأمانيك بل كل ما فيك وما حولك!

- حين تتأمل مواقف الصحابة في امتحانات الصدق! حين ترى الصحابي الجليل يذرف الدمع لسبق أخيه غبطة وحبا في الله!
  حين يبذلون في عسر! ويفدون بأنفسهم في يسر!
  تدرك أنهم سبقوا بصدقهم،لقد كان للصدق أثره في سيرهم وآثارهم إلى يومنا!
  إن كلمة التوحيد ليست مجرد ترديد لكلمة مهيبة!
  بل هي ميثاق وبيعه!

- لقنوا أنفسكم وأبناءكم كلمة التوحيد، فالرحلة طويلة والثأر كبير.

- كل من أحب صدقا وحقا النبي ﷺ وصحبه الكرام ﷺ، تخلق بأخلاقهم وتزود بميراثهم واستقوت همته بهممهم، تشرق روحه بين صفحاتهم، رحيما بالمؤمنين

عزيزا على الكافرين، مخلصا في إعلاء كلمة الله تعالى وحده لا شريك له، والدوس على كل جاهلية كما فعل خاتم الأنبياء فدته النفس! غير ذلك من ادعاء محبة مجردة من الاتباع والاقتداء فمجرد أماني لا عوامل تغيير وانبعاث موجبة للنصر والظفر! فأقيموا النفوس خاشعة على التوحيد والسنة والتأسي بالسابقين الأولين فتلك سبيل النجاة والفلاح في الدارين، ودون ذلك أضغاث أحلام! إن من أرجى ما تقابل به الله عز وجل، على بضاعتك المزجاة ومراتب قبول لا تزال بعيدة تنشدها، هو مجاهدتك لنفسك للثبات على التوحيد والسنة في زمن الغربة!

- هذه المجاهدة التي تبذلها في زمن يُهمش فيه الدين وتُحارب فيه الفضيلة ويُستهان فيه بالذنب والمنكر والوهن، وتُفتقد فيه الصحبة الصالحة المعينة ويشُق الوصول إلى الحلال، ليست بالهينة! بل قد تكون حقيقة أرجى أعمالك كلها. إن الاحتساب من أكثر ما يعين المؤمن والمؤمنة على الثبات والتصبر وهو روح المرابطة والمجاهدة! فلا تفتر عن احتساب كل ما يصيبك في سبيل الله تعالى، حتى كلمة واحدة أبكتك! أو لحظة إحباط أو أسف أفجعتك، أو شعور غيرة على الدين والحق أثقل كاهلك! وتأكد أن الله ينظر لقلبك وعملك، ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وردد في كل حين: لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم مع الأنصار والمهاجرة!

- كلما تأملت أيها المؤمن موجبات محبة الله ﷻ، انكسرت أمام عظمة ربك وجلال شأنه وقدرته سبحانه، بما يعجز وصف عن إيفائه حقه جلّ في علاه. ويسجد القلب لا يجد ما يفي به لمقامات التوحيد والمحبة حقها إلا بذل الأنفاس لإعلاء كلمة ربه إلى آخر رمق! فأي فضل يمنّ الله به على عباده يناجز فضل عبوديتهم لربهم وخالقهم! اللهم ربنا لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا. اللهم ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض وما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

- ليعلو صوت التوحيد خالصا لله ﷻ، ولينصر عيسى عليه السلام نبيا مرسلا، ولتكن كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

- حين يصدحون بكفرهم وفسادهم وشذوذهم وخبثهم، فهذا وقت صدعك بإيمانك وتوحيدك، وقت إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام والقرآن وآيات الله وهدي النبي ﷺ، وقت دعوة الفطر السليمة لنجاتها وموقعها في مقاومة المد الشيطاني القادم من الغرب. هي سنة التدافع ماضية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾

- **من جمال الذكر، كلمة "لا إله إلا الله"، يمكنك ترديدها بدون أن يشعر بك أحد لأنها لا تتطلب تحرك الشفتين. فطوبى لمن رددها مخلصًا. فعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَفضلُ الذِّكرِ لا إله إلا الله، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ لله).**

على منهاج النبوة
على خطى السابقين الأولين
والذيـــن اتبعوهم بإحسان